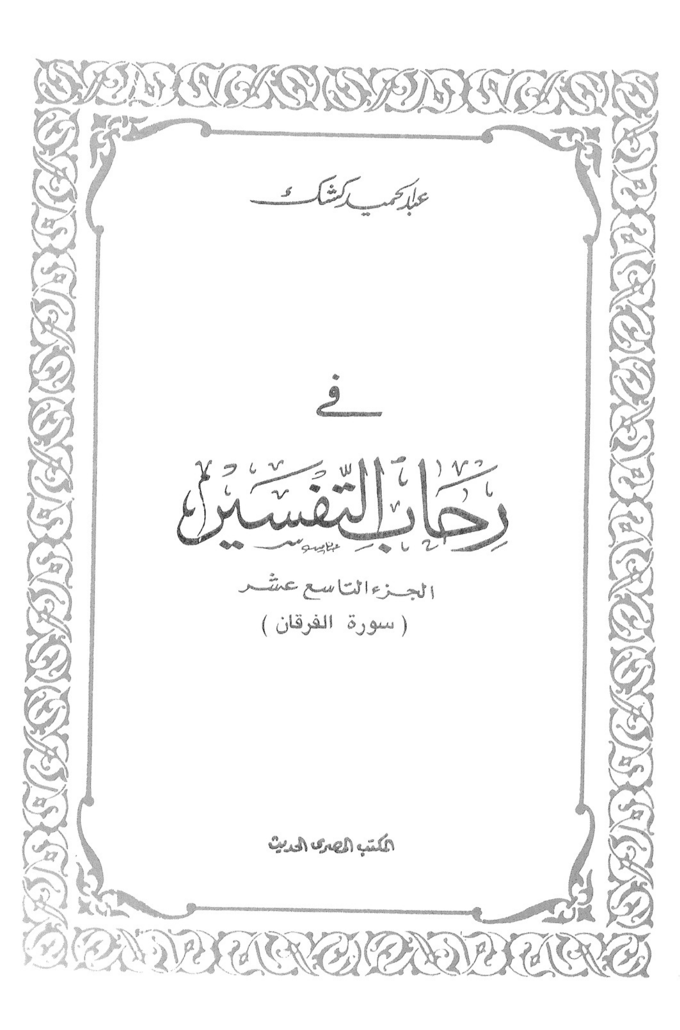


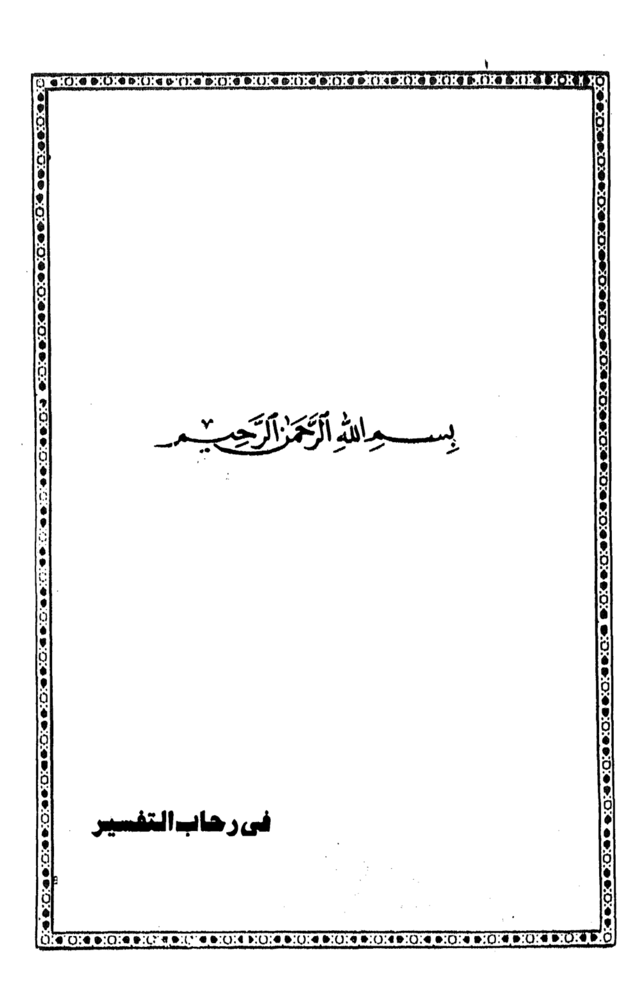
عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء التاسع عشر

(سورة الفرقان)

المكتب المصري الحديث


بسم الله الرحمن الرحيم
في رحاب التفسير

المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت ٣٩٣٤١٢٧
الاسكندرية ٧ شارع نوبار المنشية ت ٤٨٢٦٦٠٢
فاكسيملى القاهرة ٣٤٧٥٤٢٧ (٠٠٢٠٢)

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء التاسع عشر
(سورة الفرقان)

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translatio.

الأزهـــر
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتـاليف والترجمــة

السيد / الأستاذ / مدير المكتب المصري الحديث (أحمد يحيى)

السـلام عليكم ورحمة الله وبركاته ــ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : من رجال بعد القصير الجزء الثاني عشر تاليف : الشيخ / عبد الحميد كشك

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مـانع من طبعـه على نفقتكم الخـاصة .

مع التأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القـرآنية والاحاديث النبـوية الشريفـة .

واللـه المـوفق ،،،

والسـلام عليكم ورحمة اللـه وبركاته ،،،

مدير عـام
ادارة البحوث والتـاليف والترجمــة

تحريرا في ٢٥ / ٧ / ١٤١٠ هـ
الموافق ٢٠ / ١ / ١٩٩٠ م

مواقف مع أهل العناد

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟
فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ
خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾
ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ
يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾
لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ
إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ
بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ
لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا
بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا

لا يرجون أى : لا يخافون ولقاءنا اى : لقاء جزائنا واللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته ، واستكبروا فى أنفسهم أى: أوقعوا . الاستكبار فى شأن أنفسهم بعدها كبيرة الشأن

والعتو : تجاوز الحد فى الظلم تجاوزا بلغ أقصى الغاية ، حين كذبوا الرسول الذى جاء بالوحى ، ولم يكترثوا بالمعجزات التى أتاهم بها ، وحجرا محجورا : كلمة تقولها العرب حين لقاء عدو موتور ، أو هجوم نازلة هائلة ، يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذى يلحقهم ، والمكروه الذى يلم بدارهم أى: نسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ، وقدمنا أى: عمدنا وقصدنا ، والهباء كما قال الراغب : دقاق التراب وما انبث فى الهواء ، ولا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس من كوة ونحوها ، والمستقر ، المكان الذى يستقر فيه المرء فى أكثر الأوقات للجلوس والمحادثة ، والمقيل : المكان الذى يؤوى إليه للاستمتاع بالأزواج والتمتع بحديثهن ، سمى بذلك،لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالبا . (تشقق) تتفتح السماء عن الغمام ، الحق : الثابت الذى لا يزول ، عسيرا : شديدا ، يعض الظالم على يديه : كناية عن الندم ، خليلا : صاحبا وصديقا ، الذكر : القرآن ، خذولا : الخذل الترك من الإعانة ، جملة واحدة أى : دفعة واحدة ، لنثبت به فؤادك أى : لنقوى به قلبك ، ورتلناه أى:أتينا ببعضه اثر بعض على تؤدة ومهل من قولهم ثغر مرتل أى : متفلج الأسنان ، بمثل أى : بنوع من الكلام جار مجرى المثل فى تنميقه وتحسينه ورشاقة لفظه وصدق معناه : تفسيرا أى : ايضاحا ، يحشرون على وجوههم إلى جهنم أى: يسحبون على وجوههم ويجرون إليها . الوزير : قال الزجاج : الوزير من يرجع إليه للاستعانة برأيه ، والتدمير : كسر الشيء على وجه لا يمكن معه إصلاحه ، وأعتدنا:هيأنا وأعددنا ، الرس : البئر غير المبنية ، والجمع رساس . قال ابو عبيدة . والمراد بهم كما قال قتادة أهل قرية من اليمامة يقال لها:الرس والفلج قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح ، والتتبير : التفتيت والتكسير ، والقرية : هى سدوم أعظم قرى قوم لوط . لا يرجون أى : لا يتوقعون ، والنشور : البعث للحساب والجزاء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حكى سبحانه أباطيل المشركين السالفة بطعنهم فى نبوة محمد ﷺ ـ بقولهم ﴿ لولا أنزل

إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ أردف ذلك بذكر سخافات أخرى لهم فى هذا الصدد ، فقالوا : هلا أنزل علينا الملائكة فيخبرونا بصدقه أو نرى ربنا فينبئنا بذلك ، ثم بين أن هذا عتو عظيم منهم ، ثم أعقب هذا ببيان أنهم سيرون الملائكة حين الهول ، يوم الجزاء والحساب حين يقولون لهم : لا بشرى لكم اليوم بل فيه منعكم من كل خير ، فإن ما قدمتم من عمل صالح فى الدنيا ، صار هباء منثورا ، ثم أخبر بما يكون لأهل الجنة من خير المستقر ، وحسن المقيل ، فى ظل ظليل ونعم لا مقطوعة ولا ممنوعة ، حين يقولون ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾(١) ولعل فى ذكر هذا ما يكون حافزا لهم على مراجعة أنفسهم وتخمير الرأى ، ليرشدوا إلى طريق السداد ، ويقلعوا عماهم فيه من هوى متبع وشيطان مطاع .

وبعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن المشركين طلبوا إنزال الملائكة ـ أردف هذا ببيان أنهم ينزلون حين ينتهى هذا العالم الدنيوى ويختل نظام الأفلاك والأرض والسموات ، ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب ، فيعض الكافر على يديه نادما على ما فات ويتمنى أن لو كان قد أطاع الرسول فيما أمر ونهى ، ولم يكن قد أطاع شياطين الإنس والجن ، الذين أضلوه السبيل ، وخذلوه عن الوصول إلى محجة الصواب وبعد أن ذكر مقالاتهم الباطلة وتعنتهم الظالم فى الرسول من نحو قولهم ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ وقولهم ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ﴾ وقولهم فى القرآن : ﴿ إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ وقولهم فيه : ﴿ إن هو إلا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ ـ أعقب ذلك بشكاية الرسول إلى ربه ، بأن قومه قد هجروا كتابه ، ولم يلتفتوا إلى ما فيه من هداية لهم ورعاية لمصالحهم فى دينهم ودنياهم ، ثم سلاه سبحانه على ذلك ، بأن هذا ليس دأب قومك فحسب ، بل إن كثيرا من الأمم قد فعلوا مع رسلهم مثل هذا ، فاقتد بأولئك الأنبياء ، ولا تجزع ، ثم وعده وعدا كريما بأن يهديه إلى مطلبه ، وينصره على عدوه ، وكفى به هاديا ونصيرا .

وبعد أن ذكر مطاعنهم فى الكتاب الكريم ، كقولهم : إن هو إلا إفك مبين وقولهم : هو أساطير الأولين ـ قفى على ذلك بذكر شبهة أخرى لهم ، وهى قولهم : لو كان القرآن من عند الله حقا لأنزله جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى ، والإنجيل جملة على عيسى ، والزبور على داود فرد الله عليهم مقالتهم ، وبين لهم فوائد إنزاله منجما ، فذكر منها تثبيت فؤاده ﷺ وتيسير الحفظ ، وفهم المعنى ، وضبط الألفاظ ، إلى نحو أولئك ، ثم وعده بأنهم كلما جاءوا بشبهة دحضها بالجواب الحق ، والقول الفصل الذى يكشف عن وجه الصواب ، وبعدئذ ذكر حال المشركين ، وأنهم حين يحشرون يكونون فى غاية الذل والهوان ، ويجرون على وجوههم إلى جهنم وهم مصفدون بالسلاسل والأغلال . .

وبعد أن تكلم فى دلائل وحدانيته ، ونفى الأنداد ، وفى النبوة ، وأجاب عن شبهات المنكرين لها ، وفى أحوال يوم القيامة وأهوالها ، التى يلقاها الكافرون وفى النعيم الذى يتفضل به على عباده

(١) سورة الزمر آية رقم ٧٤ .

المتقين . أردف ذلك بقصص بعض الأنبياء مع أممهم ، الذين كذبوهم ، فحل بهم النكال والوبال ، ليكون فى ذلك عبرة لقومه المشركين ، الذين كذبوا رسوله ، حتى لا يحل بهم من العذاب مثلما حل بمن قبلهم ، إذ هم تمادوا فى تكذيبهم ، وأصروا على بغيهم وطغيانهم .

وقد ذكر من ذلك خمس قصص : قصة موسى مع فرعون وقومه . . وقصة نوح وقومه ، وقصة هود مع قومه عاد ، وقصة صالح مع قومه ثمود ، وقصة أصحاب الرس .

وبعد أن ذكر مطاعن المشركين فى النبى ﷺ وأورد شبهاتهم فى ذلك ـ أردف هذا ببيان أن ذلك ما كفاهم ، وليتهم اقتصروا عليه ، بل زادوا على ذلك الاستهزاء به والحط من قدره ، حتى لقد قال بعضهم لبعض : ﴿ أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ ﴾ لقد غالوا فى ذلك فسموا دعوته إضلالا ، فرد الله عليهم مقالهم ، وأبان لهم أنه سيظهر لهم حين مشاهدة العذاب من الضال ومن المضل ، ثم عجب رسوله من شناعة أحوالهم بعد حكاية أقوالهم وأفعالهم القبيحة ، وأرشد إلى أن مثل هؤلاء ، يبعد أن يزدجروا عماهم فيه من الغى بنصحك وإرشادك ، فإن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون ، وما هم إلا كالأنعام أو أضل منها سبيلا .

روى ان الآية الأولى نزلت فى أبى جهل ومن معه ، فإنه كان إذا مر رسول الله ﷺ ـ مع صحبه قال مستهزئا (أهذا الذى بعث الله رسولا)

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ .

هذا بعض ما اقترحوه ولولا هنا بمعنى هلا ، والمعنى أنزلت علينا الملائكة بالوحى . وذلك يفسره قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾[1] .

ويحتمل أن يكون المعنى : هلا أنزلت علينا الملائكة فنراها رأى العين ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾[2] .

فجاء الرد القاطع من الله ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[3] . وفى هذا المقام يقول عنهم : ﴿ لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ .

والكبر غمط الناس وبطر الحق ، والعتو والتمرد عن قبول الحق ، كما قال نوح عن قومه : ﴿ إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا[4] ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ﴾ أى هم

(١) سورة الانعام الآية رقم : ١٢٤
(٢) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٠ ـ ٩٢
(٣) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٣
(٤) سورة نوح الآية رقم : ٥ ـ ٧

لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار ، حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن ، فيضربونه كما قال الله تعالى ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم - أى بالضرب - أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾[٢] ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة ﴿ **يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين** ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين ، حال احتضارهم ، فانهم يبشرون بالخيرات . وحصول المسرات .

قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم** ﴾[٣] .

وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : « أن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجى أيتها النفس الطيبة فى الجسد الطيب إن كنت تغمرينه ، أخرجى إلى روح وريحان ورب غيرغضبان »[٤] ، وقد تقدم الحديث فى سورة إبراهيم عند قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء** ﴾[٥] .

وقال آخرون : بل المراد بقوله ﴿ **يوم يرون الملائكة لا بشرى** ﴾ يعنى يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا وما تقدم ، فإن الملائكة فى هذين اليومين ، يوم الممات ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، تبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين . (ويقولون حجرا محجورا) أى :وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم ، وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال :حجر القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف ، إما لفلس أو سفه أو صغر ، أو نحو ذلك ، ومنه سمى الحجر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطواف ، أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، ومنه يقال للعقل حجر ، لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق ، والغرض أن الضمير فى قوله ﴿ **ويقولون** ﴾ عائد على الملائكة ، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير .

٢ - وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى سعيد الخدرى فى الآية : ﴿ **ويقولون حجرا محجورا** ﴾ قال حراما محرما أن يبشر بما يبشر به المتقون[٦] .

٣ - وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج ، أنه قال ذلك من كلام المشركين (يوم يرون الملائكة ﴾ أى

(١) سورة الانفال الآية رقم : ٥٠ — (٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٣
(٣) سورة فصلت الآية رقم : ٣٠ - ٣٢ — (٤) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٧
(٥) الحديث رواه ابن ماجه فى الزهد/ ٣١ ، وأحمد فى مسنده - ٢/ ٣٦٤ ، ٤/ ٢٨٧ ، ٦/ ١٤٠ .
(٦) راجع تفسير ابن كثير ٦/ ١١١ ط : الشعب .

يتعوذون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزلت بأحدهم نازلة أو شدة يقول (حجرامحجورا)[١] وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ، ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد ، لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه ، ولكن قد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ، أنه قال في قوله : ﴿ حجرا محجورا ﴾ أي عوذا معاذا ، فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج ، ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال : (حجرا محجورا) عوذا معاذا الملائكة تقول ذلك فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ قال مجاهد (قدمنا) أى عمدنا .

وقوله تعالى : ﴿ فجعلناه هباء منثورا ﴾ قال : سفيان الثورى بسنده عن على رضى الله عنه في قوله : (هباء منثورا) قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة وقال قتادة في قوله : ﴿ هباء منثورا ﴾ قال أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الريح .

وقال عبد الله بن وهب: أخبرنى عاصم بن حكيم، عن أبي سريع الطائى، عن عبيد بن يعلى قال : إن الهباء الرماد إذا ذرته الريح وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شيء فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذ أنها لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذى لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شي مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[٤] .

وقال جل شأنه : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾[٥] .

إن الله تعالى لا يقبل العمل ، إلا إذا توافر فيه شرطان ، أن يكون خالصا لله ، وأن يكون صوابا موافقا لشرعه جل فى علاه قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٦]

(١) راجع تفسير ابن كثير ٦/ ١١١ ط : الشعب .
(٢) سورة ابراهيم الآية رقم : ١٨
(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ١١٦ ـ ١١٧
(٤) سورة البقرة الاية رقم : ٢٦٤
(٥) سورة النور الآية رقم : ٣٩ ـ ٤٠
(٦) سورة الكهف الآية رقم : ١١٠

قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ﴾(٣) .

وعن أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى ـ رضى الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ﴾ متفق على صحته(٤) .

وعن أم المؤمنين أم عبدالله عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض نخسف بأولهم وآخرهم . قالت قلت : يارسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم » متفق عليه . هذا لفظ البخارى(٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا)متفق عليه(٦) ومعناه : لا هجرة من مكة ؛لأنها صارت دار إسلام .

وعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال : (كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال : (إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض) وفى رواية (إلا شركوكم فى الأجر) رواه مسلم(٧)

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : (رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال : (إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا ؟ حبسهم العذر)(٨) .

---

(١) سورة البينة الآية رقم : ٥
(٢) سورة الحج الآية رقم : ٣٧
(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ٢٩
(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الايمان (فتح البارى ١ / ١٠ ـ ١٩ ط الحلبى) ، وفى العتق / ٦ ، وفى مناقب الأنصار ٤٠ ، وفى النكاح ٥ ، وفى الايمان / ٢٣ وفى الحيل / ١ ـ ورواه مسلم فى الامارة / ١٥٥ ، وأبو داود فى الطلاق / ١١ والترمذى فى فضائل الجهاد / ١٦ ، والنسائى فى أربعة مواضع من سننه (الايمان والطهارة / ٥٩ والعتاق والطلاق / ٢٤ ، وابن ماجه فى الزهد من سننه / ٢٦ وأحمد فى مسنده ١ / ٢٥ ، ٤٣ .
(٥) الحديث رواه البخارى فى الحج / ٤٩ ، وفى البيوع / ٤٩ ، ومسلم فى الفتن / ٤ ، ٦ ـ ٨ ،وأبو داود فى المهدى / ١ ، والترمذى فى الفتن / ١٠ ، ٢١ ، وفى الحج ١١٢ ، وابن ماجه فى الفتن / ٣٠ ، وأحمد فى المسند ٦ / ١٠٥ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٩ وفى المغازى / ٥٣
(٦) الحديث رواه البخارى فى الصبر / ١٠ ، وفى الجهاد ١ ، ٢٧ ، ١٩٤ / وفى الجزية / ٢٢ ومسلم فى الحج ٤٤٥ ، وفى الامارة ٨٥ ، ٨٦ ، وأبو داود فى الجهاد ، والترمذى فى السير ٣٢ ، ٣٣ والنسائى فى البيعة ١٥ ، وابن ماجه فى الجهاد ٩ ، كفارات / ١٢ والدارمى فى السير / ٦٩ ، وأحمد فى المسند ١ / ٢٢٦ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٥٥ ٣ / ٤٠١ ، ٦ / ٤٦٦ .
(٧) الحديث رواه مسلم فى الامارة / ١٥٩ ، وأبو داود فى الجهاد / ١٩ ، وابن ماجه فى الجهاد / ٦ .
(٨) الحديث رواه البخارى فى الجهاد / ٣٥ .

وعن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس رضى الله عنه ـ وهو وأبوه وجده صحابيون ، قال : كان أبو يزيد أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فجئت فأخذتها فأتيته بها . فقال : (والله ما إياك أردت فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال :(لك ما نويت يايزيد ولك ما أخذ يامعن) رواه البخاري(١)

وعن أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى القرشي الزهري رضى الله عنه ـ أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، رضى الله عنهم قال : (جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت : يارسول الله ، إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة لي ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا ، قلت : فالشطر يارسول الله ؟ فقال : لا ، قلت فالثلث يارسول الله ، قال : الثلث والثلث كثير ـ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك ، قال : فقلت : يارسول الله أخلف بعد أصحابي ؟ قال : إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغى به وجه الله ، إلا ازددت به درجة ورفعة ، ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضربك آخرون . اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم لكن البائس سعد بن خولة) يرثى له رسول الله ﷺ أن مات بمكة متفق عليه(٢) .

وعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) رواه مسلم(٣).

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو سبيل الله) متفق عليه(٤) .

وعن أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قلت : يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى

(١) الحديث رواه البخاري في الزكاة / ١٥ ، والدارمي في الزكاة / ١٤ ، وأحمد في المسند ٣ / ٤٧٠

(٢) الحديث رواه البخاري في الجنائز ٣٦ ، وفي الوصايا ٢ ، وفي مناقب الانصار / ٤٩ ، وفي المغازي ٦٤ ، وفي النفقات / ١ وفي المرضى ١٦ ، وفي الدعوات ٤٣ ، وفي الفرائض ١٦ ، ورواه مسلم في الوصية ٥ ، ٨ ، وأبو داود في الوصايا / ٢ ، والترمذي في الوصايا / ١ ، والنسائي في الوصايا / ٣ .

(٣) الحديث رواه مسلم في البر / ٣٢ وابن ماجه في الزهد / ٩ . وأحمد في المسند ٢ / ٢٨٥ ، ٥٣٩ .

(٤) الحديث رواه البخاري في التوحيد / ٢٨ ، ومسلم في الامارة / ١٥ ، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦ وابن ماجه في الجهاد ١٣ وأحمد في المسند ٤ / ٣٩٧ ، ٤٠٥ .

المسجد لا يريد إلا الصلاة . لا ينهزه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم مادام فى مجلسه الذى صلى فيه يقولون : اللهم ارحمه ؟ اللهم اغفر له ! اللهم بث عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه) متفق عليه(١) .

وهذا لفظ مسلم وقوله ﷺ : (ينهزه) هو بفتح الياء والهاء وبالزاى : أى يخرجه وينهضه .

٢ ـ وعن أبى العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال : (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ؛ وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة) متفق عليه(٢) .

٣ ـ وعن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : (انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا . إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وان أغبق قبلهما أهلا أو مالا ؟ فلبثت ـ والقدح على يدى ـ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى ـ فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى (وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها ، وفى رواية : (فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : ياعبد الله أدّ إلىّ أجرى . فقلت كل ماترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق فقال : ياعبد الله لا تستهزىء بى فقلت : لا أستهزىء بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون)(٣) متفق عليه .

(١) الحديث رواه البخارى فى الصلاة / ٨٧ ، وفى الأذان / ٣٠ ، وفى البيوع / ٤٩ ، وابو داود فى الصلاة / ٤٨ ، وابن ماجه فى المساجد / ١٦ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٥٢ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٣١ ، ومسلم فى الايمان / ٢٠٧ ٣ ـ الحديث رواه البخارى فى الاجارة / ١٢

المعنى : لا أغبق : « بفتح الهمزة وسكون الغين المعجمة وضم الباء الموحدة وكسرها » أى :لا أقدم فى الشرب قبلهما أهلا ولا مالا من رقيق وخادم (والغبوق) شرب العشى .
أرح : « بضم الهمزة وكسر الراء » أى أرجع
يتضاغون : بالضاد والغين المعجمتين يصيحون من الجوع .

والآن نسأل ما هو الإخلاص . الإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله ـعز وجل ـعن جميع الشوائب وقيل : هو إفراد الله ـعز وجل ـبالقصد فى الطاعات .

وقيل : هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ وقد أمرنا الله ـعز وجل ـبه فقال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ .

وعن أبى امامة ـرضى الله عنه ـقال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شىء له فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ لا شىء له ثم قال : (ان الله ـعز وجل ـلا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه) رواه ابو داود والنسائى(١) .

وعن أبى سعيد الخدرى ـرضى الله عنه ـعن النبى ﷺ أنه قال فى حجة الوداع : (نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرء مؤمن : إخلاص العمل لله والمناصحة لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم يغل : بكسر الغين وتشديد اللام وضم الياء من أغل اذا خان وبفتح الياء من غل إذا صار ذا حقد وعداوة .

والمعنى أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب فمن تخلق بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر .

الدغل : بالتحريك : الفساد . ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالاخلاص لقول الله عز وجل : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾(٢) وروى ان أحد الصالحين كان يقول لنفسه : (يانفس أخلصى تتخلصى) .

وكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل اليه القلب قل أو كثر اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه ، والانسان مرتبط فى حظوظه ، منغمس فى شهواته ، قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا ، وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن الشوائب ، فالاخلاص : تنقية القلب من الشوائب كلها قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب ، فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى الجهاد / ٢٤ ، ٣٥ ، والنسائى فى الجهاد / ٣٤ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٩٠ ، ٣٦٦
(٢) سورة الحجر آية رقم : ٤٠ ، سورة ص آية رقم ٨٣

يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار ، فمثل هذا لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته كان خالص العمل ، صحيح النية ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص مسدود عليه الا على الندور وكما ان من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الأعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عبادة من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإن ذاك يتيسر به الإخلاص ، وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن انها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها من المغرورين ، لأنه لم ير وجه الآفة كما حكى عن بعضهم : انه كان يصلى دائما فى الصف الأول فتأخر يوما عن الصلاة ، فصلى فى الصف الثانى فاعترته خجلة من الناس حيث رأوه فى الصف الثانى ، فعلم ان مسرته وراحة قلبه من الصلاة فى الصف الأول ، كانت بسبب نظر الناس إليه ، وهذا دقيق غامض ، قلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من ينتبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم يوم القيامة سيئات ، وهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا** ﴾[1] وبقوله عز وجل : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾[2] .

بعض الآثار عن الإخلاص

قال يعقوب : (المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته)

قال السوسى : (الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد فى إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص) .

وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العجب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا عن جميع الآفات .

قال أيوب : (تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال) .

وقال بعضهم : (إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز) .

وقيل لسهيل : أى شيء أشد على النفس ؟ قال : (الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب)

وقال الفضيل : (ترك العمل من أجل الناس رياء ، العملُ من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما)

حقيقة النية وفضلها

النية : ليست قول القائل بلسانه (نويت) بل هى انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله ،

---

(١) سورة الزمر آية رقم : ٤٧ ـ ٤٨

(٢) سورة الكهف آية رقم : ١٠٣

فقد تتيسر فى بعض الأوقات وقد تتعذر فى بعضها ، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين ، تيسر عليه فى أكثر الاحوال أحضار النية للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى اصل الخير ، فينبعث الى التفاصيل غالبا ، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ، وعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) رواه البخارى ومسلم .

روى عن الشافعى انه قال : (هذا الحديث ثلث العلم) . قوله : (إنما الأعمال بالنيات) يعنى أن صلاح الأعمال الموافقة للسنة بصلاح النية ، وهو كقوله ـ ﷺ : (إنما الأعمال بالخواتيم) .

وقوله ﷺ : (وإنما لكل امرىء ما نوى) يعنى ثواب العامل على عمله بحسب النيات الصالحة التى يجمعها فى العمل الواحد وقوله : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر اليه) وبعد إرساء القاعدة الأولى ، ذكر مثالا للأعمال التى صورتها واحدة ، وتختلف فى صلاحها وفسادها .

والنية الصالحة لا تغير المعاصى عن موضعها ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) فيظن ان المعصية تصير طاعة بالنية ، فإن قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) يخص من اقسام العمل الثلاثة : الطاعات والمباحات دون المعاصى ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالقصد ، اما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد ودخول النية فى المعصية ، إذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها ووبالها !

والطاعات مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها ، فأما الأصل فهو ان ينوى بها عبادة الله وحده ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة أما المباحات فما من شىء منها إلا ويحتمل نية أو نيات ، يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات .

فضل النية

عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ انه قال : (أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله وصدق النية فيما عند الله تعالى)

وقال بعض السلف : (رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية)

وعن يحيى بن ابى كثير : (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل) وصح عن ابن عمر انه سمع رجلا عند احرامه يقول : اللهم إنى أريد الحج والعمرة فقال له : أتعلم الناس أو ليس الله يعلم ما فى نفسك ، وذلك لأن النية هى : قصد القلب ولا يجب التلفظ بها فى شىء من العبادات .

قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ .

وهكذا يقترن الوعد بالوعيد ، فبعد ان حكم الله تعالى على المعاندين بضياع أعمالهم ، وأنها

ستصير هباء منثورا كما قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾(١) .

وكما قال جل شأنه : ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم)(٢) .

بين بعد ذلك جزاء الصالحين الذين أخلصوا دينهم لله ، وسماهم أصحاب الجنة ، وهى تسمية فيها تشريف وتكريم ، فالجنة هو خالقها ومالكها ، ومع ذلك سماهم أصحابها كما قال تعالى : ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾(٣)

قال الحسن رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية سبحانك ربى . . الأنفس أنت خالقها ، والمال أنت مالكه ، ومع ذلك تشترى ما تملك وتهب الجنة ، إن هذا لهو الفوز المبين .

وهكذا يقف الإنسان وقفة العجب ، بين أهل الجنة ، وأهل النار ، فى كل خطوة على صعيد القيامة ، فأهل النار عندما يبعثون من القبور يقولون : (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) . فيقول لهم أهل الجنة : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)(٤) أهل الجنة يحشرون بيض الوجوه وفدا كراما ، وأهل النار يحشرون زرقا عطاشا .

﴿ ويوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾(٥) . أهل النار يقال لهم ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين)

وأهل الجنة يقال لهم : ﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾(٦)

أهل الجنة يقول كل منهم : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾(٧) .

وأهل النار يقول كل منهم ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه ﴾(٨) .

أهل الجنة يقول كل منهم ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾(٩) .

وأهل النار يقول كل منهم ﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾(١٠) .

أهل الجنة يقال لهم ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾(١١) .

وأهل النار يقال لكل منهم ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ﴾(١٢) .

(١) سورة محمد الاية رقم : ١
(٢) سورة محمد الآية رقم : ٨
(٣) سورة التوبة الآية رقم : ١١١
(٤) سورة يس الآية رقم : ٥٢
(٥) سورة مريم آية رقم ٨٥ - ٨٦
(٦) سورة الزمر الآية رقم ٦٠ - ٦١
(٧) سورة الحاقة الاية رقم ١٩
(٨) سورة الحاقة الآية رقم ٢٥
(٩) سورة الحاقة الآية رقم ٢٠
(١٠) سورة الحاقة الآية رقم ٢٦
(١١) سورة الحاقة الآية رقم ٢٤
(١٢) سورة الحاقة الآية رقم ٣٠ - ٣٤

ولقد وعى المسلمون الأوائل ما فى هذه الآية من أسرار فكان أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ يقول لزوجته (أكثرى من المرق وأطعمى المسكين ، فقد كسرنا نصف السلسلة لما آمنا بالله ، ونريد أن نكسر نصفها الآخر بإطعام المساكين) .

وإنما قال تعالى : ﴿ خير مستقرا ﴾ لما توحيه تلك العبارة من الاستقرار المستلزم للأمن كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾(١) وكما قال جل شأنه : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾(٢) .

وكما قال تبارك اسمه : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾(٣) .

فأنت ترى أن الأمن نعمة عظمى ينعم الله بها على عباده ، ومن ثم فقد قدم الأمن على العيش والرزق ، فقال : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ﴾(٤) .

ويوم يفقد الإنسان الأمن ، فقد فقد أعظم نعمة بعد الايمان بالله ، فيا بن آدم :

إذا كنت معافى فى بدنك ، آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها .

عش راضيا واترك دواعى الألم ... واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش ... فيها كريما واعتبرها عدم
ويافؤادى تلك دنيا الخيال ... فلا تنؤ تحت الهموم الثقال
سلم له الأمر فمحو الذى ... خطت يد الأقدار أمر محال
دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد ياعاقلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال
أتسمع الطير أطال الصياح ... وقد بدأ فى الأفق نور الصباح
ما صاح إلا باكيا ليلة ... ولت من العمر السريع الرواح

اعلم بأن الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، فخذ من مفرك لمقرك ، وكيف تطمئن إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، وميت الغد يشيع فيها ميت اليوم .

لاتركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب ان العيش عيش الآخرة

وقوله تعالى : ﴿ وأحسن مقيلا ﴾ والمقيل يطلق على وقت القيلولة ، ويراد به الراحة فى هذا الوقت ، ويطلق على الاستقرار التام والراحة الكاملة ، فهم فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند

(١) سورة الحجر الآية رقم ٤٥ ـ ٤٨
(٢) سورة الأنعام الآية رقم ٨٢
(٣) سورة الدخان الآية رقم ٥١ ـ ٥٥
(٤) سورة النحل آية رقم ١١٢

ربهم ويكفيهم رضوان الله قال تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فيها انشقاق السماء ، وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذى يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر ، ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد وهذا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة)(٢) .

عن ابن عباس انه قرأ هذه الآية : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد ، الجن والإنس ، والبهائم والسباع ، والطير وجميع الخلق ، فتنشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والانس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالجن والانس وبجميع الخلق ، ثم تنشق السماء الثانية ، فينزل أهلها ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، والجن والانس ، وجميع الخلق ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ، ثم تنشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والإنس وجميع الخلق كلهم ، وينزل ربنا ـ عز وجل ـ فى ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع من الجن والإنس وجميع الخلق ، لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله ـ عز وجل ـ رواه ابن ابى حاتم بهذا السياق .

قال جل شأنه : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾(٣) .

قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : (سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك) رواه ابن جرير .

---

(١) سورة التوبة الاية رقم ٧٢
(٢) سورة البقرة الاية رقم ٢١٠
(٣) سورة الحاقة الآيات ١٣ ـ ١٨

قوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾[١] .

وجاء فى الصحيح (ان الله تعالى يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرض بيده الأخرى ، ثم يقول أنا الملك .. أنا الديان .. أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟[٢]

قوله تعالى : ﴿ وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ أى شديدا صعبا ، لأنه يوم عدل وقضاء فصل . كما قال تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾[٣] .

فهذه حال الكافرين فى هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[٤] .

وكما قال تعالى : ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾[٥] .

روى الامام أحمد بسنده عن ابى سعيد الخدرى قال : قيل يارسول الله : (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا) .

مجلس فى ذكر القيامة وأهوالها

قال الله عز وجل : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾هذه السورة مكية محكمة بالوعد والوعيد ، يخوف الله تبارك وتعالى بها عباده ، ويذكرهم فيها تزلزل الأرض وقيام الساعة ، لينتهوا عما نهاهم عنه من العصيان ، ويمتثلوا ما أمرهم به من الطاعة والايمان ، وخوفهم الله تبارك وتعالى من يوم القيامة ليستعدوا لها ولعظيم أهوالها .

قال الله سبحانه وبحمده : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ يقول إذا تحركت الأرض بأهلها ، فزلزلت من نواحيها ، وارتجت من مشرقها ومغربها ، فلا تزال كذلك حتى يكسر ما على ظهرها من جبل وبناء فلا تسكن حتى يدخل فى بطنها جميع ما خرج منها . وزلزلتها من شدة صوت إسرافيل عليه السلام

---

(١) سورة غافر الآيات رقم من ١٥ ـ ٢٠

(٢) الحديث رواه مسلم فى المنافقين /٢٤ وأبو داود فى السنة /١٩ وابن ماجة فى الزهد ٣٣ واحمد فى مسنده ٧٢/٣ .

(٣) سورة المدثر الآيات رقم من ٨ ـ ١٠

(٤) سورة الأنبياء الآية رقم ١٠٣

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ١٠٧

وذلك إذا فرغت أحيان الدنيا وساعاتها وشهورها وأوقاتها وأعوامها وأيامها وحلالها وحرامها ، وذلك إذا خمد الحق وظهر الباطل وترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وركبوا المآثم واستحلوا المحارم ، وكثر بينهم التظالم ، وترك الجهاد وظهر الفساد وفشا الربا ، وكثر اللواطة والزنا ، وركبوا الفواحش والفجور ، واستعانوا على ذلك كله بشرب الخمور ، وأمر قوم بالمعروف وتركوه ، ونهوا عن المنكر وفعلوه ، وكرهوا الحق واتبعوا أهواءهم ، وقرىء القرآن فلم يعمل به ، واسودت القلوب وكثرت الفواحش والعيوب ، وتزين الفساق بالمعاصى والذنوب ، فإذا كانوا كذلك اشتد غضب الجبار - جل جلاله - عليهم وعند ذلك يقول الله : ياإسرافيل انفخ نفخة الصعق ، فينفخ اسرافيل عند ذلك كما امره الجبار جل جلاله ، فتزلزل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وذلك من غضبة يغضبها الجبار على المنافقين والفجار .

صفة اسرافيل

وإسرافيل عليه السلام ، ملك عظيم جناح له بالمشرق وجناح له بالمغرب ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى بخمسمائة عام والسموات السبع إلى ركبتيه ، وعنقه ملوى تحت العرش والعرش على كاهله ، وقد مد الرجل اليمنى وأخر اليسرى ، واللوح المحفوظ بين عينيه وقد التقم الصور وشخص ببصره نحو العرش ، وأنصت بإذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ فى الصور ؟ والصور قرن من نور .

قال النبى ﷺ : (الصور قرن من نور ، والذى نفسى بيده إن أعظم ثارة فيه كما بين السماء والأرض)[(١)] .

وروى عنه ﷺ أنه قال : (كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر ان ينفخ فى الصور فإذا نفخ فيه مات أهل السموات والأرض إلا أربعة أملاك فإنهم لا يموتون إلا بعد موت الخلائق وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فمن شدة صوت إسرافيل تتحرك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، فلا يبقى عليها بناء إلا انهدم إلا المساجد ، فإن أساسها يبقى لا ينهدم لفضلها عند الله تبارك وتعالى ، لما عبد فيها ووحد وقرىء كلامه فيها[(٢)] وذلك قوله تعالى : ﴿ **كل شىء هالك إلا وجهه** ﴾[(٣)] جاء فى **التفسير ان الأشياء**

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ فى كتب الحديث التى عندى والذى وقفت عليه فى وصف الصور ما رواه احمد فى مسنده / ١٦٢ ، ١٩٢ والترمذى فى القيامة / ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٩ ، والدارمى فى الرقاق / ٧٩ وابن جرير الطبرى فى تفسيرة ٧ / ١٥٧ بلفظ : (الصور قرن ينفخ فيه) .

(٢) لم أجد هذه الرواية المطولة فى مراجع الحديث التى عندى والذى وجدته فى هذا ما رواه أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر (المسند ٣ / ٧٣) والله أعلم .

(٣) سورة القصص الآية رقم : ٨٨

كلها تهلك ، إلا عملا يراد به وجه الله تعالى ، والمساجد لا تهلك ، لأنها إنما بنيت لوجه الله تعالى

خشية النبى من هبوب الريح

روى عن النبى ﷺ أنه كان إذا هبت الريح تغير لونه ، وكان يخرج ويدخل مرة بعد أخرى من شدة خوف قيام الساعة وزلزلة الأرض .

فإذا كان رسول الله ﷺ يخاف كل هذا الخوف ، وهو أكرم الخلق على الله ؟ فكيف بمن أفنى عمره فى السهو والغفلات ؟ وقطع أيامه باللهو والمبطلات ، وضيع أوقاته فى العصيان حتى مات ؟ ؟ وأنشدوا :

نهارك يـامغـرور سهـو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
وشغلك فيما سوف تكره غبه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
وفعلك فعل الجاهلين بـربهم ... وعمر لك فى النقصان بل أنت ظالم
فلا أنت فى الأيقاظ يقظان حازم ... ولا أنت فى النوام ناج وسالم
تسر بمـا يفنى وتفرح بـالمنى ... كما سر باللذات فى النوم حالم
فلا تحمد الدنيا ولكن فذمها ... ولا تكثر العصيان إنك ظالم

وروى عن النبى ﷺ انه قال : (انتهيت ليلة أسرى بى إلى السماء السابعة فرأيت إسرافيل قد حنى جبهته ، وقدم رجلا وأخر أخرى والعرش على منكبه ، والصور فى فيه بين شدقيه ، وقد تهيأ للنفخ فى الصور ، فما ظننت أن أبلغ الأرض حتى تبلغنى النفخة كما رأيت من تهيئته للنفخ) .

سئل رسول الله ﷺ عن إسرافيل فقال : (له جناح بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت الأرض السابعة السفلى والعرش على كاهله وإنه ليفكر فى كل يوم ثلاث ساعات فى عظمة الله تعالى فيبكى من خوف الجبار حتى تجرى دموعه كالبحار ، فلو أن بحرا من دموعه أذن له أن يسكب لطبق بين السموات والأرض ، وانه ليتواضع ويصغر حتى يصير كالوضع ، والوضع طير صغير يشبه العندليب ، والعندليب أصغر ما يكون من الطير) .

فالله الله يامعشر من آمن بالله واليوم الآخر ، استعدوا لقيام الساعة وزلزالها قال الله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ تتحرك الأرض وتتمخض وتتطاير الجبال وتنقلع الشجر وتنهدم المبانى فلا يبقى على ظهرها من جبالها وشجرها ونبتها شىء إلا دخل فى جوفها .

قال عكرمة : إنما تقوم الساعة على شر الخلق .

متى ينفخ فى الصور

قال حذيفة : كان الناس يسألون النبى ﷺ عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر مخافة أن يصيبنى ، فكان النبى ﷺ يقول : (فى آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم . فإذا غضب الله تعالى على أهل

الأرض أمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق فينفخ على غفلة من الناس فمن الناس من هو فى وطنه ومنهم من هو فى سوقه ومنهم من هو فى حرثه ، ومنهم من هو فى سفره ومنهم من يأكل فلا يرفع اللقمة إلى فمه حتى يخمد ويصعق ، ومنهم من يحدث صاحبه فلا يتم الكلمة حتى يموت ، فتموت الخلائق كلهم عن آخرهم) .

وإسرافيل لا يقطع الصعقة حتى تفور عيون الأرض وأنهارها ونباتها وأشجارها وجبالها وبحارها ، ويدخل الكل بعضه فى بعض فى بطن الأرض والناس خمود صرعى ، فمنهم من هو صريع على وجهه ، ومنهم من هو صريع على ظهره وعلى جنبه وعلى خده ، ومنهم من يكون اللقمة فى فيه فيموت ، وما أدرك أن يبتلعها ، وتنقطع السلاسل التى فيها قناديل النجوم فتستوى بالأرض من شدة الزلزلة وتموت ملائكة السبع السماوات ، والحجب والسرادقات ، والصادقون والمسبحون ، وحملة العرش والكرسى ، وأهل سرادقات المجد والكروبيون ، ويبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام .

كيف يموت جبريل

فيقول الجبار جل جلاله ياملك الموت من بقى ؟ ـ وهو أعلم ـ فيقول ملك الموت : سيدى ومولاى أنت أعلم . بقى إسرافيل وبقى جبريل وبقى ميكائيل ، وبقى عبدك الضعيف ملك الموت خاضع ذليل قد ذهلت نفسه لعظيم ما عاين من الأهوال . فيقول له الجبار تبارك وتعالى : انطلق إلى جبريل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى جبريل عليه السلام فيجده ساجدا وراكعا فيقول له : ما أغفلك عما يراد بك يامسكين ، قد مات بنو آدم وأهل الدنيا والأرض والطير ، والسباع والهوام وسكان السموات وحملة العرش والكرسى والسرادقات وسكان سدرة المنتهى ، وقد أمرنى المولى بقبض روحك ! فعند ذلك يبكى جبريل عليه السلام ، ويقول متضرعا إلى الله تعالى : ياألله هون على سكرات الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر جبريل منها صريعا ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ياملك الموت ؟ ـ وهو أعلم ـ فيقول : مولاى وسيدى بقى ميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت ميكائيل

فيقول الجبار جل جلاله انطلق إلى ميكائيل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى ميكائيل كما أمره الله تعالى ، فيجده ينتظر الماء ليكيله على السحاب ، فيقول له ما أغفلك يامسكين عما يراد بك ! ما بقى لبنى آدم رزق ولا للأنعام ولا للوحوش ولا للهوام . قد مات أهل السموات وأهل الأرض وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسى وسرادقات المجد والكروبيون والصادقون والمسبحون ، وقد أمرنى ربى بقبض روحك ، فعند ذلك يبكى ميكائيل ويتضرع إلى الله ويسأله أن يهون عليه سكرات الموت ، فيحتضنه ملك الموت ويضمه ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر صريعا ميتا لا روح

فيه ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ؟ ـ وهو أعلم ـ ياملك الموت ؟ فيقول مولاى وسيدى أنت أعلم ، بقى إسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت إسرافيل

فيقول الجبار تبارك وتعالى انطلق إلى إسرافيل فاقبض روحه ، فينطلق كما أمره الجبار إلى إسرافيل ، فيقول له ماأغفلك يامسكين عما يراد بك ! قد مات الخلائق كلهم وما بقى أحد ، وقد أمرنى ربى ومولاى أن أقبض روحك ، فيقول إسرافيل : سبحان من قهر العباد بالموت ، سبحان من تفرد بالبقاء ، ثم يقول : مولاى هون على مرارة الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر ميتا صريعا ، فلو كان أهل السموات فى السموات وأهل الأرض فى الأرض لماتوا كلهم من شدة رجة وقعته .

كيف يموت ملك الموت

فيقول الجبار تبارك وتعالى من بقى ياملك الموت ؟ ـ وهو أعلم ـ فيقول مولاى وسيدى أنت أعلم بمن بقى ، بقى عبدك الضعيف ملك الموت فيقول الجبار تعالى : وعزتى وجلالى لأذيقنك ما أذقت عبادى انطلق بين الجنة والنار ومت ، ينطلق بين الجنة والنار ، فيصيح صيحة لولا أن الله تبارك وتعالى أمات الخلائق لماتوا من عند آخرهم من شدة صيحته فيموت ، فتبقى السموات خالية من أملاكها ، ساكنة أفلاكها ، وتبقى الأرض خاوية من إنسها وجنها وطيرها وهوامها وسباعها وأنعامها ، ويبقى الملك لله الواحد القهار الذى خلق الليل والنهار فلا ترى أنيسا ولا تحس حسيسا ، قد سكنت الحركات ، وخمدت الأصوات ، وخلت من سكانها الأرضون والسموات .

لمن الملك اليوم

ثم يطلع الله تبارك وتعالى إلى الدنيا فيقول : يادنيا أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ، وأين سكانك ، وأين عمارك ، أين الملوك وأبناء الملوك ، وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين أكلوا رزقى ، وتقلبوا فى نعمتى وعبدوا غيرى لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول تعالى الملك : لله الواحد القهار ، فينظر الجبار جل جلاله إلى عباده موتى من بين صريع على خده ومن بين بال فى قبره ثم يقول يادنيا أين أنهارك وأين أشجارك وأين سكانك وأين عمارك وأين الملوك وأين الجبابرة لمن الملك اليوم ؟ لا يجيبه أحد ، فيقول تعالى : لله الواحد القهار فتبقى الأرضون والسموات ليس فيهن من ينطق ولا من يتنفس ما شاء الله من ذلك ، وقد قيل تبقى أربعين يوما وهو مقدار ما بين النفختين ، ثم بعد ذلك يُنزل الله تبارك وتعالى من السماء السابعة من بحر يقال له بحر الحيوان ماء يشبه منى الرجال ينزله ربنا أربعين عاما فيشق ذلك الماء الأرض شقا فيدخل تحت الأرض إلى العظام البالية فتنبت بذلك الماء كما ينبت الزرع بالمطر .

كيفية بعث الموتى

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ .

قال الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى رحمه الله تعالى فى كتابه (بستان الواعظين ورياض السامعين) .

كما أخرج النبات بالمطر ، كذلك يخرج الموتى بماء الحياة ، فتجتمع العظام والعروق واللحوم والأشعار ، فيرجع كل عضو إلى مكانه الذى كان فيه فى دار الدنيا ، فتلتئم الأجساد بقدرة الجبار جل جلاله ، وتبقى بلا أرواح ، ثم يقول الجبار جل جلاله : ليبعثن إسرافيل فيقوم إسرافيل عليه السلام حيا بقدرة الله تعالى فيقول له الجبار ياإسرافيل التقم الصور وازجر عبادى لفصل القضاء ، فأول ما يحيى الله تبارك وتعالى إسرافيل ويأمره أن يلتقم الصور .

حقيقة الصور

والصور قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد فتجتمع الأرواح كلها فتجعل فى الصور .

أين يقف إسرافيل

ويأمر الجبار إسرافيل أن يقوم على صخرة بيت المقدس ، وينادى فى الصور ، وهو فى فيه قد التقمه والصخرة أقرب ما فى الأرض إلى السماء ، وهو قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب ﴾[1] ويقول إسرافيل فى ندائه : أيتها العظام البالية واللحوم المتقطعة والأشعار المتبددة والعروق المتمزقة ، لتقمن إلى العرض على الملك الديان ، ليجازيكن بأعمالكن ، فإذا نادى إسرافيل عليه السلام فى الصور خرجت الأرواح من أثقاب الصور ، فتنتشر بين السماء والأرض ، كأنها النحل ، يخرج من كل ثقب روح ولا يخرج من ذلك الثقب غيره ، فأرواح المؤمنين تخرج من أثقابها نائرة بنور الإيمان وبنور أعمالها الصالحة ، وأرواح الكافرين تخرج مظلمة كظلمات الكفر ، وإسرافيل يديم الصوت والأرواح قد انتشرت بين السماء والأرض ثم تدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد فيدخل كل روح إلى جسده الذى فارقه فى دار الدنيا ، فتدب الأرواح فى الأجساد كما يدب السم فى الملسوع (وهو الذى لسعته العقرب والحية ونفثت سمها فيه) فيتمشى فى الجسم على مهل إن لم يتدارك بربط العضو الملسوع ، ويجب بعد ربطه ربطا محكما أن يشرط بموس لينزل منه الدم ثم يمتصه آخر ليس فى فمه جروح ، ويوضع عليه ملح الطعام ويسقى ماء الليمون) .

---

١ - سورة ق الآية رقم ٤١

حتى ترجع إلى أجسادها ، كما كانت فى دار الدنيا ثم تنشق الأرض من قبل رءوسهم ، فإذا هم قيام على أقدامهم ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وطوامها ، وإسرافيل عليه السلام ينادى بهذا النداء لا يقطع الصوت ويمده مدا ، والخلائق يتبعون صوته ، والنيران تسوق الخلائق إلى أرض القيامة .

ملازمة الأعمال للأجساد

فإذا خرجوا من قبورهم ، خرج مع كل إنسان عمله الذى عمله فى الدنيا ؛ لأن عمل كل إنسان يصحبه فى قبره ، فإن كان العبد مطيعا لربه وعمل عملا صالحا كان أنيسه فى الدنيا ، ويكون أنيسه إذا خرج من قبره يوم حشره يؤنسه من الأهوال ومن هموم القيامة وكروبها ، كلما نظر العبد المؤمن إلى نار أو إلى هول من أهوال القيامة جزع ، فيقول له عمله : ياحبيبى ما عليك من هذا شىء ، ليس يراد به من أطاع الله ، وإنما يراد به من عصى الله تعالى مولاه ، ثم كذب بآياته واتبع هواه ، وأنت كنت عبدا مطيعا لمولاك متبعا لنبيك تاركا لهواك ، فما عليك اليوم من هم ولا حزن حتى تدخل الجنة .

العمل السوء وهيأته

وإذا كان العبد خاطئا وعاصيا لذى الجلال ، ومات على غير توبة وانتقال ، فإذا خرج المغرور المسكين من قبره ، خرج معه عمله السوء الذى عمل فى دار الدنيا ، وكان قد صحبه فى قبره ، فإذا نظر إليه العبد المغتر بربه رآه أسود فظيعا فلا يمر على هول ولا نار ولا شىء من هموم القيامة ، إلا قال له عمله : ياعدو الله هذا كله لك وأنت المراد به ، وأنشدوا :

أى يوم يكون يوم النشور … يوم فيه يفوز أهل القبور
يوم فيه الجزاء جنة عدن … لمطيع ومن عصى فى سعير
خاب من قد عصى وفاز مطيع … راقب الله فى جميع الأمور
قام فى الليل للإله ذليلا … ليس يخلو من خوفه للقدير
خاف من عظم يوم هول شديد … شدة الهول من عذاب الزفير

فالله الله عباد الله ، معشر المريدين انتبهوا من هذا المنام واهجروا الفواحش والآثام ، وارجعوا إلى طاعة الملك العلام ، من قبل أن يأتى يوم تشقق السماء فيه بالغمام .

إخراج الأرض وما فيها

قال الله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ يعنى ما فيها من الموتى والكنوز ، وما أودعها من أعمال العباد ، ومن مخبآت أسرارهم من أعمال الطاعة وأعمال العصيان ، فيأمر الله تعالى أن تخرج أعمال العباد ، وذلك أن العبد إذا خرج من قبره يجد عمله على شفير قبره ، فإن كان عملا صالحا وجده نورا يستره ويحجبه ، يستر عورته من أعين الناس ، ويحجبه عن النيران التى تسوق الناس إلى

أرض القيامة ، وإن كان عملا سيئا وجده ظلمة سوداء ، تكون عليه أشد من كل هول يلقاه من أهوال يوم القيامة .

هذا كله فى النفخة الثانية ، وبين النفخة الأولى والثانية ، أربعون سنة فهو قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ .

فمثل لنفسك يامغرور وقد ترادفت عليك الهموم والكروب ، وأحاطت بك الأهوال والخطوب وأظهرت لك القبائح والعيوب وأثقلت ظهرك الأوزار والذنوب . وأنشدوا :

قد سودت وجهى المعاصى ... وأثقلت ظهرى الذنوب
أورثنى ذكرها سقاما ... فليس لى فى الورى طبيب
ياشؤم نفسى غداة حشرى ... إذا أحاطت بى الكروب
وصوت داع دعا باسمى ... أين مفرى وما أجيب ؟
هذا كتاب الذنوب فاقرأ ... فعندها تظهر العيوب

ذكر أن العبد إذا خرج من قبره ، وجد عمله السوء حزمة وملك من ملائكة العذاب واقف عليها ، فإذا نظر إلى ما قدم فى أيامه ، قال له الملك ياعدو الله خذ عملك ، فاحمله على ظهرك كما كنت تلتذ به فى الدنيا ولم تراقب مولاك ؟ وقد علمت أنه مطلع عليك ويراك ، فيأخذ العبد المسكين تلك الحزمة ، فيجرها على ظهره أثقل من جبال الدنيا والنار تسوقه إلى الموقف ، وملك يسوقه سوقا حثيثا بالعنف والانتهار والاغلاظ عليه ، وآخر يشهد عليه مع علم الله تعالى فيه . وأنشدوا :

كيف احتيالى إذا جاء الحساب غدا ... وقد حشرت بأثقالى وأوزارى
وقد نظرت إلى صحفى مسودة ... من شؤم ذنب قديم العهد أوطارى
وقد تجلى لهتك الستر خالقنا ... يوم المعاد ويوم الذل والعسار
يفوز كل مطيع للعزيز غدا ... بدار عدن وأشجار وأنهار
لهم نعيم خلود لانفاد له ... يخلدون بدار الواحد البارى
ومن عصى فى قرار النار مسكنه ... لا يستريح من التعذيب فى النارى
فابكوا كثيرا فقد حق البكاء لكم ... خوف العذاب بدمع وأكف جارى

فالله الله ياأولى الألباب ، تفكروا فى هول يوم الحساب ، ولا تنسوا المطالبة برد الجواب ، وأشفقوا على أنفسكم من أليم العذاب ، وارجعوا إلى طاعة رب الأرباب وابكوا على ما سلف من ذنوبكم بانتحاب .

مدة النفخ فى الصور

ذكر أن إسرافيل عليه السلام لا يقطع النداء فى الصور ، حتى تخرج الأرض جميع ما فيها من الموتى ومما أودعها الله تعالى من شىء ، فإذا كمل العباد فى الموقف وكل إنس الأرض وجنها ووحوشها

ودوابها وطيرها وأنعامها وهوامها حتى الذباب ، قطع إسرافيل النداء بأمر الله تعالى وذلك بعد تبديل الأرض غير الأرض والسموات ففى تبديلها قولان :

هيأة الأرض

أحدهما أن الأرض التى يحاسب العباد عليها هى أرض من فضة بيضاء لا جبل فيها ولا بناء ولا بحار ولا أنهار ولا أشجار ، ما سفك عليها دم ولا عصى الله تعالى عليها ، يأتى بها من غامض علمه ، ويقول لها : كونى فتكون وقد أضرم تحتها النيران ، وتكون هذه الأرض فى عظم تلك الأرض مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقد قيل إن تبديل الأرض هدم مبانيها ، وغور مياهها ، وانقطاع أشجارها وتسجير بحارها ، وتسيير جبالها ، وتبديل السماء ، وتكوير شمسها وقمرها ، وانكدار نجومها ، وتعطيل أفلاكها وتشققها . فهذه تبديل الأرض والسموات والله أعلم بحقيقة ذلك :

كيف يقف الناس فى المحشر

فإذا قطع إسرافيل عليه السلام النداء ، وقف الخلائق كل واحد منهم ينظر إلى السماء ولا يرتد إليه طرفه ولا يدرى أحد من يقف بجواره لا رجل ولا امرأة ، ولا يدرى الأخ بأخيه ولا الوالد بولده ولا الأم بابنها ، كل إنسان منهم مشغول بما هو فيه من عظيم الأهوال ، وكل واحد منهم يفكر فيما قد جاء به من العصيان وفرط فيه من الطاعة والنسيان ، فالكل ينظر إلى ما ينزل به الأمر من السماء من شقاوة أو سعادة .

مقدار زمن المحشر

ويقال والله أعلم : إن الوقوف يكون مقدار ثلاثمائة سنة من سنى الدنيا ،لا خبر يتنزل ولا خبر يصعد ، قد كثر الزحام فلا تسمع إلا همس الأقدام ، حيارى نادمون فيما فرطوا فيه من استذلال القدم ، يومئذ لا ينفع البكاء ولا الندم . وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آ ... من بالبعث سرور
إنما يفرح بالدنيـ ... ـا جهول أو كفور
إنما الدنيا متاع ... كل ما فيها غرور
فتذكر هول يوم ... السما فيه تمور

بكاء النبى من أهوال القيامة

١ - روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (خوفنى جبريل عليه السلام من أهوال يوم القيامة حتى أبكانى فقلت له : حبيبى جبريل أليس قد غفر الله لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ؟ فقال : « يامحمد

---

١ - هذا الحديث نقله المصنف مع الكلام السابق واللاحق من (بستان الواعظين لابن الجوزى) ولكن لم أعثر على مخرج لهذا الحديث فيما بين يدى من مراجع وكتب ابن الجوزى بها كثير من مثل هذا

لتشاهدون من الأهوال يوم القيامة ما ينسيك المغفرة » فبكى رسول الله ﷺ حتى بلت دموعه لحيته) .

فهذا كان رسول الله ﷺ يبكى من هول يوم الحساب ، وقد أمنه الجبار من أليم العذاب ، ووعده بالجنة وحسن المآب ، فكيف بأمثالنا المساكين ؟

وكيف بمن ترك الحق والصواب ، وخالف السنة والكتاب ، وأطاع الشيطان وأفنى عمره فى معصية الملك الوهاب ؟ وقد قيل فى قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا)[1] هو تحريكها ، وقيل : دكا دكا : إذهابا .

معنى دك الأرض وانشقاقها

سئل بعض العلماء عن معنى تكرار هاتين الكلمتين ، دكا دكا وصفا صفا ؟ فقال : تدكدك الأرض دكا بعد دك ، أى تحرك مرة بعد أخرى ، حتى لا يبقى عليها أثر من بناء أو جبل أو شجر ، وقوله صفا صفا تأتى الملائكة .

صفا بعد صف ، كل ملك قد شغل بنفسه ، لعظيم ما يرى من ظهور الأهوال ، فإذا كثر زلزال الأرض (فحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) حتى تنقطع الجبال من أصولها ، وتنشق الأرض وتغور فيها أنهارها وعيونها ، ويدخل فيها كل قصر شديد من بين قديم وجديد ، فياله من يوم ما أهوله ، ومن بلاء ما أطوله ، ومن جبار ما أعدله . قد أفنى العباد بالحمام ، فلا يرى أحد من الأنام ، فإذا استوى الأولون والآخرون فى أرض القيامة ، أمر الله تبارك وتعالى السموات أن تنشق ، فتنشق كل سماء ، وتنقطع مثل قطع السحاب ، وقيل كما يتطاير القطن بين يدى القطانين إذا ندفوه فمثل لنفسك صوت انشقاقها فى سمعك ، وكيف يثبت له فؤادك ويستقر لفظاعة هوله قدمك ، فقدم فى أيام حياتك ما يقيك تلك الأهوال ؛ لأن الخلق فى أهوال يوم القيامة على قدر أعمالهم فى الدنيا من خير وشر ، فمن عمل صالحا وخاف من ربه ، وخاف من هول ذلك اليوم ، أمنه مولاه من جميع أهواله وكروبه ، ومن لم يقدم فى دنياه عملا صالحا لأخراه ، لقيته صعاب الخطوب وترادفت عليه الهموم والكروب ، فيندم حين لا تنفعه الندامة إذا حل فى أهوال القيامة .

الأمن والخوف

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **إذا خافنى عبدى فى الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة** ﴾[2] .

فإذا انشقت السموات بلغت القلوب الحناجر ، وأيقن كل عبد وأمة أنه قادم على ما عمل فى

---

(١) سورة الفجر الآية رقم : ٢١

(٢) الحديث أورده العلامة المناوى فى (الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية) ص ٢١١ ـ ٢١٢ بلفظ : لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، إذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة ـ وقال : رواه ابن المبارك عن

الظواهر والسرائر ، إذا انشقت السموات عظمت المصائب ، وكثرت النوائب وندم العبد على ما فرط فى الدنيا وضيع من الثواب والرغائب .

فإذا انشقت السماوات ، عظمت الرزيات ، وكثرت الآفات وظهر العذاب ، وحلت العقوبات ، وأظهر الله مخبآت السريرات وندم العبد المغرور على ما أذنب فى الأيام والأوقات وما جنى فى الشهور والساعات . فإذا انشقت السماوات ، كثرت الأحزان وبرزت النيران ، وأزلفت الجنان ، وندم العاصى على ما عمل من العصيان وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن . فانتبهوا لهذه الأقوال ، يامعشر الاخوان ياأهل الاسلام والايمان فإن الهول ـ والله ـ عظيم والخطب كبير جسيم .

ملائكة سماء الدنيا

فإذا انشقت السماوات ، وتقطعت ونزلت الملائكة بأجمعها ، فإذا نزلت ملائكة سماء الدنيا ، فزع منهم أهل الأرض ، وظنوا أنهم قد أمر فيهم بأمر ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا لا تجزعوا منا فإنا نخاف من الذى تخافون ، وتكون ملائكة سماء الدنيا أكثر من أهل الأرض إنسها وجنها وانعامها وطيرها ووحشها وجميع خلق برها وبحرها ، سبعين ضعفا ، فيبقى العباد يموج بعضهم فى بعض .

ملائكة السماء الثانية

ثم ينزل ملائكة السماء الثانية ، وهم أكثر عددا وأعظم خلقا ممن اجتمع فى الأرض سبعين ضعفا ، فتجزع منهم ملائكة سماء الدنيا وجميع من فى الأرض ، فيقولون لهم لا تجزعوا نحن مشغولون بأنفسنا ونخاف مما تخافون منه ، فلا تزال ملائكة كل سماء تنزل ويجزع منهم جميع من سبقهم ، ويكون أهل كل سماء أكثر وأعظم ممن سبقهم سبعين ضعفا . وكان أهل كل سماء فى صف واحد على حدة كل واحد منهم قد شغل بنفسه من عظيم ما يرى وما يبدو له . وأنشدوا :(١)

ياغافلين أفيقوا قبل بعثكم ... وقبل يؤخذ بالأقدام واللمم
والناس أجمع طراشا خصون غدا ... لا ينطقون بلابكم ولا صمم
والخلق قد شغلوا والحشر جامعهم ... والله طالبهم بالحل والحرم
وقد تبدى لأهل الجمع كلهم ... وعد الاله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة ... لا ينطقون بلا روح من الزحم

الجبابرة فى الحشر كالذر

روى أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صور الذر أصغر الناس خلقة ، لتجبرهم على العباد

(١) الحسن مرسلا ، ورواه ابو نعيم عن شداد بن اوس موصولا بلفظ : إن هو أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع عبادى ، وإن هو خافنى فى الدنيا أمنته يوم أجمع عبادى أ ـ هـ .

فى الدنيا ، قد صارت العزة للغنى الحميد ، ولزمت الذلة كل جبار عنيد وشيطان مريد ، قد ترادفت عليهم الهموم والأهوال ، وظهرت لهم العقوبات والأنكال ، وندم كل مذنب بطال ، فحينئذ لا حيلة لمحتال « فى يوم لا بيع فيه ولا خلال » : ـ

مقام المذنبين غـدا عسير ‏ ‏ ‏ إذا ما النار قربها القدير
وقد نصب الصراط لكى تجوزوا ‏ ‏ ‏ فلا ينجو الكبير ولا الصغير
وقد نسفت جبال الأرض نسفا ‏ ‏ ‏ ويبست البحور فلا بحور
وبرزت الجحيم لكل عبد ‏ ‏ ‏ على أهل المعاد لها زفير

عباد الله تفكروا واعتبروا ، وابكو وتباكوا ، واستعدوا لليوم الثقيل والهول الكبير والخطب الجليل والعذاب الشديد الطويل .

حديث فى أهوال يوم القيامة

ذكر فى بعض الأخبار عن النبى ﷺ وعلى آله الأخيار دوام اختلاف الليل والنهار ، أنه قال : (ليوم القيامة مائة ألف هول ، كل هول أعظم من الموت مائة ألف مرة ، فاندم يامسكين على ما صنعت وفات وأصلح بالتوبة النصوح ما هو آت من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ليس للظالمين من نصير ، ولا للعاصين من مجير ولا لأحد من ملجأ ولا نكير .

شدة الحر والظل

فإذا تكامل أهل السموات وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسى ، وجميع أهل الأرض فى عرصة القيامة وازدحمت الخلائق واختلفت الأقدام وشخصت الأحداق وتطاولت الأعناق وانثنت من شدة العطش . واجتمع زحام الخلائق وانفاسهم وشدة حر الشمس وضيق اليأس ، ارتفع العرق على وجه الأرض ، حتى يعلو على الأبدان ، ويعم العباد على قدر منازلهم ورتبتهم ، التى أنزلتهم عليها أعمالهم التى عملوها فى دار الدنيا ، وقد زيد فى حر الشمس ما يتضاعف قيل حر عشر سنين ـ ولا ظل يومئذ إلا ظل العرش ، فلا يصيب منه عبد ولا أمة إلا على قدر عمله ، فكم بين مستظل ناعم بظل العرش وبين ضاح باد بحر الشمس ؟

مطر الرحمة

وقد قيل : إن الله تبارك وتعالى يمطر يوم القيامة الغيث على طائفة من عباده ، وترمى جهنم شررها على طائفة أخرى ، فكم من مستريح ببرد ماء الأمطار وبين ملتهب بحر شرر النار ؟ فمن قطع عمره فى الدنيا بطاعة الرحمن وعمل بالسنة والقرآن خلصه مولاه من جميع الهموم والأحزان .

ترهيب من أهوال الحشر

فمثل لنفسك وقد نظرت للجبال قد تقلعت من أصولها ، وصارت مثل السراب ، وتقطعت

السموات وتطايرت مثل قطع السحاب ، وقد أيقن كل فاجر وكافر بالحلول فى أليم العذاب ، وقد صارت العزة لذى البطش الشديد . ولزمت الذلة كل جبار عنيد ، ثم رجعت السماء كالمهل - وهو دردى الزيت الذى يجلس فى قعر الاناء ، قيل ترجع السماء كالدهن الرقيق وترجع الجبال كالعهن المنفوش ، وهو أضعف ما يكون من الصوف وتصير الخلائق كالفراش وهو البعوض ، وقيل كالجراد المنتشر إذا خرجت عليه الشمس لا يأخذ بجهة واحدة .

كذلك الخلق يموج بعضهم فى بعض لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . قد اجتمعت القيامة بأهوالها ، ووضعت الحوامل أحمالها وزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها ، وشهد على الأمم بأعمالها . وشاب الوليد وحضر الوعد وحق الوعيد وعظم الهول الشديد ، وذل كل متكبر وجبار عنيد ، قد خضعت الرقاب لرب الأرباب ، وخاب كل كفار كذاب ، واشتد الهول وعظم العذاب ، فتفكروا فيما تسمعون يامعشر الأحباب ، وانظروا لأنفسكم ياجماعة الاخوان والأصحاب ، واستعدوا لأهوال القيامة ياأولى العقول والألباب . وأنشدوا : -

مثل لقلبك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
قد كورت شمس النهار وأضعفت ... حرا على رؤوس العباد تفور
وإذا الجبال تعلقت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت ... وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحا ... وعجائبا قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله ... كيف المقيم على الذنوب دهور ؟

جهنم فى المحشر

فإذا اشتد الفرق ، وسال العرق ، أمر الجبار جل جلاله أن يؤتى بجهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها ، وزحزحنا وإياكم عنها برحمته ، فيؤتى بها وأهوالها وأنكالها وسلاسلها وأغلالها ، وقد اشتد جحيمها وغلى حميمها ، وكثر زقومها ، وغضب زبانيتها ، وعظم سم حياتها وعقاربها ، واسودت جبالها ، وهاجت بحارها ، ونتن غسلينها وغلى سمومها ، وقد اجتمعت مما خلق الله فيها من عظيم بلاء ، فأبرزت للخلائق وهم ينظرون إليها من مسيرة خمسمائة عام .

وصف جهنم

قال الله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾[1] فيراها الخلائق كلهم وهى تغتاظ على العباد ، وكغضب الجبار جل جلاله وتتغيظ وتتسعر ، عليها سبعون ألف زمام من حديد ، قد تعلق بكل زمام

(١) سورة النازعات الآية رقم : ٣٦

سبعون ألف ملك من ملائكة النار يحبسونها عن الخلائق ، وهى تريد أن تنفلت من أيديهم ، وتأتى على أهل الموقف والملائكة الذين يحبسونها وجوههم مثل الجمر وأعينهم مثل البرق الخاطف : فإذا تكلم أحدهم تناثرت النار من فيه

بيد كل واحد منهم أرزبة من حديد من نار ، فيها اثنان وسبعون ألف رأس من نار ، كأمثال الجبال الراسيات العظام ورءوسها كرءوس الأفاعى ، وهى أخف فى يدى الملك من الريشة وأعينهم زرق ووجوههم كلحة ، قد خلقوا من نار السموم ، تريد جهنم أن تنفلت من أيدى الملائكة من غضب الجبار جلا جلاله .

هذا كله قاله الضحاك عن الأئمة عن ابن عباس ـ رضى الله ـ تعالى ـ عنهم .

بطش جهنم

فإذا جاءت جهنم بأمر الله تبارك وتعالى جاءت بالهول الأكبر والفزع الأعظم ، فيخرج من نفسها وهج شديد ، ويسمع من جوفها دوى سلاسل الحديد . فإذا قربت من الخلائق ، سمعوا لها شهيقا ، ورأوا لها حريقا ، فإذا نظرت فى أهل المعاصى ثارت وفارت وأرادت أن تثب عليهم فاغتاظت وتحمحمت إليهم ، وأرادت أن تأتى على جميع الخلائق ، وتريد أن تنفلت من أيدى الخزان فتهرب الخلائق ، فلا يجدون منفذا ولا مكانا يستغيثون إليه . ومناد ينادى (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)[1] أى بحجة ـ ثم ترجع جهنم بسلطانها على خزانها ، لشدة غضب الجبار على من عصى الله وخالف رسوله ، فإذا انفلتت من أيدى الزبانية ، أرادت أن تقبض على كل من فى الموقف ، فيعرض لها صلوات الله وسلامه عليه محمد الرسول ، وكل نبى يومئذ بنفسه مشغول .

رد الرسول جهنم عن الخلائق

فيأخذ محمد ﷺ بزمامها ويقبض على خطامها ، فيردها على خطامها ، فيردها على عقبها ، وهو ﷺ يقول لها : كفى عن أمتى ، فتخمد من نوره ﷺ وتناديه ايها النبى المكرم ، والرسول المشرف المعظم ، خل سبيلى من يديك ، فما جعل الله لى ولا ليغرى من سلطان عليك ، فيناديها الملك الجليل الجبار ، هذا محمد حبيبى سيد الأبرار ووزير الأخيار ، فالطاعة لمن له الوسيلة والشفاعة ، فعند ذلك تضع جهنم رأسها خاضعة كالحة كليلة تحت سكون وخمود بإذن الملك المعبود ، لمحمد ﷺ صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والكرم والجود ، وإقامة الحقائق والحدود ، ولو

---

(١) سورة الرحمن الآية رقم : ٣٣

تركها خاتم النبيين وسيد المرسلين لأهلكت الخلائق أجمعين غضبا لغضب رب العالمين أعاذنا الله وإياكم ـ برحمته ـ منها إنه أرحم الراحمين .

جهنم وزفيرها

وقيل إن جهنم ـ أعاذنا الله منها وزحزحنا وإياكم برحمته عنها ـ إذا نظرت إلى الكفار والمنافقين والفجار وأصحاب الخطايا والأوزار ، زفرت زفرة ، فترمى شررا على رءوس الخلائق مثل عدد نجوم السماء وزبد البحر ورمل البر ، فتقع على رءوس الكافرين والعاصين لرب الأولين والآخرين ، فلو كانت الدنيا باقية لانهارت جبالها وجفت أزهارها ، وييبست عيونها وأنهارها من شدة حر شرر جهنم ، ولو كان ثم موت لمات الخلق كلهم .

الزفرة الثانية

ثم تزفر أخرى أعظم من الأولى ، فلا تبقى دمعة فى عين إلا قطرت ، ويغلب بياض العين على سوادها ، وتبلغ القلوب الحناجر ولا يسأل أحد إلا نفسه البر والفاجر .

الزفرة الثالثة

ثم تزفر الثالثة وهى أعظم من الأولى والثانية ، فلا يبقى ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، ولا ولى ولا صديق ، إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم وجميع المرسلين إلا ما خلا من حبيب رب العالمين محمد ﷺ خاتم النبيين ، فإنه لا يُسأل عن هول النار قد خلصه الله من أهوالها .

الزفرة الرابعة

ثم تزفر الرابعة وهى أعظم من الأولى والثانية والثالثة ، فتلقى الزبانية على وجوههم أجمعين وتفر الخلائق كلهم هاربين ، ويتعلق جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ بساق العرش ، وكل ملك ينادى نفسى نفسى لا أسألك اليوم غيرها ، ويقول أيضا كل واحد منهم بحرمة محمد وبقدر محمد ﷺ نجنى من عذابك ، لما يرون من حرمته وجلالة قدره وعظيم منزلته عند ربه ، فإذا هرب الخلائق وجهنم تريد أن تأتى عليهم ، وقد غلى بعضها فى بعض ، ويقلب بعضها على بعض ، ولا يبقى غل ولا سربال ولا سلسلة ولا قيد ولا حية ولا عقرب إلا ألقت الكل على متنها .

بماذا تخمد النار ؟

فعند ذلك يقبل إليها محمد ﷺ ويلقى يده فى زمامها ، ويلوح إليها بحلة خضراء ، فتخمد من نور وجهه المبارك وهو ﷺ يضرع إلى العلى المجيد وهو يقول : ياسلام سلم أمتى من العذاب الشديد .
وأنشدوا : ـ

الدمع فى خد من عصى حسن — حسب الفتى من دموعه الحزن
يامن شكى حافظاه خلوته — لما خلا والعباد ما فطن
قد كان ربى عليك مطلعا — وأنت لاهى الفؤاد مفتتن
لم تهتك الستر إذ خلوت به — ولا انقضت من عطائه المنن
النار تسعى إلى العصاة غدا — لم يعلم المذنبون ما وسن

ياقوم العجب من القلوب التى بليت بالعباد ، وغفلت عن أهوال يوم المعاد ، وتمادت على معصية الرب الكريم الجواد .

يأخى كأن المراد بهذا كله غيرنا . ليبعثن الجبار ، الذليل والحقير ، ويسألهم عن الفتيل والنقير ، وعن الذرة والقطمير ، وعن القليل والكثير فى اليوم المهول العبوس العسير ، الذى يشيب من فظاعة هوله الطفل الصغير أرفق الله بنا وبكم فى ذلك اليوم إنه على ما يشاء قدير .

ثم يبعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى جهنم ، فيقول لها : الله تعالى يقول لك الطاعة . فتقول وعزة الله وعظيم جلاله لأنتقمن اليوم ممن لم يعمل بطاعة الله واستعان بنعمته على معصيته . ثم تقول : ياجبريل ، هل خلق الله خلقا يعذبنى به ؟

فيقول جبريل : لا ، ما خلقك الله تعالى إلا نقمة لمن عصاه . فتقول جهنم عند ذلك : الحمد لله الذى جعلنى نقمة لمن عصاه ولم يجعل من خلقه من ينتقم منى .

عند ذلك ـ والله ـ تعظم الخطوب ، وتظهر القبائح والعيوب ، ويندم أهل المعاصى والذنوب وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن — آمن بالبعث سرور

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من باع نفسه فى سوق الخسران ، ترك العز ورضى بالهوان ، وبذل مهجته لعذاب النيران ، وبارز بالخطايا الملك الديان .

من أسباب غفران الذنوب

حكى عن بعض العارفين ـ رحمه الله ـ أنه قال : حضرت سنة من السنين الوقوف بعرفات ، فإذا بضجة الناس ، فتذكرت يوم القيامة ، وذكرت رحمة الله ، فأردت أن أحلف أن الله قد غفر لكل من فى الجمع ، فذكرت أنى فيهم فأمسكت . وأنشدوا :

ياكثير الذنوب أقصر قليلا — قد بلغت المدى من الإسراف

فإذا اشتد بالخلائق الهلع ، وكثر منهم الخوف والجزع ، وبلغت القلوب الحناجر من خوف من يعلم الظواهر والسرائر ، نادى الملك الرحمن : « ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون »[1] فإذا سمع الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه . فيقول سبحانه ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا**

(١) سورة الزخرف الآية رقم : ٦٨

مسلمين ﴾ فعند ذلك ييأس من الرحمة جميع الكفار والمنافقين والفجار ، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار ، واتبع سنة محمد المختار ، عند ذلك تنشر الدواوين ، وتوضع الموازين وتتطاير الصحف فى الأفق ، فكل امرىء بما اكتسب معترف ، فندم الظالم وخسر الآثم وظهرت فى الصحف الفضائح وكثر الخجل واشتد الوجل ، وبدت الفضائح وشهدت على كل امرىء حفظته والجوارح . وأنشدوا : ـ

طال والله بالذنوب اشتغالى ... وتماديت فى قبيح فعالى
ليت شعرى إذا أتيت فريدا ... والموازين قد نصبت حيالى
والدواوين قد نشرت وجئنا ... والنبيون يشهدون سؤالى
ما اعتذارى وما أقولى لربى ... فى سؤالى وما يكون مقالى
أورثتنى الذنوب دار هموم ... لست أبقى لهاولا تبقى لى
ياعظيم الجلال ما لى عذر ... بل حقيق أنا بنار السفال
غير أن الرجاء فيك مكين ... فارحم العبد ياجميل الفعال
وتفضل على عبيد بشىء ... ليس يرجو سواك ياذا الجلال

هذا يوم الدين

١ ـ روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إذا جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين نادى مناد هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) .

فانظر لنفسك يامسكين ياضعيف الايمان واليقين يامن يقول إنه من المؤمنين المصدقين ، وهو يعمل أعمال المكذبين المخالفين ، التاركين لسنن سيد المرسلين وخاتم النبيين ، ما أجراك أن تكون عند الله من الكاذبين ، لو خفت من عذاب يوم الدين ، لعملت بالقرآن المبين ، ولو كنت من المؤمنين المصدقين ، لأطعت رب الأولين والآخرين ، فسل مولاك أن يفرج عنك ما قد نزل بك من داء الذنوب ، وهتك سترك من القبائح والعيوب ، وأنشدوا : ـ

ياطبيب الذنوب والآثام ... هل دواء أبرأ به من سقامى
إن داء الذنوب أضعف جسمى ... ومشيبى موكل بحمامى
وشفائى أعيا الأطباء إنى ... قد تغذيت مدتى بالحرام
وركبت الذنوب سرا وجهرا ... وتباعدت من محل الكرام
كيف بالطب أن يعالج سقمى ... وكلامى يزيد قرح كلامى

١ ـ لم أعثر على هذا اللفظ فيما بين يدى من مراجع .
والذى وقفت عليه ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابى عبد الله الجدلى قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبدالله بن عمر وكعب الاحبار يتحدثون فى بيت المقدس ، فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الناس فى صعيد واحد فينفذهم البصر ويسمعهم الداعى ويقول الله : هذا يوم لا ينطقون هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ، اليوم لا ينجو منى جبار ولا شيطان مريد ... الخ ، الحديث الطويل « راجع الدر المنثور ٦ / ٣٠٥ »

أيها الناس قد علمتم ذنوبي واغتراري وشقوقي واجترامي
وأنا أرغب الدعاء فجسدوا في فكاكي من الذنوب العظام
واشتياقي إلى الطواف شديد وإلى الركن والصفا والمقام
وإلى يثرب يحن فؤادي كي أزور النبي خير الأنام
فسلوا الله في الوصول فإني ذو اشتياق لحج بيت حرام
فلعل الاله يغفر جرمي وينجي من هول يوم القيامة
ويفك ذو الجلال عبدا ضعيفا مات خوفا من العذاب الغرام

الغرام : لعله يريد العذاب الغريم أى الملازم فاضطرته القافية لذلك ، وقد سبق أن نبهنا على أن هذة الأشعار ، هى ألفاظ عامية يلاحظ فيها المعنى لا التركيب البديعى .

موعظة كعب الأحبار

روى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال لكعب : ياكعب خوفنا فأطرق برأسه ، ثم رفع رأسه وعيناه تذرفان دموعا ، فقال : ياأمير المؤمنين والذى نفس كعب بيده ، إن جهنم لتزفر زفرة ، فتقطع السلاسل التى بأيدى الزبانية الذين يمسكونها بها ، حتى تفيض على أهل الجمع وتلقى الزبانية على وجوههم ، وينهزم مالك خازنها من بين يديها ، فلو كان لكل آدمى عمل مائة ألف نبى ، ومائة ألف صديق ، ومائة ألف شهيد ، لحقر عمله ولظن أنه لا ينجو منها ، فعند ذلك يعرض لها النبى ﷺ وقد أشرقت القيامة من نور وجهه ، فيأخذ بزمامها ويقول لها : كفى عن أمتى كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى ثلاثا . فتقول له : ياأيها النبى الكريم والرسول الرءوف الرحيم ، ما جعل الله لى عليك ولا على أمتك من سبيل ، فعند ذلك يتعلق العبد المذنب إذا رأى الأهوال العظام بالنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيقول يارسول الله : أنقذنى من عذاب الله ، فيقول له : ألم أبلغك رسالة ربى ، فلم عصيت ؟ فيقول له العبد المذنب : يارسول الله غلبت على شقوتى ، فيقول ﷺ لا شقوة على أحد من أمتى ولا على من قال فى الدنيا مخلصا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فيشفع له إلى الله تعالى فيشفع فيه . وأنشدوا : ـ

ألا أكرم بأحمد ذى الأيادى شفيع الناس فى يوم التنادى
إذا نشر الخلائق من قبور عراة يبتغون ندا المنادى
وقربت الجحيم لمن يراها فيالله من خوف العباد
وقد زفرت جهنم فاستكانوا سقوطا كالفراش وكالجراد
وقد بلغت حناجرهم قلوبا وقد شخصوا بأبصار حداد
فياجبار عفوا منك فالطف ويارحمن رفقا بالعباد
ونودوا للصراط ألا هموا فهذا ويحكم يوم المعاد
تسوقكم إليه سوق عنف مقامع من زبانية شداد

ألا يامعشر الاسلام هبوا من الإغفال فى غمر الرقاد

حديث فى الترهيب

روى عن النبى ﷺ أنه قال : (كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله وعين غضت عن محارم الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله)[1]

فقدموا عباد الله فى اليسير من الأيام ، ما يقيكم الأهوال العظام ، والخطوب الجسام ، والزلازل والطوام ، والعذاب الغرام ، فإن العمر يسير ، والأجل قصير ، والزاد قليل والهول جليل ، والعذاب طويل ، واليوم مهول ثقيل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من قطع أيامه فى العصيان ، واستبدل الجنة بالنيران والربح بالخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وعوض عن الزيادة النقصان .

ففكر فيها تسمع أيها الانسان ، وأنا وأنت وكلنا ذلك الانسان وأنشدوا : ـ

مقام المذنبين غدا ذليل وقدر الطائعين غدا جليل
إذا مد الصراط على جحيم يطول على العصاة ويستطيل
ونادى مالكا خذ من عصانى فإنى اليوم لست لهم أقيل

سجود جهنم

ذكر فى بعض الأخبار أن جهنم ـ أعاذنا الله منها وزحزحنا برحمته عنها ـ تستأذن يوم القيامة فى السجود ، فيؤذن لها ، فتسجد ما شاء الله من ذلك ، ثم يقال لها ارفعى رأسك ، فترفع رأسها وهى تقول : الحمد لله الذى خلقنى لينتقم بى ممن عصاه ، ولم يجعل شيئا من خلقه ينتقم به منى .

إلهى قد اشتد بلائى وأخمدت نارى ، وغلا حميمى وزقومى ، وكثر نتنى وغسلينى (هو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم وزيد فيه الياء والنون) وأكل بعضى بعضا . إلهى عجل على بأهلى ، فوعزتك لأنتقمن لك ، ممن عصاك ، واتبع هواه وجحد آياتك ، وكذب رسلك ، وجعل معك إلها غيرك ، لا إله إلا أنت .

فتنادى نداء يسمعه أهل الموقف جميعا ، ثم تغتاظ على أهل المعاصى فترمى بشرر (فسره ابن عباس بأعناق النخل) كعدد النجوم فى السماء وزبد البحر ورمل البرونبات الأرض على رءوس الخلائق ، فيقع على رءوس العصاة ، فمن كان له عمل صالح صار حجابا بينه وبين شرر جهنم ، ومن لم يكن له عمل صالح صار رأسه غرضا لشرر جهنم ، أعاذنا الله منها وزحزحنا عنها برحمته . يارب العالمين . آمين .

قوله تعالى ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ياليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ .

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى فضائل الجهاد / ١٢

روى أن عقبة بن أبى معيط كان يكثر مجالسة النبى ﷺ فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل من طعامه ، حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل . وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه ، وقال له : صبأت ، فقال : لا والله ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى ، فاستحييت منه ، فشهدت له ، فقال : لا أرضى منك إلا أن تأتيه ، فتطأقفاه ، وتبزق فى وجهه ، فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك ، فقال له النبى ﷺ لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله ، وقتل أبى بن خلف بيده الشريفة يوم أحد ، طعنه بحربة ، فوقعت فى ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم فى جوفه ، فجعل كما يخور الثور ، فأتى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور ، فما لبث إلا يوما أو نحوه ، حتى ذهب إلى النار ، فأنزل الله الآية .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) أخرجه أبو داود والترمذى[١] .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامكم إلا تقى)[٢] .

وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال : (مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة)[٣] .

والمراد بالعض على اليدين الندم والحسرة والألم واللوعة النفسية ، وهنا يتمنى النادم أن يكون قد اتخذ مع الرسول طريقا ، يوصل إلى الحق ، وعلى صراط مستقيم ، ثم يتمنى الهلاك لنفسه بقوله : (ياويلتى) يامصيبتى احضرى فقد آن أوانك ، ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا وصاحبا .

نعم خير الاصحاب من إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ، وشر الاصحاب من إذا ذكرت الله لا يعينك ، وإذا نسيت لا يذكرك ،

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

ثم بين له ذلك فقال : ـ (لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى) والمراد بالذكر هنا القرآن العظيم **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾**[٤] . (**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾**[٥] .

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى الأدب ١٦ ، والترمذى فى الزهد / ٤٥ ، وأحمد فى مسنده ٣٠٣/٢ ، ٣٣٤ .
(٢) الحديث رواه أبو داود فى الأدب / ١٦ ، والترمذى فى الزهد / ٥٦ .
(٣) الحديث رواه البخارى فى الذبائح ٣١ ، ومسلم فى البر ١٤٦ .
(٤) سورة الحجر آية رقم : ٩ .
(٥) سورة الزخرف آية رقم : ٣٦ ـ ٣٩

وليست هذه الآيات خاصة بظالم بعينه ، بل تشمل كل ظالم ، كما أنها تشمل (لعن) كل قرين سوء ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾(١) .

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفا ... فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففى الناس أبدال وفى الترك راحة ... وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ... ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة ... فلا خير فى ودٍ يجىء تكلفا
ولا خير فى خل يخون خليله ... ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده ... ويظهر سرا كان بالأمس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق وفى يصدق الوعد منصفا

قوله تعالى : ﴿ وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾ أى وكان من عادة الشيطان أن يخذل الانسان ، فيصرفه عن الحق ، ويدعوه إلى الباطل ، ثم لا ينقذه مما يحل به من البلاء ولا ينجيه منه .

قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾(٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ .

كتب الامام ابن القيم فى كتابه (الفوائد) يقول : هجر القرآن أنواع : أحدهما هجر سماعه والايمان به والاصغاء اليه .

والثانى : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به .

الثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه واعتقاد انه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

الرابع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

---

(١) سورة الاحزاب الآية رقم : ٦٤ ـ ٦٨
(٢) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٢
(٣) سورة فاطر الآية رقم : ٦
(٤) سورة الحشر الآية رقم : ١٦ ، ١٧

الخامس : هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع أمراض القلوب وأدوائها ، فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوى به ، وكل هذا داخل فى قوله : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ وان كان بعض الهجر أهون من بعض .

فاعجب معى لأمة تهجر كتابها المنزل من ربها على نبيها .

فالله نور السماوات والأرض والقرآن نور قال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾(١) .

ونبيها نور : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾(٢) أمة شأنها هكذا ، كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى الظلمات ؟ ! إلا فلتعلم هذه الأمة ، فضائل هذا الكتاب ومناقبه ، فتعود إليه ، رافعة لواء الاسلام مرددة نشيد الايمان .

فضائل القرآن ومناقبه

قال تعالى : ، ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ﴾(٣) .

١ - وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : (إن هذا القرآن مأدبة الله فى أرضه فتعلموا مأدبته ما استطعتم ، وان هذا القرآن هو حبل الله ، فهو نوره المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة من تبعه لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ولا ينقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقرءوه ، فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ، أما أنى لا أقول : ألم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة) .

٢ - وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) .

٣ - وعن أبى الدرداء يرفع إلى النبى ﷺ : « القرآن أفضل من كل شىء دون الله ، فمن وقر القرآن فقد وقر الله ، ومن لم يوقر القرآن ، فقد استخف بحرمة الله ، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده)

(١) سورة التغابن الآية رقم : ٨
(٢) سورة المائدة الآية رقم : ١٥
(٣) سورة الحجر الآية رقم : ٨٧

١ - الحديث رواه الدارمى فى فضائل القرآن عن ابن مسعود باب / ١
وأورده المنذرى الترغيب والترهيب ٢ / ١٥٤ وقال : رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن ابراهيم الهجرى عن ابى الاحوص عنه وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه وهو صحيح أ هـ وذكره المحدث عبدالله الصديق القمارى فى فضائل القرآن ١ / ٩ بلفظ مقارب وقال : رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن ومحمد بن نصر المروزى فى قيام الليل والحاكم وابن حبان وفى سنده إبراهيم بن مسلم الهجرى ، قال ابو حاتم : لين ليس بالقوى أ هـ
واورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧ / ١٦٤ بلفظ مقارب وقال : رواه الطبرانى وفيه مسلم بن ابراهيم الهجرى وهو متروك أ هـ

٢ - الحديث رواه الترمذى فى ثواب القرآن / ٢٥ ، والدارمى فى فضائل القرآن / ٦

٣ - حديث طويل فى جمع الجوامع ١ / ٤٣٦ جمع بينهما - وزاد كلا ما فى وسطه وعزاه لابى نصر السجزى فى الابانة عن عائشة رضى الله عنها وقال هذا من أحسن الحديث وأعذبه وليس فى اسناده الا مقبول ثقة - والحكيم عن محمد بن على مرسلا - والحاكم فى =

١ ـ وعن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : (من قرأ ثلث القرآن ، أوتي ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن ، أوتي نصف النبوة ، ومن قرأ ثلثي القرآن ، أوتي ثلثي النبوة ، ومن قرأ القرآن كله ، أوتي النبوة كلها ، ثم يقال له يوم القيامة : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينجز ما (معه من) القرآن ثم يقال : اقبض فيقبض ، فيقال : هل تدرى ما فى يديك فإذا فى اليمنى الخلد وفى الاخرى النعيم) .

٢ ـ وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن النبي ﷺ أنه قال : (حملة القرآن محفوفون برحمة الله ، الملبسون نور الله ، المعلمون كلام الله ، فمن عاداهم فقد عادى الله ، ومن والاهم . فقد والى الله يقول الله عز وجل : ياحملة كتاب الله تحببوا إلى الله بتوقير كتابه يزدكم حبا ، ويحببكم إلى خلقه) يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة ، والمستمع آية من كتاب الله ، خير من ثبير ذهبا ولتال آية من كتاب الله ، خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرض السفلى) .

٣ ـ وعن أبي بريدة قال : كنت عند النبي ﷺ فسمعته يقول : (القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفنى؟ فيقول ما اعرفك . فيقول انا صاحبك القرآن الذى اظمأتك فى الهواجر . واسهرت ليلتك وان كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة) .

قال : فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان : بم كسينا هذا ؟ فيقال لهما : بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له : اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها . فهو فى صعود مادام يقرأ هذا كان أو ترتيلا) .

عن معاذ قال : (كنت فى سفر مع رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله حدثنا بحديث ينتفع به ، فقال : (إن أردتم عيش السعداء أو موت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحرور ، والهدى

= تاريخه عن محمد بن الحنفية عن على بن أبي طالب موصولا .
والحديث اورده ابن الجوزى فى الموضوعات (من رواية ابن عساكر عن انس بلفظ مقارب وقال : وفيه على بن الحسن الشامى ووافقه السيوطى ثم ابن عراق الكنانى على ذلك (راجع تنزيه الشريعة (١ / ٢٩٤) .

فى تنزيه الشريعة ١ / ٢٩٢ : من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة ومن قرأ ثلثيه اعطى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن فكأنما اعطى النبوة كلها . . الحديث . اورده ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث ابى امامة وقال : لا يصح ،فيه بشير بن نمير (وتعقب) بان بشيرا من رجال ابن ماجه (قلت) قال الحافظ فى التقريب : متروك متهم والله أعلم ، والحديث اخرجه البيهقى فى الشعب ، وقد ورد مثله من حديث ابن عمر . . الخ ماقال (راجع تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ١ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣)

ـ الحديث رواه ابن ماجه فى الأدب / ٥٢ ، والدارمى (سنن الدارمى ٢ / ٣٢٤) فى فضائل القرآن / ١٥ ، وأحمد فى مسنده ٥ / ٣٤٨ ، ٣٥٢ .
ورواه ايضا البيهقى وابن ابى شيبة باسناد صحيح ، وقال الهيثمى بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح أ هـ وقال ابن كثير بعد عزوه له : وهذا إسناد حسن على شرط مسلم ـ وفى رواية : كالرجل الشاب (راجع تفسير ابن كثير ١ / ٣٣ ط الحلبى ، المطالب العالية ٣ / ٨٤ ، بصائر ذوى التمييز ١ / ٦٠ ـ ٦١ ، اللآلئ المصنوعة ١ / ١٢٦ ، الترغيب والترهيب ٢ / ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، المنهل العذب المورود ٨ / ١٢٤ (شرح) وفيه : الحاكم عن بريدة .
هذًا : الهذ : الاسراع بالقراءة ـ والترتيل : القراءة بتؤدة .

يوم الضلالة ، فادرسوا القرآن ، فإنه كلام الرحمن وحرس من الشيطان ورجحان فى الميزان)[١] .

وعن عقبة بن عامر قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى الصفة ، فقال :(أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق ، فيأتى بناقتين كوماوين زهراوين فى غير إثم ولا قطيعة رحم ؟)قلنا: كلنا يارسول الله يحب ذلك . قال :

(لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد ، فيتعلم آيتين من كتاب الله ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، ومن أعدادهن من الابل)[٢] .

وعن عائشة قالت :

(قال رسول الله ﷺ : الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ،والذى يتتعتع فيه له أجران)[٣]

وروى عن أبى ذر أنه جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله إنى أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به ، فقال ـ ﷺ ـ (لايعذب الله قلبا أسكنه القرآن)[٤] .

وعن أنس عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : (من علم آية من كتاب الله كان له أجرها ماتليت)[٥] .

وعن ابن مسعود أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من أراد علم الأولين والأخرين فليتدبر القرآن مؤثرا ؟ فإن فيه علم الأولين والآخرين ، ألم تسمعوا قوله : ﴿ مافرطنا فى الكتاب من شىء ﴾[٦] .

ـ وعن واثلة بن الاسقع أن النبى ـ ﷺ ـ قال : أعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المائدة مكان الانجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور وفضلت بالمفصل[٧] .

وعن عثمان بن عفان أنه قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٨] .

---

(١) الحديث رواه الديلمى عن غضيف بن الحارث
(راجع : بصائر ذوى التمييز ١/ ٦١ نقلا عن كنز العمال ١/ ١٣٦)

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٥١ ، وأبو داود فى كتاب الصلاة ـ أبواب الوتر ١٤ ، وأحمد فى مسنده ٤/ ١٥٤

(٣) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة عبس،ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٤ ، وأبو داود . فى كتاب الوتر/ ١٤
والترمذى فى أبواب ثواب القرآن/ ١٣ ، وابن ماجه فى أبواب الأدب/ ٥٢ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/ ١ وأحمد فى مسنده ٦/ ٤٨ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦ .

(٤) الحديث رواه الدارمى فى كتاب فضائل القرآن ١

(٥) الحديث ورد بلفظه فى بصائر ذوى التمييز ١/ ٦٢ ولكنه فى جمع الجوامع ١/ ٨٠٢ بلفظ : من علم آية فى كتاب الله كان له ثوابها ماتليت ـ وقال (رواه ابن لال عن أبان عن أنس)

(٦) الحديث ورد بلفظه فى كتاب بصائر ذوى التمييز ١/ ٦٢ ولكنه فى كنز العمال ١/ ٥٤٨ رقم ٢٥٤ ورد بلفظ : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن (رواه الديلمى عن أنس) أى فلينقر عنه وليفكر فى معانيه

(٧) الحديث رواه النسائى فى كتاب الافتتاح ٢٦ ، والدرامى فى كتاب فضائل القرآن/ ١٧

(٨) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل القرآن ٢١ ، وأبو داود فى كتاب الصلاة ـ أبواب الوتر (عون المعبود ٤/ ٣٢٥ باب فى ثواب قراءة القرآن) والترمذى فى أبواب ثواب القرآن/ ١٥ ، وابن ماجه فى المقدمة ١٦ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/ ٢

وعن أبي موسى الأشعرى عن النبى - ﷺ - قال : مثل الذى يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة : طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل الذى لايقرأ القرآن ويعمل به مثل الثمرة : طعمها طيب ، ولاريح لها ، ومثل الذى يقرأ القرآن ولايعمل به كمثل الريحانة ، لها رائحة وطعمها مر ، ومثل الذى لايقرأ القرآن ولايعمل به مثل الحنظلة لاطعم لها ، ولارائحة) (البخارى ومسلم)[١] .

(والاترجه ضرب من الفواكه) .

وسئل النبى - ﷺ - من أحسن الناس صوتا ؟ قال من إذا سمعته يقرأ خشية تخشى الله[٢] وكان - ﷺ - يقول لأصحابه : (اقرأوا القرآن بحزن ، فإنه نزل بحزن)[٣] .

(كنز العمال)

- وقال ﷺ - (إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد .

قيل : فما جلاؤها يارسول الله ؟ قال : ذكر الموت وتلاوة القرآن : ألم تسمعوا قوله تعالى : ﴿وشفاء لما فى الصدور﴾[٤] .

- وقال - ﷺ - : (القرآن هو الدواء)[٥] (كنز العمال)

وقال - ﷺ - : (القرآن غنى لافقر بعده ولا غنى دونه)[٦] .

ورد فى الإتقان وذكر أنه أخرجه أبو يعلى والطبرانى من حديث أبى هريرة

وقال - ﷺ - : القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق) وماحل بكسر الحاء المهملة أى ساع وقيل :

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأطعمة/٣٠ ، وفى كتاب فضائل القرآن/١٧ ، ٣٦ ، وفى كتاب التوحيد/٥٧ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٣ ، وأبو داود فى كتاب الأدب/١٦ ، والترمذى فى أبواب الأدب/٧٩ ، والنسائى فى كتاب الإيمان/٣٢ ، وابن ماجه فى المقدمة/١٦ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/٨ ، وأحمد فى المسند ٤/٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨

(٢) الحديث رواه الدارمى فى سننه ٢/ ٣٣٨ رقم ٣٤٩١ عن طاوس بلفظ : من إذا سمعته يقرأ أريت أنه يخشى الله وفى كنز العمال ١/٦٠٨ رقم ٢٧٨٨ بلفظ : إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله (ابن ماجه عن جابر)

وفى كنز العمال ١/٦٠٢ - ٦٠٣ رقم ٢٧٥٠ بلفظ :(أحسن الناس قراءة الذى إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله)رواه محمد ابن نصر فى كتاب الصلاة والبيهقى فى الشعب والخطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وأورده الهيثمى فى المجمع ١٧٠/٧ وعزاه للطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وثقه ابن حبان وقال ربما أخطأ وبقية رجال البزار رجال الصحيح وقال : وفيه حميد بن حماد بن خوار

(٣) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى أبواب الإمامة رقم/١٧٦ ورواه ابن عساكر وأبو نعيم فى الحلية والطبرانى فى الأوسط عن بريدة بلفظ : اقرأوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن(كنز العمال ١/ ٦٠٦ رقم ٢٧٧٧

(٤) الحديث فى كنز العمال ١٥/٥٤٩ - ٥٥٠ رقم ٤٢١٣٠ بلفظ : إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء ، قيل : وماجلاؤها ؟ قال : كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن : (رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر)

(٥) رواه السجزى فى الإبانة والقضاعى عن على رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٧ رقم ٢٣١٠)

(٦) رواه ابن عساكر ومحمد بن نصر عن أنس رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٦ - ٥١٧ رقم ٢٣٠٧) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/١٥٨ وقال : رواه أبو يعلى عن أنس وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف أ هـ

خصم مجادل) رواه ابن حبان فى صحيحه[١] .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾

أى كما حصل لك يامحمد فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ، لأن الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون ﴾[٢] .

ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ أى لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة ، وإنما قال : ﴿ هاديا ونصيرا ﴾ لان المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ، فلهذا قال : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ﴾ الآية . .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لايعنيهم ، حيث قالوا ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب ، الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك ، بأنه إنما أنزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الوقائع والحوادث ومايحتاج إليه من الأحكام ، ليثبت قلوب المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾[٣] ولهذا قال سبحانه : ﴿ لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ قال قتادة : بيناه تبيينا .

وقال ابن زيد وفسرناه تفسيرا .

وقوله تعالى : ﴿ ولايأتونك بمثل ﴾ أى بحجة وشبهة ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى: ولايقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق فى نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ولايأتونك بمثل ﴾ أى بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ـ ﷺ ـ حيث كان يأتيه الوحى من الله ـ عز وجل ـ بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا سفرا وحاضرا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ

---

(١) رواه ابن حبان والبيهقى فى الشعب عن جابر رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٦ رقم ٢٣٠٦)

(٢) سورة الأنعام آية رقم : ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم : ١٠٦

فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد - ﷺ - أعظم نبى أرسله الله تعالى ، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معا ، ففى الملأ الأعلى ، أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

روى النسائى باسناده عن ابن عباس قال : (وأنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة)(١)

قال الله تعالى : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾

وقال تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾

ثم قال تعالى : مخبرا عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم فى أسوأ الحالات وأقبح الصفات ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾

وفى الصحيح عن أنس أن رجلا قال يارسول الله : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال - ﷺ - : (إن الذى أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)

وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين .

قوله تعالى :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا . فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ؛ وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ، ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا ﴾

يقول تعالى متوعدا من كذب رسوله محمدا - ﷺ - من مشركى قومه ومن خالفه ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا ، أى نبيا مؤازرا ومؤيدا وناصرا فكذبهما فرعون وجنوده فدمرناهم تدميرا ، قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾(٢) وقال سبحانه ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا . قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾(٣)

وقال تبارك اسمه : ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ، ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾(٤) .

(١) الحديث رواه النسائى فى كتاب (فضائل القرآن) ص ٥٩ رقم ١٥ / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ طبعة دار الثقافة بالمغرب عن ابن عباس قال : نزل القرآن جملة فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، فكان إذا أراد الله أن يحدث منه شيئا أحدثه .

(٢) سورة مريم آية رقم : ٥١ - ٥٣

٣ - سورة الاسراء : ١٠١ - ١٠٢

(٤) سورة المؤمنون الآيات رقم : ٤٥ - ٤٩

ثم يأتى الحديث عن قوم نوح فيقول تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴾

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾[١] فاعجب معى لقوم يظل فيهم نبيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى التوحيد ليلا ونهارا ، ويبذل فى سبيل ذلك كل أسلوب من أساليب الدعوة ﴿ ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[٢] ثم بعد ذلك تكون النتيجة ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾[٣]

فيالله للبشرية إذا ماوقفت تلك المواقف ، التى تحار فيها الألباب ، وتنشق فيها قلوب الأسود ، وتتفت لها مرائر النمور .

قوله تعالى : ﴿ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ، وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم [٥]اعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٤] وقال تبارك اسمه :

﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾[٦] .

أما أصحاب الرس ، فهم الذين قتلوا نبيهم ، وكانوا يقطنون اليمامة

وقال ابن جرير : هم أصحاب الأخدود ، الذين ورد ذكرهم فى سورة البروج فى قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾

قوله تعالى : ﴿ وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ أى:أمما كثيرة أهلكناهم لما كذبوا رسلنا . قال تعالى : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾[٦]

(١) سورة العنكبوت الآيات رقم : ١٤ ـ ١٥
(٢) سورة نوح الآيات رقم : ٨ ـ ١٢
(٣) سورة هود ، آية رقم : ٤٠
(٤) سورة فصلت الآيات رقم : ١٥ ـ ١٨
(٥) سورة العنكبوت ، آية رقم : ٣٨
(٦) سورة الأنعام آية رقم : ٦

وقال سبحانه : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لايؤمنون ﴾(١) وقال عز من قائل : ﴿ ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وماكانوا يفترون ﴾(٢)

قوله تعالى : ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ﴾ أى وكل هؤلاء أوضحنا لهم حججنا ، وبينا لهم أدلتنا ، وأزحنا عنهم الأعذار فتمادوا فى كفرهم وطغيانهم ، فأهلكناهم أفظع الإهلاك وأشده ونحو ذلك قوله تعالى فى شأن الظالمين : ﴿ ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ماكسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا ﴾ .

أى : وتالله لقد مر هؤلاء المكذبون فى رحلة الصيف على سدوم ، أعظم قرى قوم لوط ، وقد أهلكها الله بأن أمطر عليها حجارة من سجيل ، لأن قومها كانوا يعملون الخبائث ، وحذرهم لوط ، فما أغنت عنهم الآيات والنذر .

ثم وبخهم على تركهم التذكر حين مشاهدة مايوجبه فقال :

﴿ أفلم يكونوا يرونها ؟ ﴾ أى : أفلم يروا مانزل بتلك القرية من عذاب الله بتكذيب أهلها رسول ربهم ، فيعتبروا ويتذكروا ويراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم لرسوله . ثم أبان أن عدم التذكر لم يكن سببه عدم الرؤية ، بل منشؤه إنكار البعث والنشور فقال :

﴿ بل كانوا لايرجون نشورا ﴾ أى : إنهم ماكذبوا محمدا ﷺ فيما جاءهم به من عند الله ، لأنهم لم يكونوا رأوا ماحل بالقرية التى وصفت ، بل كذبوه من قبل ، إنهم قوم لايخافون نشورا بعد الممات ، ولايوقنون بعقاب ولاثواب فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصى الله .

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم : ٤٤

(٢) سورة الأحقاف الآيتان : ٢٧ ـ ٢٨

(٣) سورة ابراهيم الآيات رقم : ٤٢ ـ ٥٢

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[٢] .

وقوله تعالى ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن فى ذلك لآية للمؤمنين[٣] .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ .

- أى:وإذا رآك هؤلاء المشركون اتخذوك موضع هزؤ وسخرية ، وقالوا احتقارا لشأنك هذه المقالة .

ثم ذكر مازاد فى قبحه فى زعمهم فقال : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ أى ويقولون إنه قد كاد يصدنا عن عبادة آلهتنا لولا صبرنا على عبادتها وثباتنا على ديننا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد ، ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ﴾[٤] . ونحوه قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ أى:إنهم حين يشاهدون العذاب ، الذى استوجبوه بكفرهم سيعلمون من الضال ومن المضل ؟ وفى هذا رد لقولهم : إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ، كما أن فيه وعيدا شديدا على التعامى والإعراض عن الاستدلال والنظر ، فاعجب معى لأهل الباطل ، يصبرون على آلهتهم وضلالتهم وباطلهم ، وأهل الحق يستعجلون ، نعم يامولانا يامن قلت وقولك الحق :

﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[٦] وقلت : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ .

---

(١) سورة هود آية رقم : ٨٢ ، ٨٣
(٢) سورة الصافات آية رقم : ١٣٣ - ١٣٨
(٣) سورة الحجر آية رقم : ٧٣ - ٧٧
(٤) سورة ص آية رقم : ٦ - ٨
(٥) سورة الأنبياء آية رقم : ٣٦ - ٣٧
(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٨٦
(٧) سورة النحل آية رقم : ١٢٦ - ١٢٨

أى انظر فى حال هذا الذى جعل هواه إلهه ، بإن أطاعه وبنى عليه أمر دينه ، وأعرض عن استماع الحجة الباهرة ، والبرهان الجلى الواضح ، وأعجب ولاتأبه به ، فإنك لن تكون حفيظا على مثل هذا ، تزجره عما هو عليه من الضلال ، وترشده إلى الصراط السوى ، وخلاصة ذلك ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إن هذا الذى لايرى معبودا له إلا هواه ، لاتستطيع أن تدعوه إلى الهدى ، وتمنعه من متابعة الهوى ، إن عليك إلا البلاغ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾(١) وقوله تبارك اسمه : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾(٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ **ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾(٣) .

الهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواه ، وتمنى على الله الأمانى ، ومن عرف الهوى فقد هوى ، وقد صح فى الحديث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

قال الحافظ ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه ذم الهوى وتحت عنوان (فى ذم الهوى والشهوات)

اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى مايلائمه ، وهذا الميل قد خلق فى الإنسان لضرورة بقائه ، فإنه لولا ميله إلى المطعم ماأكل ، وإلى المشرب ماشرب ، وإلى المنكح مانكح ، وكذلك كل مايشتهيه ، فالهوى مستجلب له مايفيد ، كما أن الغضب دافع عنه مايؤذى ، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق ، وإنما يذم المفرط من ذلك ، وهو مايزيد على جلب المصالح ودفع المضار . ولما كان الغالب من مواقف الهوى أنه لايقف منه على حد المنتفع ، أطلق ذم الهوى والشهوات ، لعموم غلبة الضرر ، لأنه يبعد أن يفهم المقصود من وضع الهوى فى النفس ، وإذا فهم تعذر وجود العمل به وندر مثاله : ان شهوة المطعم إنما خلقت لاجتلاب الغذاء ، فيندر من يتناول بمقتضى مصلحته ولايتعدى ، فإن وجد ذلك انغمر ذكر الهوى فى حق هذا الشخص ، وصار مستعجلا للمصالح ، وأما الأغلب من الناس فإنهم يوافقون الهوى . فإن حصلت مصلحة حصلت ضمنا وتبعا ، فلما كان هذا هو الغالب ذكرت فى هذا الباب ذم الهوى والشهوات مطلقا ، ووسمت كتابى بـ « ذم الهوى » لذلك المعنى .

(١) سورة الجاثية آية رقم : ٢٣

(٢) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٥ - ١٧٧

(٣) سورة ص آية رقم : ٢٦

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ماذكر الله عز وجل الهوى فى موضع من كتابه إلا ذمه . وقال الشعبى: إنما سمى هوى ، لأنه يهوى بصاحبه .

فصل :

اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر فى عاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلا ، وإن كانت سببا للألم والأذى ومنع لذات فى الآجل .

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألما ، وشهوة تورث ندما ، وكفى بهذا القدر مدحا للعقل وذما للهوى .

ألا ترى أن الطفل يؤثر مايهوى ، وإن أداه إلى التلف ! فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك ، وقد يقع التساوى بينهما فى الميل والهوى ، وبهذا القدر فضل الآدمى على البهائم - أعنى ملكة الارادة - لأن البهائم واقفة مع طباعها ، لانظر لها إلى عاقبة ، ولا فكر فى مآل ، فهى تتناول مايدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر ، وتفعل ماتحتاج إليه من الروث والبول أى وقت اتفق ، والآدمى يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه .

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبا ، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل ، فإنه سيشير عليه بالنظر فى المصالح الآجلة ، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط فى كف الهوى ، إلى أن يتيقن السلامة من الشر فى العاقبة .

وينبغى للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ماتؤذى غايته . وليعلم العاقل أن مدمنى الشهوات يصيرون إلى حالة لايلتذونها ، وهم مع ذلك لايستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطرارى ، ولهذا ترى مدمنى الخمر والجماع لايلتذ بذلك عشر التذاذ من لم يدمن ، غير أن العادة تقضيه ذلك فيلقى فى المهالك لنيل مايقتضيه تعوده . ولوزال رين الهوى عن بصر بصيرته ، لرأى أنه قد شقى من حيث قدر السعادة ، واغتم من حيث ظن الفرح ، وألم من حيث أراد اللذة . فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ ، لاهو نال ماخدع به ، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه .

فإن قال قائل : فكيف يتخلص من هذا وقد نشب فيه ؟ قيل له :

بالعزم القوى فى هجران مايؤذى ، والتدرج فى ترك مالا يؤمن أذاه ، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة يهونهما سبعة أشياء .

أحدها : التفكر فى أن الأنسان لم يخلق للهوى ، وإنما هيىء للنظر فى العواقب والعمل للآجل ، ويدل على هذا أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح مالاينا له الإنسان ، مع عيش هنى خال عن فكر وهم . ولهذا تساق إلى منحرها ، وهى منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب .

والآدمى لاينال ماتناله لقوة الفكر الشاغل ، والهم الواغل ، وضعف الآلة المستعملة ، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما نجس حظ الآدمى الشريف منه ، وزيد حظ البهائم ، وفى توفير حظ الآدمى من العقل ونجس حظه من الهوى ، مايكفى فى فضل هذا وذم ذلك .

والثانى : أن يفكر فى عواقب الهوى . فكم قد أفات من فضيلة ، وكم قد أوقع فى رذيلة ، وكم من مطعم قد أوقع فى مرض ، وكم من زلة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكر مع إثم .

غير أن صاحب الهوى لايرى إلا الهوى ! فأقرب الأشياء شبها به من فى المدبغة ، فإنه لايجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان .

والثالث : أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه ، ثم يتصور الأذى الحاصل عقيب اللذة ، فإنه يراه يربى على الهوى أضعافا . وقد أنشد بعض الحكماء .

وأفضل الناس من لم يرتكب سببا حتى يميـز ماتجنى عـواقبه

والرابع : أن يتصور ذلك فى حق غيره ، ثم يتلمح عاقبته بفكرة . فإنه سيرى مايعلم به عيبه إذا وقف فى ذلك المقام .

والخامس : أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات ، فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشيء وإنما عين الهوى عمياء .

وفى الحديث عن ابن سعود رضى الله عنه (إذا أعجبت أحدكم أمرأة فليذكر مناتنها)

والسادس : أن يتدبر عز الغلبة وذل القهر ، فإنه مامن أحد غلبه هواه إلا أحس بقوة عز ، ومامن أحد غلب هواه إلا وجد فى نفسه ذل القهر .

والسابع : أن يتفكر فى فائدة المخالفة للهوى ، من اكتساب الذكر الجميل فى الدنيا وسلامة النفس والعرض ، والأجر فى الآخرة . ثم يعكس ، فيتفكر لو وافق الهوى ، فى حصول عكس ذلك على الأبد ، وليفرض لهاتين الحالتين حالتى آدم ويوسف عليهما السلام . فى لقمة هذا وصبر هذا .

وياأيها الأخ النصوح أحضر لى قلبك عند هذه الكلمات ، وقل لى . بالله عليك ، أين لذة آدم التى قضاها ، من همة يوسف التى ماأمضاها ؟

من كان يكون يوسف لو نال تلك اللذة : فلما تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعة صار من قد عرفت .

فصل :

وأعلم أن الهوى يسرى بصاحبه فى فنون ، ويخرجه من دار العقل إلى دار الجنون .

وقد يكون الهوى فى العلم فيخرج بصاحبه ضد ماأمر به العلم .

وقد يكون فى الزهد فيخرج إلى الرياء .

وكتابنا هذا لذم الهوى فى شهوات الحس ، وإن كان يشتمل على ذم الهوى مطلقا .

وإذ قد ذكرنا فى هذا الفصل من ذم الهوى ماأملاه العقل فلنذكر من ذلك مايحويه النقل .

فصل :

قد مدح الله عز وجل مخالفة الهوى فقال سبحانه ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾[1] قال المفسرون :

(١) سورة النازعات آية رقم : ٤٠

هو نهى النفس عما حرم الله عليها .

قال مقاتل : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها .

وقال عز وجل : ﴿ واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾[١] وقال : ﴿ واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾[٢] وقال : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾[٣] وقال : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله ﴾[٤] وقال : ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾[٥] وقال : ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾[٦] وقال : ﴿ ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾[٧] وقال : ﴿ أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾[٨] وقال : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾[٩] وقال : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾[١٠] وقال : ﴿ ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[١١] .

قال الحسن فى هذه الآية : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : هو المنافق لايهوى شيئا إلا ركبه .

وقال الغريابى بسنده عن الحسن ، قال : المنافق يعبد هواه ، لايهوى شيئا إلا ركبه . وقال أيضا بسنده عن قتادة ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : إذا هوى شيئا ركبه .

وعن أنس ، أن النبى ﷺ قال (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) أخرجه مسلم[١٢] .

وفى لفظ البخارى (حجبت) مكان (حفت)[١٣]

وعن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله عز وجل الجنة والنار ، أرسل جبريل ، يعنى إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ماأعددت لأهلها فيها ، فجاء فنظر إليها وإلى ماأعد الله عز وجل لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر بها فحجبت بالمكاره ، وقال ارجع إليها وانظر إليها ، فرجع فإذا هى قد حجبت بالمكاره فقال : لقد خشيت الا يدخلها أحد

(١) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٦
(٢) سورة الكهف آية رقم : ٢٨
(٣) الفرقان آية رقم : ٤٣
(٤) سورة الروم آية رقم : ٢٩
(٥) سورة محمد آية رقم : ١٦
(٦) سورة القصص آية رقم : ٥٠
(٧) سورة الأنعام آية رقم : ١١٩
(٨) سورة الكهف آية رقم : ٢٨
(٩) سورة البقرة آية رقم : ١٢٠ ، ١٤٥
(١٠) سورة النساء آية رقم : ١٣٥
(١١) سورة ص آية رقم : ٢٦
(١٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة حديث رقم ١ ، وأبو داود فى كتاب السنة رقم ٢٢ والنسائى فى كتاب الأيمان رقم ٣ والدارمى فى كتاب الرقاق رقم ١١٧ ، وأحمد ٢/ ٢٦٠ . .
(١٣) البخارى فى كتاب الرقاق رقم ٢٨ ، وأحمد ٢/ ٣٣٣ ، ٣٧٣

قال : فانظر إلى النار وإلى ماأعددت لأهلها فيها ، فجاءها فنظر إليها وإلى ماأعد لأهلها فيها ، فإذا هى يركب بعضها بعضا ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لايسمع بها أحد فيدخلها . فأمر بها فحفت بالشهوات ، وقال له ارجع اليها فانظر اليها فإذا هى قد حفت بالشهوات ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها)

(قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح)[1] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى ﷺ أنه قال : (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) (أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى أربعينه ، وهو حسن صحيح)[2] .

ورد عن أبى برده الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(أخوف ماأخاف عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن) (أخرجه أحمد والبزار والطبرانى بلفظ إنما أخشى . .)[3] .

وعن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى ، عن ابيه عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ (إن أخوف ماأخاف على أمتى حكم جائر وزلة عالم وهوى متبع) (أخرجه البزار والطبرانى بلفظ إنى أخاف)

ـ وعن أبى أمامة الباهلى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(ماتحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع) (أخرجه الطبرانى فى الكبير)[4] .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

(ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه) (أخرجه البزار والبيهقى واسناده ضعيف)[5]

وعن بلال بن أبى الدرداء ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : (حبك الشىء يعمى ويصم) أخرجه أبو داود وأحمد وهو حسن [6] .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات ، فتقوى الله فى السر والعلانية ، والقول بالحق فى الرضا والسخط ، والقصد فى الفقر والغنى . وأما المهلكات : فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه وهى شرهن) (أخرجه البزار والبيهقى)

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الجنة رقم ٢١

(٢) الحديث رواه الحكيم الترمذى وأبو نصرالسجزى فى الإبانة،وقال:حسن غريب،والخطيب عن ابن عمرو . (راجع جمع الجوامع ١/ ٩١٨)

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٤/ ٤٢٠ ، ٤٢٣

(٤) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة (بجمع الجوامع ١/ ٦٩٩)

(٥) الحديث رواه البزار وأبو نعيم والبيهقى والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ فى التوبيخ كلهم عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال الحافظ العراقى : سنده ضعيف

(فيض القدير ٣/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧ رقم ٣٤٧١ والحديث أوله : ثلاث منجيات . .)

(٦) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٥/ ١٩٤ ، ٦/ ٤٥٠ ، وأبو داود فى كتاب الأدب (عون المعبود ١٤/ ٣٩ باب فى الهوى)

وروى عن الخليل بن خدويه ، قال : مر إبراهيم الخليل عليه السلام فرأى عبدا فى الهواء متعبدا ، فقال له ، بم نلت هذه المنزلة من الله ؟ قال : بأمر يسير ، فطمت نفسى عن الدنيا ، ولم أتكلم فيما لايعنينى ، ونظرت فيما أمرت به فعملت به ، ونظرت فيما نهانى عنه فانتهيت عنه ، فأنا إن سألته أعطانى ، وإن دعوته أجابنى وإن أقسمت عليه أبر قسمى ، سألته أن يسكننى الهواء فأسكننى .

وروى عن وهب بن منبه يقول : كان فى بنى اسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان فى البحر ، إذا هما برجل يمشى فى الهواء ، فقالا له : ياعبد الله بأى شىء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : بيسير من الدنيا ، فطمت نفسى عن الشهوات ، وكففت لسانى عما لايعنينى ، ورغبت فيما دعانى إليه ، ولزمت الصمت ، فإن أقسمت على الله أبر قسمى ، وإن سألته أعطانى .

وروى عن منصور بن عمار ، قال : قال سليمان بن داود : الغالب لهواه أشد من الذى يفتح المدينة وحده .

وروى عن حذيفة بن قتادة المرعشى ، قال : كنت فى المركب فكسر بنا ، فوقعت أنا وامرأة على لوح من ألواح المركب ، فمكثنا سبعة أيام ، فقالت المرأة : أنا عطشى ، فسألت الله تعالى أن يسقيها ، فنزلت علينا من السماء سلسلة فيها كوز معلق فيه ماء ، فشربت . فرفعت رأسى أنظر السلسلة ، فرأيت رجلا جالسا فى الهواء متربعا ، فقلت : من أنت ؟ قال : من الإنس قلت : فما الذى بلغك هذه المنزلة ؟ قال آثرت مراد الله على هواى فأجلسنى كما ترانى .

وروى عن عبد الله بن الصلت ، قال : قال معاوية: المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى .

وعن أبى الدرداء ؛ قال : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله ، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح .

وروى عن مالك بن دينار أنه قال : من غلب شهوات الدنيا فذلك الذى يفرق الشيطان من ظله .

وقال أيضا : بئس العبد عبد همه هواه وبطنه .

وروى عن صفوان بن سليم قال : ليأتين على الناس زمان تكون همة أحدهم فيه بطنه ، ودينه هواه .

وروى عن الأصمعى ، قال سمعت أعرابيا يقول : إذا أشكل عليك أمران لاتدرى أيهما أرشد ، فخالف أقربهما من هواك فإن أكثر مايكون الخطأ مع متابعة الهوى .

وروى عن ابن السحال : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك . داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك .

وروى أنه قال رجل لأبى الحسن المدائنى :ياأبا سعد أى الجهاد أفضل ؟ قال جهادك هواك .

وعن الأصمعى قال : مررت بأعرابى به رمد شديد ودموعه تسيل ، فقلت : ألا تمسح عينيك ؟ فقال : زجرنى الطبيب ، ولاخير فيمن إذا زجر لاينزجر ، وإذا أمر لاياأتمر ، فقلت أما تشتهى شيئا ؟

فقال : أشتهى ولكن أحتمى ، لأن أهل النار غلبت شهواتهم فلم يحتموا فهلكوا .

وروى عن وهب بن نعيم يقول : قال بشر : اعلم أن البلاء كله فى هواك ، والشفاء كله فى مخالفتك لهواك .

وروى عن الفضل بن عياض يقول : من استحوذت عليه الشهوات انقطعت عنه مواد التوفيق .

وروى عن سنيد : سمعت حجاجا يقول : الكفر فى أربعة أشياء : فى الغضب والشهوة والرغبة والرهبة ، ثم قال حجاج رأيت منه اثنتين ، رجلا غضب فقتل أمه ، ورأيت رجلا عشق فتنصر .

وروى عن حسين بن حسن الأسدى ، عن أبيه ، قال : كان عبد الله بن حسن بن حسن يطوف بالبيت ، فنظر إلى امرأة جميلة ، فمشى إلى جانبها ثم قال :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى فكيف لى بهوى اللذات والدين

فقالت له : دع أحدهما تنل الآخر .

وقد رويت لنا هذه الحكاية على غير هذا الوجه . فبلغنا عن عمر بن شبة بسنده عن أبى غسان أحمد ابن عثمان ، عن أبيه ، قال لقى عبد الله بن حسن امرأة جميلة فى الطواف ، فلما نظرت إليه ، وإلى جماله مالت نحوه وطمعت فيه ، فأقبل عليها وقال :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى فكيف لى بهوى اللذات والدين
نفس تزين لى الدنيا وزينتها وزاجرى من حذار الموت يثنينى

فتركته ومضت .

وروى عن إسحاق الموصلى قال : قال لى المعتصم ؛ ياإسحاق إذا نصر الهوى ذهب الرأى . .

وروى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال فى قول الله عز وجل : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾[1] قال (صبروا) عن الشهوات .

وروى عن محمد بن محمد بن أبى الورد أنه قال : إن لله عز وجل يوما لاينجو من شره منقاد لهواه . وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوة . وإن العقول لما جرت فى ميادين الطلب كان أوفر حظا من يطالبها بقدر مااستصحبته من الصبر . وإن العقل معدن والفكر معول .

وروى عن يحيى بن معاذ يقول : حفت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها ، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها ، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء ، إن صبر نفسه على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافية ، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علة الفتى .

وقال أيضا : عندما قيل له من أصح الناس عزما ، قال : الغالب لهواه .

وروى عن الوليد بن هشام القحذمى ، قال دخل خلف بن خليفه على سليمان حبيب بن المهلب

---

(١) سورة الإنسان آية رقم : ١٢

بالأهواز ، وعند سليمان جارية له يقال لها البدر ، من أحسن الجوارى وجها وأكمله ، فقال سليمان لخلف : كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال أصلح الله الأمير مارأت عيناى جارية قط أحسن منها . فقال خذ بيدها .

فقال خلف : ماكنت لأفعل ، ولا أسلبها الأمير وقد عرفت عجبه بها .

فقال : خذها ويحك على عجبى بها ، ليعلم هواى إلى غالب فأخذها بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حبانى وأعطانى وفضلنى ... عن غير مسألة منى سليمان
أعطانى البدر خودا فى مجاسدها ... والبدر لم يعطه إنس ولا جان
ولست حقا بناسى عرفه أبدا ... حتى يغيبنى لحد وأكفان

وروى عن يحيى بن يحيى يقول : قال بعض العباد : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا ، واستصعب قياده على الهوى .

وروى عن الحسن بن محمد الجريرى يقول : أسرع المطايا إلى الجنة الزهد فى الدنيا ، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات فمن استوى على متن شهوة من الشهوات أسرع به القود إلى مايكره .

وروى عن ابن عطاء : من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح .

وروى عن يحيى بن معاذ يقول : من أرضى الجوارح فى اللذات فقد غرس لنفسه شجر الندامات .

وروى عن الحسن بن على المطوعى : حتم كل إنسان هواه ، فإذا كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة .

وروى عن أبى عمرو الشيبانى قال : لقى عالم من العلماء راهبا من الرهبان ، فقال له كيف ترى الدهر؟ فقال يخلق الأبدان ، ويجدد الأمال ، ويبعد الأمنية ، ويقرب المنية . قال له : فأى الأصحاب أبر؟ قال العمل الصالح . قال : فأى شىء أضر؟ قال النفس والهوى .

وروى عن ابن أبى الحوارى قال : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له أنت عليل ؟ قال : نعم قلت منذ كم ؟ قال منذ عرفت نفسى قلت فتداو قال : قد أعيانى الدواء وقد عزمت على الكى . قلت : وما الكى ؟ قال : مخالفة الهوى .

وروى عن الأصمعى والعتبى ، قالا سمعنا أعرابيا يقول : ماأشد تحويل الرأى عند الهوى ، هو الهوان وإنما غلط باسمه فاشتق من جنسه ، وإنما يعرف ماأقول من أبكته المنازل والطلول .

وروى عن بشر بن الحارث يقول : (لاتجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد)

وروى عن أبى سليمان الدرانى : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس .

وروى عن السرى يقول : (لن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته ، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه)

وروى عن أحمد بن خضرويه : لانوم أثقل من الغفلة ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة لم تظفر بك الشهوة .

وروى عن يوسف بن الحسين : عين الهوى عوراء .

وروى عن أبى بكر الوراق أنه قال : أصل غلبة الهوى مقاربة الشهوات فإذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وإذا أبغضه الخلق أبغضهم ، وإذا أبغضهم جفاهم ، وإذا جفاهم صار شيطانا رجيما .

وروى عن أبى على الثقفى : من غلبه هواه توارى عنه عقله ، وقال ليس شىء أولى بأن تمسكه من نفسك ، ولا شىء أولى بأن تغلبه من هواك .

وروى عن على بن سهل : العقل والهوى يتنازعان ، فمعين العقل التوفيق وقرين الهوى الخذلان ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما ظفر كانت فى خيره .

وروى عن أبى الحسين الوراق ؛ يقول الشهوة أغلب سلطان على النفس ، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج .

وروى عن ابراهيم القصار : أضعف الخلق من ضعف عن رد شهوته وأقوى الخلق من قوى على ردها .

قال السلمى بسنده قال المرتعش ، وقيل له:إن فلانا يمشى على الماء فقال : إن من مكنه الله من مخالفة هواه ، لهو أعظم من المشى على الماء .

أنبأنا أحمد بن احمد المتوكلى قال : أنبأنا احمد بن على بن ثابت ، قال:عن أبى بكر بن ابى الدنيا قال : بلغنى أن بعض الملوك قال لبعض الحكماء : العجب لمن عرف الله وجلاله كيف يخالف أمره وينتهك حريمه ؟ فقال الحكيم : بإغفال الحذر وبسط أمد الأمل ويعسى وسوف ولعل ، قال الملك : بم يعتصم من الشهوة وقد ركبت فى أبدان ضعيفة ، ففى كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن ؟ قال الحكيم : إن الشهوة من نتاج الفكر ، وقرين كل فكرة عبرة ، ومع كل شهوة زاجر عنها ، فمن قرن شهواته بالاعتبار ، وحاط نفسه بالازدجار ، انخلت عنه ربقه العدوان ، ودحض سىء فكره بإيثار الصبر على شهوته لما يرجو من ثواب الله على طاعته ويخاف من عقابه على معصيته .

قال بشر الحافى لحسن الفلاس : من جعل شهوات الدنيا تحت قدميه ، فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الصابر الغالب ، واعلم أن البلاء كله فى هواك ، والشفاء كله فى مخالفتك إياه .

وقد حكى عن أنو شروان أنه سئل : أى الأشياء أحق بالاتقاء ؟ فقال أعظمها مضرة : قيل فإن جهل قدر المضرة ؟ قال أعظمها من الهوى نصيبا .

وقيل للمهلب بن ابى صفرة : بم نلت مانلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى .

وقال بشر الحافى لقيت عليا الجرجانى بجبل لبنان على عين ماء ، فلما بصر بى قال بذنب منى لقيت اليوم إنسانا فسعيت خلفه ، وقلت أوصنى فالتفت إلى وقال : أمستوص أنت ؟ عانق الفقر وعاشر

الصبر ، وعاد الهوى وعف الشهوات ، واجعل بيتك أخلى من لحدك يوم تنقل إليه على هذا طاب المسير إلى الله عز وجل .

قال أبو على الدقاق : من ملك شهوته فى حال شبيبته صيره الله ملكا فى حال كهولته كيوسف عليه السلام ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال عبد الصمد الزاهد : من لم يعلم أن الشهوات فخوج فهو لعاب وقال أعرابى لابنه : يابنى من خاف الموت بادر الفوت ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات بادرت به إلى الهلكات والجنة والنار أمامك .

وقال بعض الحكماء : أعدل الناس من أنصف عقله من هواه

وقال آخر : العاقل من كان له على جميع شهواته رقيب من عقله .

وقال آخر : الهوى ملك عسوف ، وسلطان ظالم ، دانت له القلوب ، وانقادت له النفوس .

وقال آخر : النفس اذا هويت شيئا مالت إليه ، حتى تكون عند الذى هويت أكثر من كونها عند جسدها .

وقال آخر : ان لكل شيء أبا جاد إن أبا جاد الحكمة طرد الهوى ووزن الأعمال .

أشعار قيلت فى دم الهوى

دخل الوليد بن يزيد بعض كنائس الشام فكتب فى حيطانها بفحمة :

ماأرى العيش غير أن تتبع النفس هواها فمخطئا أو مصيبا .

فرأى ذلك البيت عبد الله بن على فكتب تحته .

إن كنت تعلم حين تصبح آمنا ... ان المنـايـا إن أقمت تقيم
فالزم هواك كما رضيت فإنه ... لامثل ذلك فى النعيم نعيم .

وقال آخر :

وبالناس عاش الناس قدما ولم يزل ... من الناس مرغوب إليه وراغب
ومايستوى الصابى ومن ترك الصبا ... وإن الصبا للعيش لولا العواقب

عن الأصمعى قال سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هو ان سرقت نونه

فنظمه شاعر فقال :

نون الهوان من الهوى مسروقة   فإذا هويت فقد لقيت هوانا

عن أبى بكر القرشى قال : انشدنى الحسن بن سلمان الأبلى :

كم أسير لشهوة وقتيل   أف للمشتهى خلاف الجميل
شهوات الانسان تورثه الذل   وتلقيه فى البلاء الطويل

وأنشد آخر :

رب مستور سبته صبوة   فتعرى ستره فانتهكا
صاحب الشهوة عبد فإذا   غلب الشهوة صار الملكا .

وقد أنشدوا لابن المبارك :

ومن البلاء وللبلاء علامة   الا يرى لك عن هواك نزع
العبد عبد النفس فى شهواته   والحر يشبع تارة ويجوع .

ولمحمد بن عبد الله بن مناذر :

خير ماجتن به المرء التقى   فاتخذها عدة دون العدد
وأرى الشهوة مفتاح الردى   فاجتنيها وانأ عنها وابتعد

ولصالح بن عبد القدوس :

عاص الهوى ان الهوى مركب   يصعب بعد اللين منه الذليل
ان يجلب اليوم الهوى لذة   ففى غد منه البكا والعويل
مابين مايحمد فيه وما   يدعو إليك الذم إلا القليل .

ولابن الرومى .

اتبع العقل إنه حاكم الله ولاتمشى فى طريق عناده
ماالهوى فى لفيفه ان تأملت بقرن للعقل فى أجناده
لاتعرض سداد رأيك للطعن عليه من ناقص فى سداده

وقال آخر :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى   الى بعض مافيه عليك مقال

وقال غيره

وأترك الشىء أهواه ويعجبنى   أخشى عواقب مافيه من العار

وقال غيره :

إن المرآة لاتريك عيوب وجهك مع صداها
وكذاك نفسك لاتريك عيوب نفسك مع هواها
وقال آخر
وكل امرىء يدرى مواقع رشده ولكنه أعمى أسير هواه
يشير عليه الناصحون بجهدهم فيأبى قبول النصح وهو يراه
هوى نفسه يعميه عن قصد رشده . ويبصر عن فهم عيوب سواه

وصايا ومواعظ وزواجر

عن الأوزاعى قال : حدثنى يحيى بن ابى كثير ان ابا بكر الصديق كان يقول فى خطبته : أين الوضاة الحسنة وجوههم ؟ أين المعجبون بشبابهم ؟ اين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان اين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور ، الوحا الوحا النجا النجا .

وعن ابن مسعود أنه كان يقول : إنكم فى ممر الليل والنهار فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتى بغتة فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ومن زرع شرا فيوشك ان يحصد ندامة ولكل زارع مازرع .)

عن ابى زكريا التيمى قال بينا سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام اذ اتى بحجر منقور فطلب من يقرأه فأتى بوهب بن منبه فقرأه فإذا فيه : ابن آدم : إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك ، لزهدت فى طويل أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك فبان منك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة .

كتب الأوزاعى إلى أخ له : أما بعد ، فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يسار بك فى كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وان يكون آخر عهدك به والسلام .

عن الفضيل بن عياض قال : بلغنى أن رجلا كتب إلى داود الطائى أن عظنى بموعظة قال : فكتب إليه :

أما بعد : فاجعل الدنيا كيوم صمته عن شهوتك واجعل فطرك الموت فكأن قد . والسلام .
قال : فكتب إليه : زدنى فكتب إليه :

أما بعد : فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك كما رضى أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم . والسلام .

عن النعمان بن عبد السلام عن سفيان قال : أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : إنه ليست عقوبتى لمن عرفنى واجترأ علىَّ كمن لم يعرفنى .

وعن أبى بكر محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت محمد بن حاتم الترمذى يقول : رأس

مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب مالايعنيك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله .

عن ابراهيم بن بشار يقول مررت أنا وأبو يوسف الغولى فى طريق الشام فوثب إليه رجل فسلم عليه ثم قال :

ياأبا يوسف عظنى بموعظة أحفظها عنك

قال فبكى ثم قال :

اعلم ياأخى أن اختلاف الليل والنهار ومرهما يسرعان فى هدم بدنك ، وفناء عمرك ، وانقضاء أجلك .

فينبغى لك ياأخى الا تطمئن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك ، وساخط ربك عليك بمعصيتك وغفلتك ، أو راض عنك بفضله ورحمته،ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس ، وجيفة غدا ، فإن كنت لاترضى بهذا ، فسترد وتعلم وتندم فى وقت لاينفعك الندم .

قال : وبكى أبو يوسف وبكى الرجل وبكيت لبكائهما ووقعا مغشيا عليهما .

ووعظ اعرابى ولده فقال : لا الدهر يعظك ، ولا الأيام تنذرك ، والساعات تعد عليك ، والأنفاس تعد منك وأحب أمريك اليك أعودهما بالضر عليك .

وكتب بعض الحكماء الى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام .

عود إلى رحاب التفسير

قوله تعالى : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾

ونحوه قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(١) .

فشبه أكثر الناس بالأنعام ، والجامع بين النوعين التساوى فى عدم قبول الهدى والانقياد له ، وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام ، لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدى ، وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا ، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل ، فلا يستجيبون ، ولايهتدون ولايفرقون بين مايضرهم وبين ماينفعهم .

والأنعام تفرق بين مايضرها من النبات والطريق ، فتتجنبه ، وماينفعها فتؤثره ، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ، ولا ألسنة تنطق بها ، وأعطى ذلك لهؤلاء ، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار ، فهم أضل من البهائم ، فإن من لايهتدى إلى الرشد

---

(١) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٩

وإلى الطريق مع الدليل إليه ، هو أضل وأسوأ حالا ممن لايهتدى ، حيث لادليل معه .

من آيات الله الكونية

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ
دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ
سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ
كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا
فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ ٱلَّذِى
مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا
﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

تفسير المفردات

ألم تر : أى ألم تنظر .
إلى ربك : أى الى صنعه .
مد : بسط
الظل : مايحدث من مقابله جسم كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس من حين ابتداء طلوعها حتى غروبها .
ساكنا : اى ثابتا على حاله فى الطول والامتداد بحيث لايزول ولا تذهبه الشمس .
دليلا : أى علامة .
قبضناه : أى محوناه
يسيرا : أى على مهل قليلا قليلا بحسب سير الشمس فى فلكها .
سباتا : من السبت وهو القطع لانقطاع التعب فيه أو لانقطاع الحياة الكاملة .
والنشور : البعث

بشرا : (تخفيف بشر بضمتين) واحدها بشور كرسل ورسول اى مبشرات .
والرحمة : المطر بين يديه : اى قدامه
طهورا : اى يتطهر به البلدة : الأرض
والميت : التى لانبات فيها
الأنعام : الأبل والبقر والغنم وخصها بالذكر؛لأنها ذخيرتنا ومعاش أكثر أهل المدر منها .
أناسى : واحدهم إنسان (أصله أناسين أبدلت النون ياء وأدغمت فى الياء)
صرفناه : أى حولناه فى أوقات مختلفة الى بلدان متعددة
ليذكروا : أى ليعتبروا . كفورا : أى كفرانا للنعمة وإنكارا لها
نذيرا : اى نبيا ينذر أهلها .
والمرج : من قولهم مرج فلان دابته إذا تركها وشأنها
فرات : اى مفرط العذوبة .
أجاج : أى شديد الملوحة . برزخا . . أى حاجزا،حجر محجورا : أى تنافرا شديدا فلا يبغى أحدهما على الآخر ولايفسد الملح العذب
نسبا وصهرا : أى ذكورا ينسب إليهم وإناثا يصاهر بهن .

المناسبة وإجمال المعنى

لما بين سبحانه جهالة المعرضين عن دلائل التوحيد ، وسخيف مذاهبهم وآرائهم ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فذكر خمسة أدلة عليه نراها عيانا ، وتتوارد علينا ليلا ونهارا ، وتكون دليلا على وجود الإله القادر الحكيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ انظر أيها المخاطب العاقل إلى صنع ربك ، كيف أنشأ الظل لكل مظل من طلوع الشمس حتى غروبها ، فاستخدمه الإنسان للوقاية من لفح الشمس وشديد حرارتها .

﴿ **ولو شاء لجعله ساكنا** ﴾ أى ولو شاء لجعله ثابتا على حال واحدة لايتغير ، لكنه جعله متغيرا فى ساعات النهار المختلفة وفى الفصول المتعاقبة ، ومن ثم اتخذ مقياسا للزمن منذ القدم ، فاتخذ المصريون (المسلات) وقاسوا بها أوقات النهار على أوضاع مختلفة وطرق حكيمة منوعة ، واتخذ العرب المزاول لمعرفة أوقات الصلاة ، فقالوا : يجب الظهر عند الزوال : أى إذا تحول الظل إلى جانب المشرق ، والعصر حين بلوغ ظل كل شيء مثله عند الائمة عدا أبا حنيفة الذى قال : لايجب إلا إذا بلغ ظل كل شيء مثليه .

﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** ﴾ أى ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهور الظل ومشاهدته للحس

والعيان ، والأشياء تستبين بأضدادها ، فلولا الشمس لما عرف الظل ، ولولا الظلمة ماعرف النور .

﴿ ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا ﴾ أى ثم أزلناه بضوء الشمس يسيرا يسيرا ، ومحوناه على مهل جزءا فجزءا بحسب سير الشمس ، يقول العلامة ابن القيم فى تفسير هاتين الآيتين :

أخبر تعالى أنه بسط الظل ومده ، وأنه جعله متحركا تبعا لحركة الشمس ، ولو شاء لجعله ساكنا لايتحرك ، إما بسكون المظهر له والدليل عليه ، وإما بسبب آخر .

ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضا يسيرا ، وهو شيء بعد شيء ، لم يقبضه جملة ، فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته وكمال حكمته .

فندب سبحانه الى رؤية صنعته وقدرته وحكمته فى هذا الفرد من مخلوقاته ، .ولو شاء ربنا لجعله لاصقا بأصل ماهو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره ، فلم ينتفع به أهله ، فإن كمال الانتفاع به تابع لمده وبسطه وتحوله من مكان إلى مكان ، وفى مده وبسطه ثم قبضه شيئا فشيئا : من المصالح والمنافع مالايخفى ولا يحصى ، فلو كان ساكنا دائما أو قبض دفعة واحدة ، لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس ، فمد الظل وقبضه شيئا فشيئا لازم لحركة الشمس على ماقدرت عليه من مصالح العالم .

وفى دلالة الشمس على الظلال . ماتعرف به أوقات الصلوات وما مضى من اليوم ومابقى منه .

وفى تحركه وانتقاله : مايبرد ماأصابه حر الشمس ، وينفع الحيوانات والشجر والنبات ، فهو من الآيات الدالة عليه وفى الآية وجه آخر : وهو انه سبحانه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ، ودحا الأرض من تحتها ، فألقت القبة ظلها عليها ، فلو شاء سبحانه لجعله ساكنا مستقرا فى تلك الحال ، ثم خلق الشمس ونصبها دليلا على ذلك الظل ، فهو يتبعها فى حركتها يزيد بها وينقص ، ويمتد ويقلص ، فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله .

وفيها وجه آخر : وهو أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة يقبض أسبابه ، وهى الأجرام التى تلقى الظلال ، فيكون قد ذكر اعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله : ﴿ قبضناه إلينا ﴾ كأنه يشعر بذلك .

وقوله ﴿ قبضا يسيرا ﴾ يشبه قوله ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾[1] .

وقوله : ﴿ قبضناه ﴾ بصيغة الماضى لاينافى ذلك كقوله تعالى :

﴿ أتى أمر الله ﴾[2] والوجه فى الآية هو الأول .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴾ .

وتلك آية أخرى من الآيات الدالة على قدرته ورحمته ، فقد شاء سبحانه أن يجعل الليل بظلمته لباسا ساترا ، وأن يجعل النوم سباتا قاطعا لمتاعب النهار ، فتنامون فيه كما تموتون ، وكما قال ﷺ : (والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا) . سبحانك ربى من قائل : ﴿ وهو الذى

(١) سورة ق آية رقم : ٤٤

(٢) سورة النحل الآية رقم ١

يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[١] وإذا كان الليل والنهار آيتين من آيات الله ، فإن الله جل جلاله يتحدى بهما كل من على وجه الأرض من معاندين ومكابرين وجاحدين ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٢] .

سبحانك من قائل : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ﴾[٣] سبحانك من حكيم جعلت الليل والنهار مطيتين إلى الآخرة فالعاقل من أحسن استعمالها .

نموت وأيامنا تذهب ونلعب والموت لايلعب
عجبت لذى لعب قد لهى عجبت ومالى لاأعجب
أيلهو ويلعب من نفسه يموت ومنزله يخرب
أرى الليل يطلبنا والنهار ولم أدر أيهما أطلب
أحاط الجديدان جمعا بنا وليس لنا منهما مهرب
وكل له مدة تنقضى وكل له أثر يكتب

إن الله تعالى جعل النوم قطعا لمتاعب النهار ولذا فإن النوم نعمة من نعم الله قال عز من قائل : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾[٤]

ماذا قالوا عن النوم :

قالوا: إن النوم طرح روحى مؤقت وقالوا :

لقد دامت أبحاث العلم والطب وقتا طويلا ، لتجد تعليلا لظاهرة النوم ، وإيجاد تفسير لما يحدث فى النوم بعد أن عجز العلم عن بيان الأسباب الدافعة المباشرة للنوم . . فقيل إن النوم رغبة جامحة للراحة تنتاب المرهق المتعب ، ونفى ذلك أن غير المتعب ينام أيضا وتنتابه الرغبة فى النوم ، مثل المكدود فى مواعيد متقاربة ، بل إن من قضت عليه الظروف بالراحة فى الفراش أياما أو شهورا أو أعواما ينام كذلك فى ساعاته المعهودة . . بالرغم من الراحة الجسدية التى حتمتها عليه ظروف وجوده فى الفراش ،

(١) سورة الأنعام الآيات/ ٦٠ - ٦٢
(٢) سورة القصص الآيات/ ٧١ - ٧٣
(٣) سورة النبأ الآيات - ٦ - ١١
(٤) سورة الروم الآية رقم/ ٢٣

وفى ذلك يقول الدكتور هريوارد كارنجتون عضو جمعية البحوث النفسية .

قدم الباحثون فيما مضى عدة نظريات لتفسير النوم ، ولكنها رفضت كلها ، ولم يكن من بينها واحدة ملائمة تفى بالغرض مثلا تلك النظريات المسماة النظريات الكيماوية ، تحاول تعليل النوم بافتراضها تكوين مواد سامة داخل الجسم خلال ساعات اليقظة ، ثم تقريرها أن النوم يبيد هذه المواد ، وترمى بعض النظريات إلى أن سبب النوم حدوث حالات غريبة فى دورة المخ الدموية . ويقول بعضها إن النوم راجع إلى وجود غدد خاصة . وبعضها ينسبه إلى الاسترخاء العضلى ، ولكن هذه النظريات كلها عجزت فى الواقع عن تفسير الحقائق ، التى لاشك فى أنها وجود روح آدمية قائمة بذاتها تنسحب كثيرا أو قليلا من الجسم خلال ساعات النوم » .

وقد عد العلماء أن ماوصل إليه العلم من اعتبار أن النوم طرح روحى مؤقت ، نصرا مابعده من نصر ، إذ أمكن تفسير الأحلام التى يراها الإنسان فى نومه ، فيتحقق منها بعد يقظته طالت المدة أو قصرت ، وأمكن تعليل رؤية النائم لأمكنة أو أشخاص لم يسبق له رؤيتهم ، فإذا مازار هذه الأمكنة أو التقى بهؤلاء الناس عرفهم فورا ، وتعجب من دقة وتطابق للحالتين ، حالة الرؤيا فى النوم والمشاهدة فى اليقظة .

وكان أول من قال إن من دلائل انسجاب الروح فى النوم ، ماتقوم به من سياحات أثناء النوم ، فيراها النائم كأنها حلم وأثبت ذلك الدكتور هدسون تتل إذ يقول فى كتابه (أسرار الروحية) إن سيدة ولدت عمياء استطاعت فى أحلامها أن ترى الأشياء بوضوح وأن تصفها بدقة ، ولما توفيت شرحت جثتها عقب وفاتها وظهر من التشريح أن أعصاب البصر عندها كانت ميتة .

ويقول الدكتور جورج لندسى جونسون إنه أجرى عملية جراحية فى عين فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ولم تكن قط رأت شيئا ألبتة ، ولكنها لما شفيت ورفعت الأربطة ، تبينت شكل كل فرد فى الحجرة وملبسه ، واستطاعت أن تميز بين الألوان المختلفة ، مما يؤكد أن روحها كانت تنطلق فى منامها فترى مالم تستطع أن تراه بعينها .

وقرر كثيرون أنهم قاموا بأروع أعمالهم عندما شاهدوها فى أحلامهم ، مثل الموسيقار أرثر سيمور سوليفان الذى ألف أغنيته المشهورة « النور الضائع » فى نومه وجوسيب ثارتينى الذى يقول إنه سمع فى نومه كأن الشيطان يغنى ، فما أن صحا من نومه حتى كتب اللحن وسماه « أغنية الشيطان » .

والرياضى المعروف هنرى بوانكارية ، رأى معادلات جبرية أدت إلى استكشافه قانونا هاما رياضيا .

ولعل من الأحلام التى رددت الأوساط صداها كثيرا ، تلك الرؤيا التى نشرت فى عدة كتب وطبعت بأكثر من لغة وفيها : « كان فى الصحراء . . فى جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، سيد وسيدة كلاهما تلقى العلم فى أرقى الجامعات وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لاصديق له . . نفد الماء وعلف الدواب ومعهما رجال من الأدلاء والحراس ، والعمران قصى بعيد والاتجاه فى أى متجه من غير علم به معناه الموت المحقق فى جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعا إليها طريقا غير

مسلوك . نزل بهما الهم وأخذ منهما ومن رجالهما القنوط ، فأنيمت الإبل وجلست القافلة فى ذلك القفر ، لا مؤنس لهما : إلا الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لامحالة ، فإما طريق إلى الدنيا وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلما وهو بعد ممن لم يعكفوا على التصوف يوما من أيام حياتهم وحلم بامرأة بيضاء أو تلبس البياض لم يستطع أن يصفها قالت له :

« خذ السلسلة التى تعلقها فى عنقك ، وتعال معى إلى قمة هذا الكثيب ، ثم ادفنها هناك ، وفى الصباح إذا حضرت لتأخذها سوف ترى آثار قدميك وقدمى معا ، وبذلك تعرف الطريق » وفعل السيد كما أمر .

وفى الصباح نهض من نومه ، وتذكر الحلم فاصطحب السيد رفيقة سفره ورجاله ، وأراهم آثارها أقدام ذاهبة إلى الكثيب ثم هابطة . واحتفر فى المكان الذى رآه فى نومه فوجد ثم تابع الأقدام فوجد المكان المأهول الذى نجا هو والقافلة بالعثور عليه » .

أما السيد فهو المرحوم أحمد محمد حسنين أما السيدة فالجوالة روزينا فوربس صاحبة الكتاب .

والأمثلة التى تشابه ذلك لاتقع تحت حصر ، بل إن كل فرد لابد قد رأى فى نومه حلما تحقق ، وبهذا أمكن إثبات أن النوم إنما هو حالة طرح روحى مؤقت ، والرؤيا ماهى إلا سياحة بالروح إلى حيث شاء الله .

وقبل ذلك بمئات السنين يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة عن النوم فتقول الآية ٤٢ من سورة الزمر :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(١) .

فجعل النوم كالموت أى طرح روحى يكون دائما حين الموت ومؤقتا فى النوم .

والقرآن الكريم أول كتاب كذلك ذكر النوم بالنهار فالآية ٢٣ من سورة الروم نصها :

﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

وظل موضوع النوم فى النهار موضع جدل حتى وصل العلم والطب إلى ماقرره القرآن الكريم ، إذ ينصح مدير التربية البدنية فى جامعة ييل تلاميذه نصيحة خالدة نصها « عليك فى الظهر نسبة من النوم » .

ويقول داى جيلز فى مجلة « تدهوفر » أما وقد بلغ الإرهاق كل مبلغ بالأجسام والعقول والأرواح ، فقد آن الأوان لإعادة النظر فى خطة بسيطة تزيدنا مقدرة على العمل وشعورا بالراحة وتلك هى أن يغفو الإنسان غفوة كل يوم .

لقد اتفق الأطباء على أن هذه الغفوات التى تتخلل النهار تدفع الكلال وتخفض ضغط الدم حوالى ١٥ ـ ٣٠ ملليمترا وترفع عن القلب بعض الحمل المتعب .

(١) سورة الزمر آية رقم : ٤٢

وقد لوحظ أن الإغفاء قبل القيام بأى مجهود بدنى أو عقلى أو بعده يصنع العجائب بالنسبة للإنتاج العضلى والذهنى وللحالة الصحية عامة .

ولقد سئل ديبو عضو الشيوخ الأمريكى والخطيب المشهور كيف يستطيع أن يتكلم عدة ليال فى الأسبوع ، ويقوم مع ذلك بعمله المرهق أثناء النهار فأجاب « إنى أعامل مصرفا للنوم ماأسحب من رصيدى فيه شيئا بالسهر إلا أودعت فى نفس اليوم وديعة أخرى فيظل رصيدى تام التوازن على الدوام » .

وقد أكد الدكتور أدموند جاكوبسون الذى ألف كتابيه عن « الاسترخاء المطرد » و « يجب أن تسترخى » والذى ظل عدة سنين مديرا لمعامل الفسيولوجيا الإكلينيكية بجامعة شيكاغو حقيقة وجوب النوم أثناء النهار .

ويقول ديل كارنيجى فى كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » . لقد استطاع جون د . روكفلر الأب أن يضرب رقمين قياسيين الأول أنه جمع أكبر ثروة عرفها العالم فى عهده ، والثانى أنه عاش حتى سن الثامنة والتسعين ، فكيف تأتى له ذلك ؟ أما طول عمره فلعل السبب الأول فيه هو الوراثة .

أما السبب الثانى فهو اعتياده الإغفاء نصف ساعة بعد ظهر كل يوم فى غرفة مكتبه ، فكان يستلقى على أريكته فى غرفة المكتب ويستسلم للراحة التامة . . »

ويتابع قوله إذا تعذر عليك أن تغفو ظهرا فإنك على الأقل تستطيع أن تستلقى على أريكة قبيل العشاء فإذا نمت ساعة فى اليوم فإنك بذلك تضيف ساعة إلى ساعات يقظتك .

لأن ساعة تنامها فى خلال النهار مضافة إلى ست ساعات تنامها ليلا تجعل المجموع سبع ساعات أجدى عليك من ثمانى ساعات من النوم المتواصل ليلا .

قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾ أى والله الذى أرسل الرياح مبشرات بقدوم الأمطار .

﴿ **وأنزلنا من السماء ماء طهورا** ﴾ الطهور اسم لما يتطهر به كالوقود لما توقد به النار والوضوء لما يتوضأ به ، أى وأنزلنا من السحاب ماء تتطهرون به فى غسل ملابسكم وأجسامكم ، وتنتفعون به فى طبخ مطاعمكم ، وتشربونه عذبا فراتا .

روى أن النبى ﷺ قال فى البحر : (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى[1] .

(لنحيى به بلدة ميتا) أى وأنزلناه لنحيى به أرضا طال انتظارها للغيث ، فهى هامدة لانبات فيها ، وبذلك الماء تزدهر بالشجر والنبات والأزهار ، وذلك أشبه بالحياة للإنسان والحيوان .

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الطهارة ٤١ ، والترمذى فى أبواب الطهارة/٥٢ ، والنسائى فى كتاب الطهارة/٤٦ ، وفى المياه/ ٤ ، وفى كتاب الصيد/ ٣٥ ، وابن ماجه فى أبواب الطهارة/ ٣٨ ، وفى أبواب الصيد/١٨ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب الطهارة/ ١٢ ، وفى كتاب الصيد/ ١٢ ، والدارمى فى كتاب الوضوء/٥٣ ، وفى كتاب الصيد/ ٦ ، وأحمد فى مسنده ٢/ ٢٣٧ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٣/ ٣٧٣ ، ٥/ ٣٦٥

ونحو الآية قوله : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾(١) وقوله : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾(٢) .

﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾ أى وليشرب منه الحيوان والإنسان ، وأخر ذكر الإنسان عن النبات والحيوان لحاجته إليهما فى حياته ، ولأنهم إذا ظفروا بماء يسقى أرضهم ومواشيهم لم يعدموا مايكون منه سقياهم .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾(٣) .

وقوله جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(٤) .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾(٥) .

وقوله جل شأنه ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلال وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾(٦) .

وقوله جل جلاله : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾(٧) .

وقوله جلا جلاله : ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ﴾(٨) .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ﴾(٩) .

فى رحاب الآيات نعيش مع الحقائق العلمية والعلم يدعو إلى الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾(١٠) .

كتب الدكتور جمال الفندى فى كتابه (القرآن والعلم)

تحت عنوان : الطبيعة الجوية والقرآن .. دورة الرياح العامة وتوزيع السحاب والمطر .

---

(١) سورة الحج آية رقم/ ٥
(٢) سورة الروم آية رقم/ ٥٠
(٣) سورة الأعراف آية رقم/ ٥٧
(٤) سورة الروم آية رقم/ ٤٦
(٥) سورة الروم الآيات رقم/ ٤٨ - ٥١
(٦) سورة النور آية رقم/ ٤٣
(٧) سورة فاطر آية رقم/ ٩
(٨) سورة الرعد آية رقم/ ١٢
(٩) سورة الشورى آية رقم/ ٢٨
(١٠) سورة فصلت آية رقم/ ٥٣

يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

ويتضمن توزيع الرياح على الأرض فى طبقات الجو المختلفة ومن ثم صعودها أو هبوطها وإثارتها للسحب الممطرة ، موضوع دراسات واسعة المدى من الناحيتين الديناميكية والطبيعية . وعلى الرغم من أن هذه الدراسات الحديثة لم تكتمل بعد ، فإننا سنلخص أهم النتائج العلمية التى تم التوصل إليها لنلمس أهميتها وعمق ماتشير إليه الآية الكريمة .

فمن حيث طبقات الغلاف الجوى كانت معظم معلوماتنا عنه حتى عهد قريب ـ قبل عصر الفضاء ـ إنما تجمع عن طريق دراسة الطبقة السفلى المعروفة باسم (التروبوسفير) أو منطقة التغير باستخدام البالونات أو الطائرات التى قلما تصل إلى علو يزيد على ٣٠ ميلا ثم الطبقة التى تعلوها وهى (الأوزونوسفير) أو منطقة تجمع الأوزون باستخدام أجهزة قياس تجمع الأوزون فى الاتجاه الرأسى (يتكون من ثلاث ذرات من الأكسجين) .

وتكون (الأوزونوسفير) الجزء السفلى من طبقة (الستراتوسفير) أو المحيط ذو الطبقات .

وهى الآن تدرس بالصواريخ كذلك ويلى (الستراتوسفير) من أعلى طبقة متأنية هى (الأيونوسفير) التى يتواجد فيها الأكسجين الذرى . وكانت معالم هذه الطبقة تجمع باستخدام مسجل التأين الذى يحدد عمليا درجات تركيز الكهارب على الارتفاعات المختلفة داخل (الايونوسفير) ، تتكاثر هذه الكهارب فى طبقات معينة تعرف علميا باسم طبقات (هفينسيد) وهى التى تعكس أمواج اللاسلكى بعد انطلاقها من محطات الإذاعة وتردها إلى مراكز الاستقبال . كل ذلك بالإضافة إلى تحليل طيف الفجر القطبى وهو ظاهرة ضوئية تحدث فى أعالى الجو الممتد من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ كيلو متر ويطلق عليه الفرنجة اسم (الأورورا) وهو لايشاهد عادة إلا بالقرب من قطبى الأرض .

ويبلغ ارتفاع الطبقة السفلى (التروبوسفير) نحو ١٨ كيلو مترا عند خط الأستواء ، ٨ كيلو مترا فقط عند القطبين .

وتحدث كافة التقلبات الجوية فى هذه الطبقة : ففيها تثار السحب وينزل المطر وتحدث الأعاصير . ومن أهم صفاتها الطبيعية أن درجة الحرارة فيها تنخفض بازدياد الارتفاع بمعدل متوسطه ٦,٥ درجة مئوية لكل ألف متر .

وعلة ذلك أن مصدر الحرارة فى هذه الطبقة هو سطح الأرض ، بما يكتسب من الإشعاع الشمسى . ولقد قدر بالقياسى والحساب أن نحوا من ٣٠ فى المائة من الإشعاع الشمسى الذى يرد إلى سطح الأرض يستخدم فى تبخير المياه من الأسطح المائية ، ويتحول إلى حرارة كامنة فى البخار العالق فى الجو ، وتنطلق هذه الحرارة الكامنة كلها فى طبقة (التروبو سفير) عندما يتم تكاثف بخار الماء وتحوله إلى سحب ومطر .

وترتفع درجة الحرارة فى طبقة (الأوزونوسفير) نظرا لما يمتصه غاز الأوزون من الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس .

وتصل درجة الحرارة أقصى ارتفاع لها عند علو نحو ٥٠ كيلو مترا .

وحديثا أطلق على الجزء العلوى من (الستراتوسفير) اسم (الميزوفير) أو الكرة الوسطى . وفى هذه الطبقة لاتكفى كثافة الأوكسجين لتكوين الأوزون ، ولذلك تنخفض درجة الحرارة كلما صعدنا قدما إلى أعلى حتى تصل أقل قيمة لها فى جوالأرض على ارتفاع نحو ٨٠ كيلو مترا ، وبعد ذلك يلعب الأوكسجين الذرى الموجود فى الجو العلوى دورا هاما فى امتصاص بعض الأشعة فوق البنفسجية الواردة من الشمس ، فيسبب تسخين تلك الطبقات من جديد .

ولهذا تعرف مشارف الهواء العلوى كذلك باسم (الثيرموسفير) أو المحيط الحرارى . وفوق (الثيرموسفير) منطقة من الغلاف الجوى تنخفض فيها كثافة الهواء إلى الحد الذى يحول دون توهج الشهب ، إلا أنها رغم ذلك تستطيع حمل الفجر القطبى .هذه المنطقة هى(الأكوسفير) أو المحيط الخارجى .

وليست هناك أية حدود معينة عليا لهذه الطبقة ، إلا أننا نستطيع أن نقول بأنها تنتهى حيث تتعادل الكثافة مع كثافة الفضاء الكونى القريب وهو نحو ١٠٠ جسيم مثلا لكل سنتيمتر مكعب .

ولقد دلت عمليات الرصد الجوى على سطح الأرض خلال العديد من السنين على مساحات واسعة أن الرياح إنما تتبع فى سيرها قواعد معينة تجعلها توزع على الأرض بطريقة خاصة فى المتوسط هى الدورة العامة .

ولما كان الدافع للهواء على الحركة هو اختلاف الضغط الجوى أو كثافة الهواء من مكان لآخر ، فانه من الطبيعى أن نجد توزيع الرياح على الأرض مرتبطا بتوزيع الضغط الجوى ، وهذا الأخير يرتبط بتوزيع درجات الحرارة التى هى المحدد الأول لكثافة الهواء على الأرض .

ومن البديهى أن تتواجد درجات الحرارة العظمى (والكثافات والضغوط المنخفضة) فى المناطق الاستوائية عموما ، كما تتواجد درجات الحرارة المنخفضة (والكثافات الكبيرة والضغوط العالية) . فى المناطق الباردة وخاصة داخل القارات فى الشتاء وحول القطبين .

وتهب الرياح بميل حول خطوط الضغط المتساوى (الأيسوبارز) إلى مناطق الضغط المنخفض متدفقة من مناطق الضغط العالى ، متبعة فى قاعدة عامة هى :

« فى نصف الكرة الشمالى تدور الرياح حول خطوط الضغط المتساوى منحرفة نحو الضغط المنخفض بحيث تكون هذه المراكز على يسارها وتكون مراكز الضغط العالى يمينها ، ويحدث العكس فى نصف الكرة الجنوبى »

وتبعا لذلك نجد أن للرياح (دورة عامة) من أهم مظاهرها :

أولا : توجد حول خط الاستواء منطقة ضغط خفيف وتتركز هذه المنطقة عادة شمال خط الأستواء بقليل ، كما أنها تتذبذب صوب الشمال أو الجنوب متبعة فى ذلك الوضع الظاهرى للشمس .

ثانيا : يحد هذه المنطقة من شمالها ومن جنوبها منطقتان من الضغط العالى (مابين خطى عرض ١٥ درجة و ٣٠ درجة شمالا وجنوبا) .

وهما يظهران بوضوح وجلاء فوق المحيطات ، وخاصة فى نصف الكرة الجنوبى حيث يقل اتساع اليابس نسبيا عما هو عليه فى نصف الكرة الشمالى ، وتعرف المنطقتان عادة باسم (ركاب الخيل) ويهب من كل منها هواء يتجه إلى مناطق الضغط الخفيف حولها وينحرف هذا الهواء تجاه الغرب أثناء سيره إلى منطقة الضغط الخفيف عند خط الاستواء فيغطى الرياح الشمالية الشرقية فى نصف الكرة الشمالى ، والرياح الجنوبية الشرقية فى نصف الكرة الجنوبى . وتعرف هذه الرياح عندنا باسم (الرياح التجارية) .

ثالثا : ـ الأهوية التى تتجه إلى القطبين تنحرف صوب الشرق بحيث تصير جنوبية غربية فى نصف الكرة الشمالى ، وتعرف باسم (الغربيات السائدة) .

وشمالية غربية فى نصف الكرة الجنوبى وهى شديدة السرعة . وتميل الضغوط الجوية إلى الهبوط والتناقص فى مناطق هبوب الغربيات السائدة . وذلك نظرا لما يتولد فيها من آن لآخر من عواصف محلية واضطرابات جوية متجولة تعرف باسم (الانخفاضات العرضية) هذه الانخفاضات تتتابع فى سلسلة تجعل توزيع الضغط العام يهبط نسبيا داخل مناطق هبوب الغربيات السائدة بينما تظل مناطق القطبين عالية الضغوط نظرا لبرودتها وهبوط الهواء فيها من أعلى .

رابعا : ـ تكون منطقة كل قطب أشبه شىء بطاقية من الضغط العالى الذى تنطلق منه غالبا رياح شرقية تتجه إلى مناطق هبوب الغربيات السائدة .

نرى مما سبق أن الرياح التجارية ريح شرقية عموما ، تهب بشدة على المحيطات حيث تكون أثبت أنواع الرياح على الأرض ، وهى تلعب دورا هاما فى توزيع طاقة الاشعاع الشمسى التى تصل المحيطات كما أنه لاينتابها إلا بعض الاضطرابات التى تكون فى صورة أمواج تسبب من آن لآخر ظهور نكباء المناطق الحارة التى طالما هددت السفن وسببت الرعب للملايين فى مختلف العصور .

أما داخل القارات فإن حزام الرياح التجارية كثيرا ما يتقطع ويصبح غير متصل كما أن أهويتها تكون جافة ولهذا تكثر فى مناطق هبوب التجاريات الصحارى والقفار مثل الصحراء الكبرى وصحراء الغرب .

أما الغربيات السائدة فهى غير ثابتة ، تتغير شدتها واتجاهاتها تبعا لحالة الجو المحلية ، فقد تصبح جنوبية شرقية أو جنوبية أو جنوبية غربية أو حتى غربية .

وفى المحيط الأطلسى تدفع الغربيات السائدة معها مياه البحر الدافئة من مناطق ركاب الخيل إلى شواطىء غرب أوروبا حتى خط عرض نحو ٨٠ درجة شمالا .

ونظرا لهبوبها من مناطق ساخنة نسبيا إلى أخرى أبرد فهى رياح ممطرة ، ذلك لأن تبريد الهواء أو انخفاض درجة حرارته هو السبب فى حمل أبخرة الماء العالقة فيه على التجمع والتكاثف أو التحول إلى نقط من الماء تكون السحب والأمطار ونحوها .

وتتذبذب منطقة الغربيات السائدة أيضا صوب الشمال أو الجنوب تبعا للوضع الظاهرى للشمس فهى فى فصل الشتاء تغمر منطقة البحر الأبيض المتوسط ومصر وتصيبها بأمطار شتوية .

وتتابع الانخفاضات العرضية (وهى مناطق الضغط المنخفض التى تتولد تباعا على شمال الأطلسى فى مناطق هبوب الغربيات السائدة وتسير من الغرب إلى الشرق وتدور حولها الأهوية فى سلسلة تغمر المنطقة كلها بمتوسطات من الضغوط الخفيفة فتقبل إليها الرياح من الشمال والجنوب)

ولعل هذا هو السبب فى عدم اقتحام هذا المحيط حتى عهد قريب نسبيا .

أما المحيط الهندى وبحر العرب فتجتاحها فى أشهر الصيف رياح موسمية جنوبية غربية تبدأ من نصف الكرة الجنوبى (جنوب خط الاستواء) كرياح جنوبية شرقية تنحرف إلى جنوبية غربية بعد عبورها خط الاستواء وتستمر لكى تغذى انخفاض الهند الموسمى الصيفى وانخفاض السودان الصيفى المعروفين »

وفوق منطقة الركود تلتقى الرياح التجارية المقبلة من الجنوب والشمال فتصعد إلى أعلى مثيرة السحب الممطرة التى تنشأ عنها الغابات الاستوائية . وعند حوالى خطى عرض ٣٠ درجة شمالا وجنوبا تهبط الرياح من أعلى فترتفع درجة حرارتها ولاتثار السحب وتنشأ الصحارى المدارية .

وحول خطى عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا تلتقى الغربيات السائدة مع الشرقيات القبلية فترتفع مثيرة للسحب الممطرة التى تنشأ عنها الغابات الصنوبرية .

أما على القطبين فإن الهواء يهبط من أعلى ولاتتكون السحب ، وبذلك تنشأ الصحارى الجليدية .

وهكذا نرى أن تصريف الرياح أو توزيعها إنما يتبعه توزيع السحب العام على الأرض ، ومن ثم الأمطار التى تتحكم فى عالم النبات ويضطرب الجو فى مناطقنا والمناطق المعتدلة مثل حوض البحر المتوسط وأوروبا تحت تأثير مرور ماعرفناه علميا باسم الانخفاضات العرضية التى سبق ذكرها .

والانخفاض العرضى عبارة عن جزء من الجو ينخفض فيه الضغط الجوى انخفاضا كبيرا بحيث تحدث ذبذبة فى الضغط كثيرا ماتفوق سعتها سعة التغيرات السنوية ، إذ قد تصل السعة إلى ٥٠ ملليبار فى المركز . والانخفاض لايثبت بعد تكوينه فى مكان واحد إلا نادرا وتحت ظروف خاصة ، والعادة أنه يسير من الغرب إلى الشرق (فى نصف الكرة الشمالى) وتصحبه أثناء سيره التقلبات الجوية التى تتكرر فى كل مكان بتكرار مرور هذه الانخفاضات .

وتتفاوت الانخفاضات العرضية من حيث الاتساع والعمق ، فمن حيث الاتساع تتراوح أقطارها مابين ٣٠٠٠ كيلو متر إلى مالايزيد قطره على ٣٠٠ كيلو متر . أما من حيث العمق فقد يهبط الضغط فى مركز الانخفاض إلى ٩٣٠ ملليبار وقد يظل عند ١٠٠٠ ملليبار ، ولايدل عمق الانخفاض على شدته ، وإنما ترتبط شدة الدورة حول الانخفاض ارتباطا وثيقا « بتدرج الضغط » (أى تقارب خطوط الضغط من بعضها) وفى العادة يبلغ تدريج الانخفاض فى المتوسط نحو ٥ ملليبار لكل ١٠٠ كيلومتر ويزداد فى الانخفاضات النشطة إلى ١٥ ملليبار لكل ١٠٠ كيلو متر ، ويمتد تأثير بعض هذه الانخفاضات أحيانا

من بحر البلطيق شمالا إلى حوض البحر الأبيض المتوسط جنوبا وتدور الرياح حول هذه الانخفاضات فى اتجاه مضاد لعقارب الساعة .

ولدراسة الانخفاض من حيث تولده وتحركه ثم امتلاؤه بعد ذلك ، ولإمكان عمل التنبؤات الجوية ، ترسم خزائط الطقس ، وهى خرائط عادية تبين مواقع محطات الرصد وتوقع عليها عناصر الجو لكل محطة ثم ترسم عليها خطوط الضغط المتساوى ، ويتكرر ذلك فى ساعات معينة كل يوم وفقا بالنظام الدولى الخاص بالأرصاد .

وترسم خطوط الضغط المتساوى بحيث تتفاوت عن بعضها البعض بمقدار ٢ أو ٤ أو ٥ ملليبارات وتتحدد بذلك مناطق الضغط الخفيف أو الانخفاضات وترسم أيضا إلى جانب ذلك خرائط الجو العلوى وهو تبين توزيع الضغط والحرارة على ارتفاعات معينة وتفيد فى أعمال التنبؤ إذ أنها لاتتأثر فيها العناصر الجوية مثل درجة الحرارة واتجاه الرياح وسرعتها بالعوامل المحلية .

وهناك عدة نظريات تشرح تولد الانخفاض العرضى ، ومن أهم هذه النظريات ، وأقربها للحقيقة والواقع ، وأعمها شيوعا نظرية الجبهة القطبية ، وهذه الجبهة هى السطح التخيلى الذى يفصل الغربيات السائدة عن التيارات القطبية الشمالية الشرقية . وتتكون نواة الانخفاض فى بادىء الأمر فى صورة التواء أو تنوء فى هذه الجبهة وينمو هنا النتوء على غرار نمو الدوامات تقريبا ويبدأ الانخفاض مثلا بسطح مستو يفصل بين تيار شمالى شرقى بارد وآخر جنوبى غربى ساخن نسبيا ثم يندفع الهواء الساخن داخل التيار البارد فى صورة نتوء لايلبث أن ينمو مكونا القطاع الساخن أى حوض الهواء الساخن المتجمع داخل الهواء البارد نسبيا . وتبعا لذلك تلتوى الجبهة الفاصلة بين الكتلتين فى صورة موجة يتميز نصفها الأمامى عن نصفها الخلفى بمميزات معينة ، ويسمى النصف الأمامى الجبهة الساخنة والنصف الخلفى الجبهة الباردة . ونقطة تلاقيهما هى مركز الانخفاض . ويتحرك مركز الانخفاض غالبا فى اتجاه الرياح داخل القطاع الساخن .

وهناك جبهة مدارية كشفها المؤلف كذلك تتكون عليها الانخفاضات الخماسين فى الربيع ، وهواؤها ساخن جدا يعرف بالسموم أو الخماسين التى تنفذ أتربتها إلى العيون والآذان والأنوف والحناجر .

وقد تصل أتربة هذه العواصف إلى بحر البلطيق شمالا . وقد تبلغ النهاية العظمى لدرجة الحرارة فيها ٤٨ أو أكثر فى الظل ، كما تصل درجة الرطوبة النسبية حدود ٢ فى المائة ، أى منتهى الجفاف ، مما يعمل على هلاك النبات والأحياء من الدواب على السواء ، خصوصا إذا ما ازدادت سرعة الرياح ، وطالت مدتها ، واشتدت حدتها .

والمعروف أو المألوف أن « الحسومات » فترة من العواصف الحادة التى تهب فى موسم الخماسين فى الشرق الأوسط ، وربما تميط لنا هذه الحقيقة اللثام عن تفسير الآية الخاصة بالرياح المعجزة التى أهلكت قوم عاد فى قوله تعالى :

﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ ـ الحاقة ـ .

وعلى أية حال فالمعروف أن رياح الخماسين أهلكت جيش قمبيز وهو فى طريقه إلى سيوه عندما كانت عامرة فى القدم .

وعموما أى انخفاض عرضى عندما تدخل الجبهة الساخنة يتغير اتجاه الرياح إلى الجنوب أو الجنوب الغربى ، وتسوء الرؤية نوعا ما بحسب محتويات الهواء الساخن من الأتربة ونحوها . وعندما يكون متشبعا بأبخرة المياه تتكون أيضا السحب المنخفضة الممطرة .

أما إذا كان الهواء الساخن غير محمل بأبخرة كافية كما هو الحال فى الشرق الأوسط عموما ، حيث يأتى الهواء الساخن من قلب الصحارى ، فإن الجبهة الساخنة قلما يصحبها مطر ، وقد يكون فى صورة رذاذ فقط قرب الساحل ، وتنعدم السحب تقريبا وسط القطاع الساخن ، ثم تظهر السحب الركامية المتوسطة الارتفاع باقتراب الجبهة الباردة ، فالسحب الركامية المنخفضة الممطرة نتيجة الحركات الرأسية العنيفة التى تصحب مقدمة هذه الجبهة حيث يتدفق الهواء البارد من آن لآخر إلى السطح فيدفع بالهواء إلى أعلى ، ويتغير اتجاه الريح إلى الغربى فالشمالى الغربى وتتحسن الرؤية ، ويكون المطر فى صورة رخات متواصلة أو متقطعة تتوقف شدتها على كميات أبخرة المياه العالقة وعلى مدى استقرار الجو وعدمه فى الطبقات العليا .

وفى العادة تسير الجبهة الباردة بسرعة أكبر من سرعة سير الجبهة الساخنة التى فى المقدمة ، ولهذا يأخذ القطاع الساخن فى التناقص تدريجيا من الخلف ، وتنطبق بذلك أجزاء الجبهة الباردة بأجزاء الجبهة الساخنة القريبة من المركز ويمتد هذا الانطباق تدريجيا كلما انكمشت مساحة القطاع الساخن مكونا جبهة واحدة هى جبهة الامتلاء ولاتزال هذه الجبهة الأخيرة تمتد حتى يختفى القطاع الساخن وبذلك يتم رفع جميع الهواء الساخن إلى أعلى ويختفى القطاع الساخن بحلول الهواء البارد محله . ويصحب هذه الظاهرة فى العادة المطر المتواصل فى أوروبا .

وهناك أنواع عديدة من الانخفاضات العرضية الأخرى مثل انخفاضات قبرص الجوية التى يرجع السبب الرئيسى فى تولدها إلى هبوب تيارات باردة حول الانخفاضات العرضية الممتلئة فى شرق البحر المتوسط . وأهم مميزات هذه الانخفاضات تعدد الجبهات الباردة وعدم وجود قطاع ساخن واضح يتبعها ، والمؤلف أول من أطلق عليها هذا الاسم وأحاط عنها اللثام فى بحث مفصل .

والحديث عن تقسيم الرياح بمثل هذا التفصيل إنما يبصرنا بآيات الخالق فى مجال واحد من مجالات البحث والتنقيب عن أسرار هذه الأرض الذى هو موضوع كتابنا هذا فما بال المجالات الأخرى !! .

والحق أن تصريف الرياح إنما يتم وفق نظام محكم ، هو أساس دراسات الطبيعة الجوية . وإتماما لما قدمنا نقول إن هناك أيضا الارتفاعات الجوية وهى مناطق الضغط العالى ، ويصحبها غالبا طقس هادىء جميل . وتكثر فيها ظاهرة هبوط أو تساقط الهواء من أعلى ، ولذا تصفو السماء كما ترتفع درجات الحرارة عموما وخاصة أثناء النهار بالإشعاع الشمسى ، وينشط فيها الإشعاع الحرارى أثناء الليل وتزداد حالات تكون الضباب والندى فى الصباح المبكر .

ويمكن أن تقسم الارتفاعات الجوية عموما إلى ثلاثة أنواع :

الارتفاعات الموسمية . ومن أمثلة ذلك ارتفاع سيبيريا الشتوى ، حيث يرتفع الضغط إلى ١٠٥٠

ملليبار (أو مايعادل نحو ٧٨٠ ملليمتر) وهو لايضمحل إلا فى أواسط الربيع . وكثيرا مايزحف أثناء الشتاء إلى أوروبا وينشر فيها الصقيع حيث قد تصل درجة الحرارة إلى ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر . وهو أيضا قد تزحف أطرافه إلى البلقان وآسيا الصغرى ويعطى نفس الظواهر ثم يسبب إثارة الجوفى الشرق الأوسط عموما ، إذ تولد ألسنة الهواء البارد عند عبورها البحر المتوسط أكثر الانخفاضات الجوية نشاطا ، (هى انخفاضات قبرص الجوية) .

هذا كما أن هنالك الارتفاعات النسبية ، وهى تتواجد بين الانخفاضات وتتحرك عموما بغير انتظام وببطء ، وإذا تحركت سميت « باردة » أما الارتفاعات الجوية الثابتة فهى (دافئة) ذلك لأن حالات الركود وعدم الحركة فيها تجعل ظاهرة هبوط الطبقات العليا أهم عامل لتسخين الهواء تدريجيا بالتضاغط وخاصة فى المركز . ويحدث الهبوط عادة بمعدل ثلث كيلو متر فى اليوم .

وتوجد أيضا الارتفاعات العرضية ، وهى مناطق من الضغط العالى التى تتكون لمدة قصيرة نسبيا ثم تضمحل دون أن ترتبط بالانخفاضات العرضية .

ومن أمثلة ذلك الارتفاع الذى يقع فوق مصر فى الاعتدالين وأغلب فصل الشتاء .

أما الأعاصير الاستوائية فهى تتولد فى المحيطات الساخنة قرب خط الاستواء أو داخل التجاريات ، وهى تسير معها من الشرق إلى الغرب عموما على عكس الانخفاضات العرضية التى تتولد فى مناطق الغربيات السائدة ، وأهم المناطق المشهورة بهذه الأعاصير هى جزر الهند الغربية ، وخليج المكسيك وبحر العرب وبحر الصين وجزائر الفليبين واليابان والمحيط الهندى وشرق جزيرة مدغشقر والمحيط الهادى وشرق أستراليا ويطلق عليها اسم (ولى ولى) ، وتسمى (للتيفون) فى الصين واليابان والهوكين فى الولايات المتحدة ، وقد سبق أن عرفناها باسم النكباء .

ومن أهم الأوصاف الدقيقة التى وردت فى القرآن الكريم خاصة بهذه الأعاصير عندما تجتاح السفن وتدهمها عبر المحيط قوله تعالى :

﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ - النور (٤٠) -

ومن الإعجاز العلمى فى هذه الآية أن العاصفة تخرج منها أمواج مختلفة الارتفاع (أو السعة) والصفات ، يلاحق بعضها بعضا تحت ظلمة السحاب المنعقد فى السماء . ونحن نستطيع من دراسة هذه الأمواج عندما تصل إلى محطاتنا الأرضية الخاصة برصد موج البحر وتحليلها رياضيا أن نحدد مركز العاصفة . وجدير بالذكر أن الرسول (ﷺ) لم يكن قد سافر قط عبر هذه المحيطات حتى يذكر مثل هذا الوصف الدقيق . مما يثبت قطعا أنه من وحى الخالق العظيم .

ويلاحظ أن جميع مناطق هذه الأعاصير تقع إلى الجانب الغربى من المحيطات ، وليس فى الجانب الشرقى منها . وهى تظهر أولا عادة على البحار

وتستمر فى عنفوانها إلى أن تدخل اليابس فتضمحل نوعا ما ، ثم تتحول إلى انخفاضات صغيرة تتلاشى سريعا . وتدور الرياح حول الأعاصير كدورتها حول (الانخفاضات) مع ازدياد هائل فى

السرعة ثم فى تدرج الضغط ، وكثيرا مايبدأ الإعصار بإتساع يزيد على ٨٠ كيلو مترا ثم يزداد إلى أكثر من ٥٠٠ كيلو متر . وفى مركز الإعصار يسود الهدوء وتنكشف السماء ويهطل المطر فى منطقة محدودة هى « عين الإعصار » لايزيد قطرها على نحو ٣٥ كيلو مترا ، وأهم مميزات الأعاصير غزارة الأمطار ، فقد تهطل مئات الملليمترات فى بضع ساعات ، وتلعب الحرارة التى تنطلق بعمليات التكاثف هذه دورا هاما فى نشاط الإعصار :

وهناك نوع من العواصف يقال له (التورنادو) ، وهذا نوع من الأعاصير الشديدة الصغيرة الحجم ولايزيد قطرها عموما على نصف كيلو متر ولكنها تشتهر بالتدمير وذلك لشدة هبوط الضغط الجوى فيها ثم سرعة دوران الرياح من حولها : فقد تصل أحيانا إلى ٥٠٠ كيلو متر فى الساعة ، وأهم مناطقها وادى نهر المسيسبى بأمريكا ، وكثيرا مايصحبها ظهور قمع من السحب يتدلى إلى الأرض . ويستغرق مكثها فى أى مكان قبل تحركها إلى مكان آخر نحو ساعة فقط يحدث خلالها تدمير شامل لكل ماتصادفه أو يعترضها على الأرض .

وهنا نحب أن نشير إلى أن أعاصير البحر عندما تدنو من الشواطىء فقد تحدث طوفانات محلية تغرق الأرض ومن عليها ، خصوصا المناطق المنخفضة .

* فى الهواء ماء على هيئة بخار *

لاتراه الأعين

لعل أول كتاب قرر حقيقة أن السحاب الممطر إنما تثيره الرياح هو القرآن الكريم ، وقد كانت الفكرة السائدة فى الحضارات القديمة أن المطر يأتى من ماء مخزون فى السماء عندما تفتح الآلهة الأبواب والنوافذ !! والآن لندرس قوله تعالى :

١ - ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء ﴾ الروم (٤٨) .

وكذلك قوله تعالى :

٢ - ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ - الأعراف ٥٧ -

يظهر لنا مدى الإعجاز العلمى فى الآيتين ، إذا ماتذكرنا أنه فى العهد الذى نزل فيه القرآن الكريم لم يكن أحد من الناس - ربما إلا قلة نادرة - يعرف أن الهواء يحمل مقادير وفيرة من الماء على هيئة بخار ، وأن هذا البخار هو الذى يكون السحب ، ويعطى المطر عندما تندفع تيارات الهواء إلى أعلى ، وتبرد تحت تأثير الانتشار بتقليل ضغط الواقع عليها بالارتفاع .

ويسمى هذا التبريد علميا باسم التبريد الذاتى (أى منه فيه) ، وهو يفسر المبدأ الذى تعمل به ثلاجات الكهرباء ، وتبلغ قيمة التبريد الذاتى من الهواء الصاعد الذى لايحده التكاثف درجة واحدة سنتجراد لكل ١٠٠ متر ، فإذا ماحدث التكاثف بسبب التبريد ، تهبط قيمة معدل التبريد الذاتى إلى ٦٥,٠ درجة سنتجراد لكل ١٠٠ متر .

والمعروف علميا أن قدرة الهواء على حمل بخار الماء تقل بانخفاض درجة الحرارة ، وباستمرار

التبريد يحدث التشبع ويعود جزء من بخار الماء العالق فى الهواء إلى حالة السيولة (نقط ماء) أو حالة الصلابة (بللورات ثلج) .

ويتم هذا التكاثف عادة على جسيمات خاصة يحملها الهواء تسمى علميا باسم (نوى التكاثف) ، وأغلبها مساحيق دقيقة تذوب فى الماء أو تمتصه ، مثل ملح الطعام وكلورود الكلسيوم وثانى أوكسيد الكبريت ، وتتجمع جزئيات بخار الماء على هذه النوى مكونة نقطا دقيقة جدا لاتلبث أن تنمو بالتصادم والالتصاق مع بعضها البعض .

وفى الثلاجات الكهربائية يعمل المحرك (الموتور) على ضغط نوع معين من الغاز ببطء ويتركه يتمدد فجأة حول صندوق التبريد ، أما فى الجو فإن التمدد إنما يحدث بالصعود إلى أعلى ، ويضطر الهواء إلى الصعود إلى أعلى تحت تأثير عوامل عديدة مثل التجمع من كل الجهات فى صعيد واحد عند سطح الأرض ، ومثل حالات عدم الاستقرار التى يتواجد فيها الهواء البارد الكثيف فوق الهواء الساخن الخفيف ، ومما يعمل على نقص كثافة الهواء إضافة بخار الماء إليه ، فالهواء الرطب أقل وزنا أو كثافة من الهواء الجاف ، الذى فى نفس درجة الحرارة وتحت نفس الضغط .

ومما يدلنا على مبلغ مااستحدثته هذه الآية من جديد فى ميدان الطبيعة الجوية ، نقول إن قدماء المصريين مثلا كانوا يفاخرون الإغريق بأن النيل الخالد الذى يروى مصر ، إنما يفيض من المحيط الأعظم الذى لاينفد ، أما بلاد الإغريق ، فأغلب ماتعتمد على المطر الذى يأتى من ماء مخزون فى السماء ، عندما يفتح الالهة أبواب السماء ، ومامن شك أنه سيأتى يوم ينفد فيه هذا الماء !!

لقد فاتهم ـ وفات غيرهم ـ أن الهواء هو الذى يثير السحب ويعطى المطر ، وأن للماء العذب على الأرض دورة مستمرة ، وأنه يتجدد على الدوام ، تحت تأثير الطاقة الشمسية التى تبخر بعض ماء البحر ، وان ماء المطر ، إنما يعود فى النهاية إلى البحر عن طريق الأنهار والمياه الجوفية والمطر المباشر ، ولقد ذكر القرآن الكريم تلك الحقيقة ، كما ذكر حقيقة أن الهواء يحمل نوى التكاثف اللازمة لتكوين السحب وأستمرار عمليات التكاثف فى إعجاز بليغ أخاذ كما سنبين فيمايلى .

تلقيح الرياح للسحب لتجود بالمطر ،

(نوى التكاثف) ،

دورة الماء مابين الجو والأرض

تحت هذا العنوان تدخل قائمة هامة من أحدث الحقائق العلمية الرائعة ، التى لم يتوصل إليها الإنسان إلا فى عصر النهضة العلمية ، بعد أن اخترع الأجهزة التى يقيس بها عناصر الجو مثل : الضغط الجوى ، ودرجة الحرارة ، ودرجة الرطوبة ، وسرعة الرياح واتجاهها ، الخ . . وبعد أن درست طبيعة السحب الممطرة ، وظهرت فيها المؤلفات العديدة ، نقول بعد كل هذا المجهود العلمى الضخم الذى اشتركت فيه أغلب أمم الأرض ، توصل الإنسان إلى أن عمليات التكاثف داخل السحب ، إنما تحدث على جسيمات صغيرة جدا تحملها الرياح وتعرف باسم (نويات التكاثف) كما ذكرنا . وأهم أنواع هذه

النويات أو النوى ، هى مساحيق ملح الطعام ، وكلورور الكلسيوم التى تتطاير من سطح الأرض والبحر مع تيارات الهواء ، وكذلك ثانى أوكسيد الكبريت الناتج من عمليات الاحتراق . ووظيفة هذه النوى تجميع جزئيات بخار الماء مع بعضها لتكون نقطا صغيرة من الماء أو جسيمات من بللورات الثلج ، والذى يغذى مناطق تولد السحب بهذه النوى ، هى الرياح الصاعدة والمحملة بأكداس منها . وعندما تعجز الرياح لسبب ما عن تلقيح السحب بهذه النوى لتجود بالمطر ، يعمد الناس إلى التلقيح الصناعى باستخدام الطائرات أو المولدات الأرضية ، التى يمكن أن تقذف بالمساحيق الى أعالى الجو . وتعرف هذه العمليات علميا الآن باسم (المطر الصناعى) ، وأهم المواد التى تستخدم هى يودور الفضة ، أو مسحوق ملح الطعام الصخرى . ويستخدم كذلك ثانى أوكسيد الكربون الجاف .

وفى الواقع نجد أن نظرية المطر الصناعى وحتى المطر الطبيعى ، هى أكثر تعقيدا من ذلك ، إذ يستغل فيها حقيقة أن الهواء المشبع بالنسبة لنقط الماء السائل يكون فى حالة فوق التشبع ، بالنسبة لبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، وبذلك تنشط عمليات التكاثف إذا تواجد ثلج جنبا إلى جنب مع نقط الماء البارد ، ويتكون هذا الثلج على نوى التكاثف الصلبة التى على غرار مساحيق ملح الطعام ، أو يودور الفضة أو حتى ثانى أوكسيد الكربون الجاف الذى يمكن أن تلقح به السحابة تلقيحا طبيعيا بواسطة الهواء (ملح الطعام) أو صناعيا بواسطة الطائرات كما قلنا .

وفى الطبيعة يمكن أن تتواجد نقط الماء ، وهى فى حالة السيولة تحت درجات حرارة منخفضة جدا ، قد تصل إلى ٤٠ درجة سنتجراد تحت الصفر ، وعندئذ تسمى نقط الماء فوق المبرد . ويعطى الجدول الآتى ضغط بخار الماء اللازم للتشبع بالنسبة لنقط الماء وبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، لنتبين كيف تكون السحابة المشبعة بالنسبة لنقط الماء فوق المبرد فى حالة من فوق التشبع ، إذا تكون الثلج فيها عن طريق تلقيح السحابة بنوى التكاثف ، وعندما تنمو البللورات الثلجية داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد تزداد سرعات تساقطها نسبيا ، فتتصادم مع غيرها من النقط الصغيرة وتلتحم بها ، وهكذا تنمو النقط سريعا ، وتزداد حجومها ، فتتساقط على هيئة مطر .

أما الآية التى تقرر كل هذا فى إعجاز أخاذ وإيجاز رائع فهى قوله تعالى :

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴾[1] .

وهكذا تربط الآية الشريفة وتوثق العلاقة بين تلقيح الرياح للسحاب بنوى التكاثف وبين نزول المطر . وثمة معنى آخر هو أن الرياح فى حالة صعودها المستمر ، بسبب إرسالها لتتجمع فى صعيد واحد إنما تمد السحاب ، أو تلقحه ببخار الماء اللازم لنزول المطر . وقد حسب المؤلف مقدار الهواء الذى يصعد فى انخفاضات قبرص الجوية ، فوجده نحو ٧٠ ألف كيلو متر مكعب فى الساعة الواحدة فى المتوسط !!!

وأعجب من كل هذا وأروع أن الآية تمضى فتقول : ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ ، أى من الماء

(١) سورة الحجر آية رقم ٢٢

الذى ينزل من السماء على هيئة مطر لايختزنه أحد ، ولايمكن أن يختزن ، بل هو يتجدد دائما ، إشارة إلى الدورة العظمى لماء الأرض مابين سطحها وسمائها أو غلافها الجوى .

فهل بعد ذلك إعجاز علمى ؟ وهل بعد ذلك يقول قائل : إن هذا القرآن من صنع محمد ؟ ويعود القرآن ليذكر الناس بهذه الحقيقة حين يقول فى سورة الطارق ـ ١١ ـ ﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾ أى التى تعود مرتدة إلى الأرض والمراد ماء السحب .

والمطر ، كما هو معروف ، مصدر المياه العذبة على الأرض ، وعليه يتوقف كيان الزراعة التى هى ينبوع الرخاء ومورد الثروة الدائم منذ القدم ، وإذا شحت كمية المطر عن معدلها فى إقليم ما ، أجدبت الأراضى ، وأقحلت المراعى ، ونفقت الماشية ، وقد لاتنصلح حال الإقليم إلا بعد سنوات . وتتوقف أعمال الرى والرعى ، سواء كانت باستخدام المطر المباشر ، أو بالأنهر والترع والقنوات ، على ماتجود به السماء من مطر كل عام .

ومنذ القدم عرف الإنسان البدائى قيمة المطر لحياته وحياة ماشيته ، فكان يعالج شئونه بالسحر والشعوذة . وفى كثير من الشعوب المتحضرة تستخدم الصلاة ، ومنها صلاة الاستسقاء لتجود السماء بالماء ، بعد طول الجفاف واشتداد البلاء .

ولقد ثبت الاستسقاء بالكتاب والسنة ـ قال تعالى :

﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا** ﴾[1] .

وكان الرسول (ﷺ) يستسقى فيدعو الله تعالى ، ومن دعائه :

(اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد من الجهد والجوع والضنك مالا نشكو إلا إليك ، اللهم أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ، وأنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض ، واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا ، فأرسل السماء علينا مدرارا) .

ويوجه القرآن كذلك أنظارنا إلى أن ماء المطر العذب ؛ يحيى الأرض بعد موتها ، ويعطينا مثلا يتجدد أمام أعيننا ليوم البعث الذى يحيى فيه الله الموتى . ومن الآيات التى تؤدى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** ﴾[2] .

وهنا مرة أخرى يربط القرآن الكريم بين إرسال الرياح وإثارة السحب المطيرة ، ولقد حسب المؤلف حجم الهواء ، الذى يتجمع ويصعد إلى أعالى الجو عندما تنساب الرياح حول انخفاض قبرص الجوى ، الذى يسبب أمطار الشتاء فى الشرق الأوسط ، فوجده يعادل نحو ٧٠ ألف كيلو متر مكعب فى الساعة الواحدة كما قدمنا .

وعندما ننظر إلى قوله تعالى :

﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون** ﴾[3] .

---

(١) سورة نوح الأيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة فاطر آية رقم ٩

(٣) سورة الواقعة الأيات من ٦٨ ـ ٧٠.

نجد أن الظروف الطبيعية التي تؤدى إلى تكوين المزن ، (وهو السحاب الممطر) ونزول المطر لايمكن أن يصنعها البشر ، بل حتى لاسبيل إلى التحكم فيها ، ولايزال موضوع المطر الصناعى - او استمطار السحب العابرة - فى مرحلة التجارب التى لم يتم نجاحها بعد . وحتى إذا ماتم نجاحها ، فإنه من اللازم أن توفر الطبيعة الظروف الملائمة للمطر الطبيعى ، حتى يمكن استمطار السماء صناعيا ، أى أن واجب علماء الطبيعة الجوى لايتعدى قدح الزناد فقط ، بتوليد حالات من فوق التشبع داخل السحب الركامية ، وعلى الأخص داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد ، بقذف بعض المواد التى تصلح لتكون نوى تكاثف على هيئة مساحيق أو أبخرة ، مثل ملح الطعام ، أو يودور الفضة ، أو بللورات ثانى أكسيد الكربون ، وتمضى الآية الكريمة فتقول إنه لو شاء الله لجعل ماء المطر ملحا زعانا كماء البحر لايشرب .

وآيات طبيعة السحب متعددة ، منها على سبيل المثال :

١ - ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾[1] .

إن ثورة الطبيعة التى تلازم الجو العاصف من برق ورعد وصواعق ومطر . . كلها تذكرنا بطاعة الله تعالى خوفا وطمعا . خوفا من عذابه وطمعا فى رحمته - والرعد ، رغم جبروته ، إنما يحدث وفق أمره وحسب سننه وتبعا لحكمته .

٢ - ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ﴾[2] .

ونحب أن نضيف هنا أن التيارات الهوائية العليا التى تنساب فى أعالى (التربوسفير) إنما تلعب دورا هاما فى تقلبات الجو على سطح الأرض ، وهذه التيارات لايمكن أن يتحكم فيها البشر بحال من الأحوال ، كما أنه لم يتم التعرف عليها بالتفصيل إلا فى السنين الأخيرة ، التى استخدم فيها الطيران العالى .

ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، تم اكتشاف تيارات هوائية عليا تتدفق بسرعة كبيرة داخل أحزمة معينة ، وأطلق عليها اسم (التيارات العليا النفاثه) وأهم هذه التيارات تياران دافقان يكونان إطارين حول الأرض وينساب الهواء فيهما بسرعة تتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ ميلا فى الساعة الواحدة ، على علو يقارب ارتفاع « التروبوبوز » أحدهما فى المنطقة المعتدلة الشمالية ، والثانى فى الجنوبية ، وحديثا جدا تم التعرف كذلك على التيار النفاث الاستوائى ، الذى يتدفق من الشرق إلى الغرب ، ويلعب دورا هاما فى الأمطار الموسمية ، ومنها أمطار السودان والحبشة التى ينجم عنها فيضان النيل .

٣ - ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ﴾[3] .

والمعروف علميا أن المطر فى أية منطقة على الأرض إنما يصحب هبوب تيارات هوائية معينة على

(١) سورة الرعد الآيتان ١٣ ، ١٤
(٢) سورة الروم الآية رقم ٤٨
(٣) الروم الآية رقم ٤٦

المنطقة . ففى مصر مثلا تقبل الأمطار مع الرياح الشمالية الغربية خلال الشتاء ، وفى السودان تكون الرياح الموسمية الممطرة فى الصيف ، هى الجنوبية الغربية أو الجنوبية عموما . . ويمكن التعرف عليها من خواصها .

٤ ـ ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾[١] ـ ، أما رياح الكتل الهوائية الجافة الساخنة المتربة (الصفراء) فمن أوصافها :

٥ ـ ﴿ **ولئن أرسلنا رِيحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون** ﴾ ـ الروم (٥١) ـ ، فعندما تحمل الرياح الساخنة الجافة الأتربة والرمال يكون لونها مصفرا ، نظرا لأن الجسيمات الصلبة العالقة فيها تعمل على تشتيت أشعة الشمس الصفراء بدرجة كبيرة فيبدو الجو مصفرا علامة الجفاف والجدب والحر .

٦ ـ ﴿ **إنا أرسلنا عليهم حاصبا** ﴾[٢]

والمراد الرياح الشديدة التى تثير الحصى . والمعروف أن الرياح هى التى تثير الرمال والحصى كلما اشتدت وزادت سرعتها ، فتكون عواصف الرمال والأعاصير . وتتوقف درجة التركيز ـ أى عدد الحبيبات لكل سنتيمتر مكعب من الهواء ـ على سرعة الرياح وحجوم الحبيبات المثارة .

ولتيارات الهواء الصاعدة أثرها فى رفع الحصى ونقله عبر مسافات كبيرة ، وتعظم هذه التيارات وتشتد فى حالات عدم الاستقرار الجوى ، أو مرور الجبهات الباردة .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرفناه بينهم** ﴾ أى ولقد صرفنا المطر بين الناس على أوضاع شتى ، فلا تمر ساعة فى ليل ولا نهار إلا كان فيه دليل على آثار قدرتنا ، فننزله على قوم ونحجبه عن آخرين ، فنحن صرفناه بينهم كما صرفنا الليل والنهار ، فالشمس تجرى من عند قوم وتذهب إلى آخرين : ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾[٣] إلى أن الماء يكون جامدا يشبه الحجر ، وسائلا يشبه الزيت وسائر المائعات ، وحينا بخاريا يشبه الهواء ، وهو أيضا غاد ورائح فى الجو وفى الأنهار وفى الغدران وفى أجسام النبات والحيوان والإنسان .

قوله تعالى : ﴿ **ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾

أى صرفناه بينهم ، ليعتبروا ويعرفوا حق النعمة ، فيشكروا ولكن أكثر الناس أبوا إلا جحودا للنعمة وكفرانا بخالقها ، ثم بين منته على رسوله وأنه كلفه الأحمال الثقال من أعباء النبوة ، ليزداد شرفا ويعظم قدرا فقال : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا** ﴾

أى ولو أردنا أن نرسل رسولا إلى أهل كل قرية لفعلنا وخفت عنك أعباء النبوة ، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة ، لتستوجب بصبرك ماأعددناه لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ، فقابل ذلك بشكر النعمة ، وبالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق كما قال : ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾[٤] .

---

(١) الأعراف الآية رقم ٥٧
(٢) القمر آية رقم ٣٤
(٣) سورة النمل آية رقم : ٨٨
(٤) سورة الأعراف آية رقم : ١٥٨

وجاء فى (الصحاح) (بعثت إلى الأحمر والأسود »[١] أى إلى العجم والعرب . والخلاصة ـ إنا عظمناك بهذا الأمر وجعلناك مستقلا بأعبائه ، لتحوز ماادخر لك من عظيم جزائه ، وكبير مثوبته ، فعليك بالمجاهدة والمثابرة ، ولاعليك من تلقيهم الدعوة بالإعراض والمشاكسة .

قوله تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴾

أى فلاتطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم على مذاهبهم وآرائهم وجاهدهم بالشدة. والعنف لا بالملاينة والمداراة لتكسب ودهم ومحبتهم ، وعظهم بما جاء به القرآن من المواعظ والزواجر وذكرهم بأحوال الأمم المكذبة لرسلها ، وذلك منتهى الجهاد الذى لايقادر قدره .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ودوا لوتدهن فيدهنون ﴾[٤] والقول الفصل ماجاء فى قوله تبارك اسمه : ﴿ قل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون ماأعبد ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾[٥] .

الله اكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

والخلاصة ـ إنك مبعوث إلى الناس كافة ، لتنذرهم مابين أيديهم وما خلفهم ، فاجتهد فى دعوتك ، ولاتتوان فيها ، ولاتحفل بوعيدهم فإن الله ناصرك عليهم ومظهر دينك على الدين كله ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾

أى ومن آثار نعمته على خلقه أن خلى البحرين متجاورين متلاصقين وجعلهما لايمتزجان ، ومنع الملح من تغيير عذوبة العذب وإفساده إياه وحجزه عنه بقدرته ، فكأن بينهما حاجزا يمنع أحدهما من إفساد الآخر ، وكأن بينهما ساترا يجعله لايبغى عليه .

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب المساجد/٣ ، والدارمى فى كتاب السير/٢٨ ، وأحمد فى مسنده ١/ ٢٥٠ ، ٣٠١ ، ٤/ ٤١٦ ، ٥/ ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ من هذا يتضح أن قوله فى الصحيحين خطأ .
(٢) سورة التوبة آية رقم ٧٣ وسورة التحريم آية رقم : ٩
(٣) سورة الأحزاب الآيات ١ ـ ٣
(٤) سورة القلم الآيتان ٨ ، ٩
(٥) سورة الكافرون .

والخلاصة ـ أنه تعالى جعل البحرين مختلطين فى مرأى العين ، منفصلين فى التحقيق بقدرته تعالى بحيث لايختلط الملح بالعذب ولا العذب بالملح ولايتغير طعم أحدهما بالآخر ولايفسده .

ونحو الآية قوله فى سورة الرحمن : ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لايبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[1] .

* مبحث يتعلق بالإعجاز العلمى فى القرآن الكريم *

يقول الدكتور/ ابراهيم عوض فى كتابه (مصدر القرآن ـ دراسة فى الإعجاز النفسى) .

وقريب من النبوءات المنتشرة فى القرآن ، والتى لم أذكر هنا سوى بعضها ، ماورد فى القرآن أيضا من آيات تتعلق بمعارف علمية : ـ تاريخية وجغرافية وأحيائية (بيولوجية) وطبية ، وتشريحية ، وكيميائية وطبيعية (فيزيائية) ، وفلكية كان مستحيلا على محمد ، لو لم يكن رسولا مؤيدا بالوحى الإلهى ، ومستحيلا كذلك على أحد فى عصره فى شرق العالم أو غربه أو شماله أو جنوبه ، وبل وفيما بعد عصره بقرون طوال ، أن يحلم بله أن يكون على علم بها . وأقل مايمكن أن يقال بالنسبة إلى هذه الحقيقة هو ماخرج به الدكتور موريس بوكاى الطبيب الفرنسى ، من دراسة الكتب الدينية الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن والمقابلة بينها وبين حقائق العلم الحديث ، إذ قال : « لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمان ، أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لايحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث » ليس هذا فحسب بل يمضى العالم الطبيب الفرنسى قائلا : « وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول ، أى سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لايمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا فى عصرنا . وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة ، ونعنى بها شجرة أنساب المسيح . وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلى إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لايتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض .

أما النتيجة التى وصل إليها الدكتور بوكاى فهى هى الحكم الذى أصدره القرآن على هذه الكتب منذ أربعة عشر قرنا ، ودون أن يكون لدى محمد عليه الصلاة والسلام لا الوقت ولا نصوص الكتابين الأخرين ولاالمقدرة العلمية التى تمكنه من القيام بمثل ماقام به العالم الفرنسى من دراسة . استمع إلى مايقوله الدكتور بوكاى : « إن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التى لايحتملها التصديق وتلك الأخرى

---

(١) سورة الرحمن الآيات : ١٩ ـ ٢١

التى لاتتفق والعلم ، لايبدو لى أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله ولاتقع المسئولية فيها الا على البشر .

ولايستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية ومانصيب الخيال والهوى فى عملية تحريرها ، أو مانصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص ، أو مانصيب التعديلات غير الواعية التى أدخلت على الكتب المقدسة . ثم يعود الدكتور بوكاى إلى الحديث عن دراسته التطبيقية على القرآن الكريم فيقول : « أما الجزء الثالث (يقصد من كتابه) فسيجد فيه القارىء أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان .

كما سيجد القارىء فى ذلك بيانا لما قد جاء به العلم الحديث ، الذى هو فى متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التى ظلت حتى الآن مستغلقة أو غير مفهومة . ولا عجب فى هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدين والعلم توأمان متلازمان . وأنا إذ أستشهد بالدكتور بوكاى ، لاأعنى أن أحدا لم يسبقه إلى مثل هذه الدراسة ، فالعلماء المسلمون يفعلون ذلك منذ عشرات السنين ولكنى قصدت أن أقول إن الدراسة العلمية للقرآن الكريم ، وهى فقط أحد الجوانب التى يمكن أن يدرس منها هذا الكتاب الإلهى ، قد أدت بهذا العالم . إلى الدخول فى دين الإسلام .

ولست أنوى أن أناقش كل الآيات المتعلقة بالعلم فى القرآن المجيد فما أكثر الكتب التى قامت ، كما قلت آنفا ، بهذه المهمة ، وإن غالى بعضها فى الربط بين حقائق العلم الحديث ونظرياته وبعض الآيات ، التى يصعب على الدارس الموضوعى الذى لايغلبه تحمسه لدينه على نفسه أن يرى فيها شيئا قاطعا أو على الأقل واضحا يربطها بالحقائق العلمية الثابتة ، ودعك من بعضهم الذين يرون فى بعض الآيات أشياء لاوجود لها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإنما سأكتفى بمجرد ذكر عدد من الآيات التى بهذا الشكل وسأقف عند بعضها مستأنيا بعض الشىء . اقرأ مثلا هذه الآيات الكريمة ، وراجع بنفسك تفسيرها فى ضوء حقائق العلم الحديث : ﴿ ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن . . ﴾[(١)] .

﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾[(٢)]

﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾[(٣)]

﴿ وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . . ﴾[(٤)] .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[(٥)]

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٢
(٢) سورة الأعراف آية : ٥٧
(٣) سورة النور آية : ٤٣
(٤) سورة النحل آية : ٦٦
(٥) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ ـ ١٤

﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾(١) ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾(٢) ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون ﴾(٣) .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾(٤) .

ولنعد مرة ثانية إلى الدكتور بوكاى ، الذى يقول : « ومن الثابت فعلا أنه فى فترة تنزيل القرآن . . كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود منذ عدة قرون ، كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمى الذى واكبها كان لاحقا لنهاية تنزيل القرآن . إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدنيوية هو الذى يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذى سمعت بعضهم يصوغونه أحيانا والذى يقول إنه إذا كان القرآن فيه دعاوى ذات صفة علمية مثيرة للدهشة ، فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب على عصرهم ، وأن محمدا ﷺ بالتالى قد استلهم دراساتهم . إن من يعرف ولو يسيرا تاريخ الاسلام يعرف أيضا أن عصر الازدهار الثقافى والعلمى فى العالم العربى فى القرون الوسطى لاحق لمحمد ﷺ ، ولن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية . فلا محل لأفكار من هذا النوع ، وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصوغة بشكل بين تماما فى القرآن لم تلق التأييد إلا فى العصر الحديث . من هنا ندرك كيف أن مفسرى القرآن ربما فى ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم ، قد أخطأوا حتما وطيلة قرون ، فى تفسير بعض الآيات التى لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلى معناها الدقيق .

وهنا نصل إلى الآيات التى ذكرت آنفا ، إننى أحب أن أستأنى عندها قليلا ، فقد وجدت فى التفاسير القديمة مايؤكد هذا الذى يقوله الدكتور بوكاى ، ففى تفسير قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾(٥) .

يقول الشريف الرضى : « والعسل عند المحققين من العلماء غير خارج من بطون النحل ، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار وأصناف النبات ، لأنه يسقط كسقوط الندى فى أماكن مخصوصة وعلى أوصاف معلومة ، والنحل تتبع تلك المساقط ، وتعهد تلك المواقع فتنقل العسل بأفواهها إلى كوراتها والمواضع المعدة لها فقال سبحانه ﴿ يخرج من بطونها ﴾ والمراد « من جهة بطونها » وجهة بطونها أفواهها .

وهذا من غوامض هذا البيان وشرائف هذا الكلام

فانظر كيف أن العلماء المحققين فى عصر الشريف الرضى (القرن الخامس الهجرى) يقررون أن

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٠
(٢) سورة الزمر آية ٦
(٣) سورة يس ٣٨ ـ ٤٠
(٤) سورة الطارق الآيات : ٥ ـ ٧
(٥) سورة النحل الآيتان : ٦٨ ، ٦٩

العسل لايخرج من بطون النحل ومن ثم عد هو قوله تعالى :
﴿ يخرج من بطونها شراب .. ﴾ مجازات القرآن التى أدار عليها كتابه الذى اقتبسنا منه النص السابق ، والصواب هو ماقاله القرآن من أن العسل يخرج فعلا من بطون النحل التى تجمع الرحيق ، ويتحول فى معدتها إلى عسل تقوم بافرازه بعد ذلك .

وفى خطأ مشابه يقع الإمام الباقلانى ، إذ يعد قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾[1] نوعا من التعميم فى التعبير ، فقد ظن أن القرآن حينما قال : إن كل الدواب مخلوقة من ماء لم يقصد أنها كلها كذلك بل بعضها فقط ، ولكنه عم القول . فماذا يقول علماء العصر الحديث ، الذين قتلوا هذه المسألة بحثا .

الثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء . واذا مانوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإن أول سؤال يطرح هو : أيحتوى هذا الكوكب على كمية كافية من الماء للحياة عليه ؟

والطريف أن الباقلانى قال ذلك دفاعا عما ظنه الملحدون فى عصره مطعنا فى القرآن الكريم . وهذا نص كلامه « وأما قوله عز وجل : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾

قال الملحدون : وفى هذه الآية ! حالة من وجوه ! أحدها أنه خلق كل دابة من ماء وليس الأمر كذلك ، لأن منها مايخلق من بيض وتراب ونطف .. والجواب أن قوله « كل » لايقتضى استغراق الجنس بل هو صالح للتعميم والتخصيص . ولو ثبت العموم لجاز تخصيصه إذ علمنا أن من الدواب مالم يخلق من ماء . على أن من الناس من يقول : أصل الأشياء كلها أربع : الماء والهواء والنار والأرض وكل دابة مركبة من بلة ورطوبة »

والآيتان السابقتان وتعليق الشريف الرضى والباقلانى عليهما لايحتاجان إلى تعقيب ، اللهم إلا القول بأن هذين العالمين قد أتيا بعد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعدة قرون أحرز المسلمون أثناءها تقدما علميا كبيرا جدا بالقياس إلى معارف العرب بل والعالم كله فى عصر الرسول ، ومع ذلك فالقرآن على صواب ، وهذان العالمان ، وهما يعكسان معارف عصريهما ، هما المخطئان .

ويمكن أن نلحق بهاتين الآيتين قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء .. ﴾[2] .

فقد فسر البيضاوى ، وهو مفسر متأخر نسبيا (عاش فى القرن الثامن الهجرى) ، عبارة « كأنما يصعد فى السماء على النحو التالى : « شبهه (أى شبه الله من يريد أن يضله) مبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول مالايقدر عليه ، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة . ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود . وقيل : معناه : كأنما يتصاعد إلى السماء نبوا عن الحق وتباعدا فى الهرب منه . أما تفسير الآية فى ضوء مكتشفات العلم التجريبى ، فهو أن الذى يضله الله يشعر بنفس ضيق الصدر

١ - سورة النور آية رقم/ ٤٥
٢ - سورة الأنعام آية رقم/ ١٢٥

الذى يحسه الصاعد فى طبقات الجو العليا حيث الهواء مخلخل فلاتجد الرئتان كفايتهما من الهواء والأكسجين . وأنا ، وإن لم أكن متخصصا فى أى فرع من العلوم الطبيعية ، يصعب علىّ أن أوافق الدكتور موريس بوكاى ، الذى يؤكد أن هذه الآية تعبر عن فكرة عادية تماما ، والذى يخالف من يقولون إن فكرة ضيق التنفس كانت مجهولة عند العرب فى عصر الرسول عليه السلام ، لأن وجود مرتفعات عالية تربو على ٣٠٠٠ متر فى شبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطقى فى الآية ، القول بجهل صعوبة التنفس الناشئة عن الارتفاع .

وتنهض مخالفتى للدكتور بوكاى على أساس أن الآية تتحدث عن « التصعد فى السماء » وهو مالم يكن متاحا لأى إنسان فى عصر الرسول عليه السلام (بغض النظر عن حادث المعراج) ولافيما بعده ببضعة عشر قرنا لا « التصعيد فى الجبال » كما يفيد كلامه .

كذلك فإن الرسول عليه السلام ، كما نعرف من سيرته الشريفة ، لم يصعد غير جبلى حراء وثور ، أولهما فى فترة التحنث السابقة على البعثة ، والثانى فى طريقه هو وأبى بكر إلى يثرب . . ولم ترد فى السيرة أية إشارة ، ولو من بعيد ، إلى أى أثر لهذا الصعود على جهازه التنفسى عليه السلام . بل إنى لاأذكر أن أحدا من كتاب السيرة فى العصر الحديث الشديد على تسجيل كل ما يعتريهم أثناء ذلك من تأثرات عضوية أو نفسية . ولم يثبت أن الرسول ﷺ قد زار صنعاء التى يشير إليها الدكتور (بوكاى) بل إنى أستبعد أن يكون سكان مثل هذه المدن العالية فى ذلك العصر ، حتى لو كانوا أحسوا بشىء من هذا ، قد تنبهوا إلى السبب الحقيقى لذلك .

وأحب أن أكرر القول ، كيلا ننسى ، أن القرآن يتحدث عن « التصعد فى السماء » لا « التصعد فى الجبال »

ثم هاهى ذى كتب التفسير القديمة ، لاتجدها حين تبلغ هذه الآية إلا تقول ، إن المقصود هو أن الكافر الذى أغلق قلبه يستحيل عليه الإيمان ، كما يستحيل على أى بشر أن يصعد فى السماء ، وهو مايدل دلالة قاطعة على أن فكرة ضيق التنفس المشار اليها كانت مجهولة لدى هؤلاء المفسرين الذين كانوا بلاشك يعيشون فى ظل حضارة متقدمة أعظم التقدم بالقياس إلى الحياة البدائية التى كان يحياها عرب الجاهلية وعصر المبعث .

وثمة آية أخرى أرانى ، رغم عدم تخصصى كما سلف القول فى أى من العلوم الطبيعية ، مضطرا إلى أن أخالف فى تفسيرها الدكتور بوكاى الذى يكرر كلام المفسرين القدامى . وهذه هى ﴿ **وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا** ﴾ وفى تفسيرها يقول د . بوكاى : « معروفة تلك الظاهرة التى كثيرا ماتشاهد عن عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة ، ويرى البعض أن القرآن يشير إليها لعلاقتها بمصب نهرى دجلة والفرات ، الذين يشكلان بالتقائهما جسرا ، إذا جاز القول ، طوله اكثر من ١٥٠ كم ، هو شط العرب . وفى الخليج ينتج تأثير المد ظاهرة طيبة هى انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضى وذلك يضمن ريا طيبا .

والحقيقة أن هذا التفسير غير مقنع . فمن الناحية اللغوية يصعب على أن أوافق العالم الفرنسي ومفسرينا القدامى ، على أن أداة التعريف فى « البحرين » هنا هى للعهد ، الذى قيل على أساسه إن « البحرين » المذكورين هما دجلة والفرات ، إن الآيات السابقة تتحدث عن الظل (الظلام) والرياح والماء والأنعام والأناسى ، وهى مفاهيم عامة لاتشير إلى ظلام بعينه ، ولارياح بعينها ، ولا ماء معين ، ولا أنعام ، ولا أناسى مخصوصة ، فلم يقال إذن إن « البحرين » هناهما بحران معينان (دجلة والفرات) ؟ إن السياق الذى وردت فيه هذه الكلمة هو سياق عام ، ومن ثم فإن بلاغة الكلام تقتضى أن يكون (البحران) أيضا هما « النهر والبحر » بإطلاق أى أن (الـ) فيهما هى (الـ) الجنس لا العهد ، فهذا من ناحية اللغة والبلاغة ، وفضلا عن ذلك ، فإن ماء النهر مهما توغل بقوة اندفاعه إلى مدى بعيد فى داخل البحر أو المحيط ، يختلط فى النهاية بمائهما ، ومن ثمة كان ظاهر الأمر ، أن النهر يبغى فى البداية على البحر (عندما شق ماءه الملح وأزاحه عن طريقه) ليعود البحر فيبغى فى النهاية عليه (عندما اختلط ماؤه العذب بماء البحر الملح الذى أفقده خاصية العذوبة وأعطاه بدلا منها ملوحته)

فأين البرزخ إذن والحجر المحجور ، أما المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، فإنه يقول فى هامش خصصه للتعليق على هذه الآية ، إنها ربما (تشير إلى نعمة الله على عباده ، بعدم اختلاط الماء الملح المتسرب من البحار فى الصخور القريبة من الشاطىء بالماء العذب المتسرب إليها من البر اختلاطا تاما ، بل إنهما يلتقيان مجرد تلاق : يطفو العذب منها فوق الملح ، كأن بينهما برزخا يمنع بغى أحدهما على الآخر وحجرا محجورا ، أى حاجزا خفيا مستورا لانراه . لكن ثمة نقطة هامة يبدو لى أن كاتبى هذا التعليق ، على رغم جدته وطرافته (بالنسبة لى على الأقل) قد أغفلوها ، إذ إن الماء العذب والماء الملح اللذين يلتقيان فى الشقوق على هذا النحو لايمكن تسميتهما بحرين .

ثم إذا كان الماءان فى هذه الظروف لايلتقيان ، فإنهما فى عرض البحر والمحيط يلتقيان ويتمازجان ويصبحان فى النهاية ماء واحدا ، كما قلنا من قبل ، يبدو لى ، والله أعلم ، أن البرزخ المذكور فى هذه الآية ، هو القوانين التى بمقتضاها بقى كل من الماء العذب والملح ، كل هذه الدهور المتطاولة التى لا يعلم مداها إلا الله ، وسيبقيان إلى أن يرث الله الأرض والسماوات ، فالأنهار تصب فى البحار والمحيطات ، وكان المفروض لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، أن يختلط الماءان اختلاطا دائما ، فلا ينفصلا بعد ذلك أبدا ، ويصبح كل الماء الموجود على سطح الأرض ماء ملحا .

بيد أن التقدير الإلهى ، قد شاء أن يقوم البحر بحمل الماء من البحار والمحيطات ، فتسوقه الرياح ليسقط على الجبال ، وينحدر إلى الأنهار ماء عذبا كما كان وهكذا دواليك ، وهكذا أيضا يبقى الماء العذب والماء الملح ، ويتعايش البحران دون أن يبغى أحدهما على الآخر ، ويقضى عليه ، فهذا هو البرزخ وهذا هو الحجر المحجور فيما أفهم . والله أعلم .

ثم يستطرد الباحث قائلا : ـ

ونأتى الآن إلى آخر آية أحب أن أتريث عندها قليلا ، وهى قوله تعالى : ﴿ ومايستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون

حلية تلبسونها ﴾(١) .

ماأكثر ماقرأت هذه الآية ولكن لم ألتفت إلى ماتنبهت إليه وأفزعنى منذ فترة ليست بالبعيدة ، وهو ماتؤكده الآية من أن الحلى تستخرج من النهر والبحر كليهما ، إذ أن الذى كنت أعرفه حتى ذلك الوقت هو أن اللؤلؤ والمرجان (المذكورين فى آية متشابهة فى سورة « الرحمن ») لايوجدان إلا فى البحار . وقفز السؤال إلى عقلى على الفور مفزعا « أيمكن أن يكون القرآن قد أخطأ ؟ » . إن ثمة آية أخرى متشابهة فى سورة « الرحمن » ولكنها لاتثير آية مشاكل ، فنصها هو :

﴿ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لايبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ ومعناه أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من مجموع البحرين لا من كل منهما ، كما تقول : « إن فى يدى هاتين مائة جنيه ، ويكون المبلغ كله فى اليد الأولى بينما الثانية خلو تماما من أى نقود ، ولاتكون قد عدوت الحقيقة . أما آية سورة « فاطر » فإنها تقول بصريح العبارة ﴿ ومن كل . . وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ ولم يسعفنى ماعندى من تفاسير قديمة فأخذت أقلب نظرى فى أرفف مكتبتى فأجد فيها شفاء نفسى ، إذ يذكر المترجم ـ رحمه الله ـ (فى تعليقه على هذه الآية فى الهامش) من الحلى البحرى اللؤلؤ والمرجان ، ومن الحلى النهرى العقيق وبرادة الذهب وغيرهما ، ثم رجعت بعد ذلك إلى دائرة المعارف البريطانية .
(مادة Rearl)

والمنتخب من تفسير القرآن الكريم « فوجدت أن اللؤلؤ يوجد أيضا فى المياه العذبة . وكأن الكتاب الأخير يرد على حيرتى إذ يقول :

« وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحلى ، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك . أما اللؤلؤ فإنه كما يستخرج من أنواع معينة من البحر ، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار ، فتوجد اللآلىء فى المياه العذبة فى انجلترا واسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان . . الخ ، بالاضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة ، ويدخل فى ذلك ماتحمله المياه العذبة من المعادن العالية

---

(١) سورة فاطر اية رقم ١٢

الصلادة كالماس ، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة . ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا . أما فى سيام وفى سيلان فيوجد الياقوت غالبا فى الرواسب النهرية . ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة ومنتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال وسيبيريا) وهو فلور سيليكات الألمونيوم ويغلب أن يكون أصفر أو بنيا والزيركون CIRON حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس ، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية ، وحتى يقدر القارىء رد فعلى الأولى حق قدره أذكر له أنه حتى بعض المترجمين الأوروبيين فى العصر الحديث ، قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحلى ، وقد تجلى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية ، فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها هكذا :

Yet from bath yoeat drerh jlsh, and take jarth for you atname nts to wear.

فعبارة (fram bath) تصلح لترجمة آية سورة الرحمن لا هذه الآية ، كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو الآتى :

Aus beiden est ihr jrisches Fleirch إلى هنا والترجمة صحيحة ، فهذه العبارة تقابل بالضبط قوله تعالى : ﴿ ومن كل تأكلون لحما طريا ﴾ وإن كان استخدم فى مقابل « طريا » كلمة " Irisch ومعناها الدقيق « طازج » لكن تنبه لترجمته للجزء الآتى الذى يقول فيه :

Umd (aus dem S alzmeer)geurmmt ihr Schmwck um ihm euch anzulegen .

والذى ترجمته : « وتستخرجون (من البحر الملح) حلية تلبسونها . ويرى القارىء أن المترجم قد أضاف من عنده بين قوسين عبارة : « من البحر الملح (aus dem Salzmeer) وهو مايوحى باستبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق ، وغيرهما من أنواع الحلى على ماتقول الآية الكريمة .

(أما ترجمتا سيل وبالمر (الانجليزيتان) وترجمتا كاز يمريسكى وماسون (الفرنسيتان) وكذلك ترجمتا ماكس هنخ ومولانا صدر الدين (الألمانيتان) على سبيل المثال فقد ترجمت كل النص القرآنى كما هو ولكنها لزمت الصمت فلم تعلق بشىء .

ويرى القارىء من هذه الآية بالذات كيف ان القرآن قبل أربعة عشر قرنا ، قد أشار إلى حقيقة يستبعدها واحد مثلى يعيش فى القرن العشرين ، وآخرون مثل المستشرق الانجليزى رودويل ونظيره

الألمانى رودى باريت فكيف عرفها محمد إذن وأداها بهذه البساطة لو كان هو مؤلف القرآن ، وبخاصة أن الأنهار التى ذكر أن اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة ، تستخرج منها تقع فى بلاد سحيقة بالنسبة للجزيرة العربية ، بل إن بعضها كالبرازيل مثلا لم تكتشف إلا فى العصور الحديثة ؟ أخشى ماأخشاه إذا تنبه المستشرقون لأهمية هذه الآية ؟ أن يزعموا أن سيدنا رسول الله - ﷺ - قد قام برحلات إلى هذه البلاد خفية فى الفترات التى كان يدعى فيها لزوجته أنه ذاهب إلى غار حراء للتحنث . أما كيف كان ذلك فليست هذه مشكلتهم .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾
أى خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدله وجعله كامل الخلقه ذكرا وأنثى كما يشاء .
﴿ فجعله نسبا وصهرا ﴾ فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان ربك قديرا ﴾

* لا معبود إلا الله *

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى
ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا
سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾

* معانى المفردات *

الظهير والمظاهر : المعاون فهو يعاون الشيطان على ربه أى على رسوله بالعداوة .

وسبح بحمده : أى ونزهه وصفه بصفات الكمال ويقال كفى بالعلم جمالا : أى حسبك فلا تحتاج معه إلى غيره . والخبير بالشيء : العليم بظاهره وباطنه وبكل مايتصل به . والبروج : منازل السيارات الأثنى عشر المعروفة التى جمعها بعضهم فى قوله .

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ وله الحمل والعقرب، والزهرة ولها الثور والميزان، وعطارد وله الجوزاء والسنبلة، والقمر :وله السرطان، والشمس ولها الأسد، والمشترى وله القوس والحوت، وزحل : وله الجدى والدلو .

وهى فى الأصل القصور العالية فاطلقت عليها على طريق التشبيه

والسراج : الشمس .

خلفه : اى يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بسط سبحانه أدلة التوحيد ، وأرشد إلى مافى الكون من باهر الآيات ، وعظيم المشاهدات ، التى تدل على بديع قدرته ، وجليل حكمته ، أعاد الكرة مرة أخرى وبين شناعة أقوالهم وقبيح أفعالهم ، إذ هم مع كل مايشاهدون لايرعوون عن غيهم ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، فلا يعظمون إلا الأحجار والاوثان ، ومالاينفع فيه إن عبد ومالاضر فيه ان ترك إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان ويناوئون أولياء الرحمن ، وإن تعجب لشيء فاعجب لأمرهم ، فقد بلغ من جهلهم أنهم يضارون من جاء لنفعهم ، وهو الرسول الذى يبشرهم بالخير العميم . إذا هم أطاعوا ربهم ، وينذرهم بالويل والثبور إذا هم عصوه ثم هو على ذلك لايبتغى أجرا .

ثم أمر رسوله بألا يرهب وعيدهم ، ولايخشى بأسهم ، بل يتوكل على ربه ، ويسبح بحمده ، وينزهه عما لايليق به من صفات النقص كالشريك والولد وهو الخبير بأفعال عباده فيجازيهم بما يستحقون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولا يضرهم ﴾ أى ومن قبائح هؤلاء أنهم بعد ظهور الأدلة ، وقيام البراهين ، ونصب الآيات التكوينية ، عبدوا من دون الله آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولا نشورا .

نعم عبدوا مالاينفعهم لو عبدوه ولا يضرهم إذا تركوا عبادته ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[١] .
﴿ قال أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون ﴾[٢] .

وقال سبحانه ﴿ واتل عليهم نبأ ابراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[٣] .
سبحانك ربى :

مافى الوجود سواك رب يعبد ... كلا ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها ... رهبا وكل الكائنات توحد
انت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

سبحانه .
﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز ﴾[٤] .
قوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾

قال العلامة ابن القيم :

هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه ، وأن المؤمن دائما مع الله على نفسه وهواه وشيطانه

(١) سورة مريم الأيتان رقم : ٨١ ، ٨٢
(٢) الصافات الأيتان رقم : ٩٥ ، ٩٦
(٣) سورة الشعراء الأيات : ٦٩ - ٨٢
(٤) سورة فاطر الأيتان : ١٣ - ١٤

وعدو ربه ، وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه ، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه ، يحاربهم ويعاديهم ويبغضهم له سبحانه ، كمايكون خواص الملك معه على حرب أعدائه والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به ، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه .

وعبارات السلف على هذا تدور ، وقد ذكر ابن ابى حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال ليث ومجاهد : يظاهر الشيطان على معصيته الله يعينه عليها . وقال : زيد بن اسلم : ظهيرا أى مواليا .

والمعنى : أنه يوالى عدوه على معصيته والشرك به ، فيكون مع عدوه معينا له على مساخط ربه ، فالمعية الخاصة التى للمؤمن مع ربه وإلهه ، قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وملذاته .

ولهذا صدر الآية بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرهم ﴾ وهذه العبارة هى الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة لهم .

فظاهر أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه ، بخلاف وليه سبحانه ، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه .

وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله .

قوله تعالى : ﴿ وما ارسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾

نعم مبشرا بالجنة ، ونذيرا للعصاة بالنار ، فأنت النبى المجتبى ، والرسول المختار ، الذى زكى الله عقله فقال : ﴿ ماضل صاحبكم وماغوى ﴾ ، وزكى لسانه فقال : ﴿ وماينطق عن الهوى ﴾ وزكى شرعه فقال :
﴿ إن هو الا وحى يوحى ﴾ وزكى معلمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وزكى فؤاده فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد مارأى ﴾ .

وزكى بصره فقال : ﴿ مازاغ الصبر وماطغى ﴾ وزكى رسالته فقال :
﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وزكاه كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

سيدى أبا القاسم يارسول الله

أنت الذى من نورك البدر اكتسى … والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما … بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا … ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك ياعلم الهدى … ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وماعسى … أن يجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله ياعلم الهدى … ماشتاق مشتاق إلى مثواك

لقد خاطبك الله بقوله : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه

وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولاتطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[١] .

وإذا كنت انت المبشر النذير فلاتذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون)

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين وان كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾[٢] .

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ماتبدون وما تكتمون ﴾[٣]

فبشر الذين يعملون الصالحات بالجنة ، وانذر العصاة من عذاب النار ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[٤] .

وكيف يكذبونك ويقفون منك موقف العناد ، وأنت الصادق المعصوم الذى لاتسألهم عن التبليغ أجرا ﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ﴾[٥]

قال تعالى : ﴿ قل ماأسألكم عليه من أجر ﴾[٦] أى أجر اذ النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾

أى لكن من أراد أن يتخذ لنفسه أجرا عند الله ومثوبة وسبيلا إلى الجنة فليفعل ذلك بالانفاق فى مرضات الله والجهاد فى سبيله .

﴿ وانفقوا فى سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾[٧] .

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾[٨] .

قوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده ﴾

أما أنت أيها النبى ، فلا تأسى على القوم الكافرين ، ولا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ـ لن يضروك بشيء ولو اجتمعوا على ذلك ، لأن الله تعالى يعصمك من الناس ، فتوكل على الحى الذى لايموت ، وسبح بحمده ، أى قل سبحان الله وبحمده ونزه ربك عن كل نقص تنزيها مصحوبا بالحمد لنعمته ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾

(١) سورة الأحزاب الآيات : ٤٥ ـ ٤٨
(٢) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ ـ ٣٥
(٣) سورة المائدة آية رقم : ٩٩
(٤) الكهف الآيات : ١ ـ ٦
(٥) سورة الطور آية رقم : ٤٠
(٦) سورة (ص) آية رقم : ٨٦
(٧) سورة البقرة آية رقم : ١٩٥
(٨) سورة البقرة آية رقم : ٢٤٥

فهو الذى يعلم ماتكسب كل نفس ، الخبير بدقائق الأشياء ، العليم بحقائقها ، صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾ .

قال الامام مالك : (الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإنه تعالى كان ولا مكان وهو على ماكان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان .

سبحانه فلا العرش يحمله ، ولا الكرسى يسنده ، بل الكل محمول بقدرته ، مقهور بارادته ، علم ماكان وعلم مايكون وعلم ماسيكون وعلم مالايكون لو كان كيف كان يكون .

خالق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(١)

كيف يكون له شريك أو ولد ، ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ذلكم الله ربكم لاإله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(٢) .

(الرحمن) أى عظيم الرحمة بكم والحدب عليكم ، فلا تعبدوا إلا إياه ، ولا تتوكلوا إلا عليه .

والخلاصة : توكلوا على من لايموت ، وهو رب كل شىء وخالقه ، وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها ومافيها من عوالم ، لايعلم كنهها إلا هو ، وخالق الأرض السبع على ذلك الوضع البديع فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويقضى بالحق .

﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ أى فاسأل عن خلق ماذكر خبيرا به يخبرك بحقيقته ، وهو الله سبحانه ، لأنه لايعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو .

بيان فضيلة التوكل

يقول حجة الاسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه الإحياء عن فضيلة التوكل :

أما من الآيات فقد قال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾(٣)

وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾(٤)

وقال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾(٥) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾(٦) .

وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه ، فمن كان الله

(١) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ - ١٠٤
(٣) سورة المائدة آية : ٢٣
(٤) سورة ابراهيم آية : ١٢
(٥) سورة الطلاق آية : ٣
(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٥٩

تعالى حسبه وكافيه ، ومحبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لايعذب ولايبعد ولايحجب ، وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾(١) فطالب الكفاية من غيره ، والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى : ﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهرلم يكن شيئا مذكورا ﴾(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾(٣) اى عزيز لايذل من استجار به ، ولايضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه ، وحكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾(٤) بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾(٥)

وقال عز وجل : ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون ﴾(٦) .

وقال عز وجل : ﴿ يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد اذنه ﴾(٧) وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار وأما الأخبار : فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود (أريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيأتهم فقيل لى أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء تسعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يارسول الله ؟ قال الذين لايكتوون ولايتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى فيهم فقال : رسول الله ﷺ : اللهم اجعله فيهم فقام آخر فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال ﷺ : سبقك بها عكاشة ﴾(٨)

وقال ﷺ : (لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)(٩)

---

(١) سورة الزمر آية رقم : ٣٦
(٢) سورة الانسان آية : ١
(٣) سورة الأنفال آية : ٤٩
(٤) سورة الأعراف آية/ ١٩٤
(٥) سورة العنكبوت آية رقم : ١٧
(٦) سورة المنافقون آية : ٧
(٧) سورة يونس آية : ٣
(٨) الحديث رواه البخارى فى الرقاق /٥٠ ، وفى الطب/ ١٧ ، ٤٢ ، وفى اللباس/ ١٨ ورواه مسلم فى كتاب الإيمان دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (صحيح مسلم ٣/ ٨٨) ، وأبو عوانه الاسفرائيني (مسند أبى عوانه ١/ ١٤٠ ، ٨٦- ٨٧ ورواه الدارمى فى الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢/ ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢
(١) الحديث رواه أحمد فى المسند وفى الزهد والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه والحاكم فى كتاب الرقائق وقال صحيح وأقره الذهبى .
(المسند ١/ ٣٠ ، ٥٢ الزهد/ ٥٨ ، تحفة الأحوذى ٧/ ٨ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ماجاء فى الزهادة ، فيض القدير ٥/ ٣١١ رقم ٧٤٢٠

وقال ﷺ (من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها)(١)

وقال ﷺ (من سره ان يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه)(٢)

ويروى عن رسول الله ﷺ (أنه كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرنى ربى عز وجل قال عز وجل ﴿ وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾(٣)

وقال ﷺ (لم يتوكل من استرقى واكتوى)

وروى أنه لما قال جبريل لابراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق ألك حاجة قال أما إليك فلا . . وفاء بقوله حسبى الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى ﴿ وابراهيم الذى وفى ﴾

وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ياداود مامن عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا(٤)

وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدغتنى عقرب فأقسمت على أمى لتسترقين فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت ﴾ إلى آخرها فقال ماينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى مقامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولاتنال من الدنيا إلا ماقد كتب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال ابراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان من اين تأكل فقال لى ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الصغير وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ، واسناد الطبرانى مقارب وابن ابى الدنيا وعن طريقه أخرجه البيهقى فى الشعب قال الحافظ العراقى : لم يسمع منه وفيه أبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم من رواية الحسن بن عمران ،واختلف فى سماعه منه/ورواه عنه أيضا الخطيب وابن أبى حاتم فى تفسيره (الدر المنثور ٦/٢٣٣ ، احياء علوم الدين ٤/ ٢٣٩ سعادة الدارين فى الصلاة على سيد الكونين ص ٦٥١

(٢) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (الاحياء ٤/ ٢٣٩)

(٣) الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام ـ قال : الحافظ العراقى : ومحمد بن حمزة ابن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه ا هـ (الاحياء للغزالى بتخريج العراقى ٤/ ٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل) وأخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم فى تفسيره عن ثابت رضى الله عنه وعبد الرازق فى المصنف عن رجل من قريش وأخرجه سعيد بن منصور فى مسنده وابن المنذر فى تفسيره من طريق عثمان عن حمزة بن عبد الله بن سالم (الزهد ص ٤٦ ، سعادة الدارين ص ٦٥١)

(٤) الاحياء للغزالى ٤/ ٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل
وأخرجه أحمد فى الزهد عن وهب قال : يقول الله تبارك وتعالى : إذا توكل على عبدى لوكادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج (الدر المنثور ٦/ ٣٣٤)

من أين يطعمنى .

وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمرنى أن أكون ، فأومأ إلى الشام ، قال هرم : كيف المعيشة ، قال اويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة ، وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا ، وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان ، وجميع أبواب الايمان لاتنتظم إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل ، هو المسمى إيمانا فى أصل اللسان ، إذ الايمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب ، فهو علم ، وإذا قوى سمى يقينا ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى مانبنى عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذى يترجمه قولك : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، والايمان بالقدرة الذى يترجم عنه قولك : له الملك ، والايمان بالجود والحكمة ، الذى يدل عليه قولك : وله الحمد ، فمن قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، تم له الايمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل ، والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ، ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولايتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لانتعرض إلا للقدر ، الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له ، فنقول : للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر ، ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشرتين وله لب ، وللب دهن هو لب اللب ، فالمرتبة الأولى من التوحيد ، هى أن يقول الانسان بلسانه لاإله إلا الله ، وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين ، والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام ، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار ، والرابعة الا يرى فى الوجود إلا واحدا ، وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد لأنه من حيث لايرى إلا واحدا فلايرى نفسه أيضا ، واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد ، كان فانيا عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ، فالأول موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان ، والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ، ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقدته ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله ، تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ، ويقصد بها أيضا أحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن

تحليل هذه العقدة عن قلوب الغوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام ، حتى لاتنحل عقدته ، والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد الا فاعلا واحدا إذا انكشف له الحق ، كما هو عليه ولايرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا ، وقد انكشفت له الحقيقة كما هى عليه لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين إذا لم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد .

فلا يرى الكل من حيث أنه كثير ، بل من حيث انه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب ، وكما أن القشرة العليا من الجوز لاخير فيها ، بل ان أكل فهو مر المذاق ، وان نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وان اتخذ حطبا اطفأ النار وأكثر الدخان ، وان ترك فى البيت ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ، لكنه ينفع مدة فى حفظ القشيرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هى القلب والبدن ، وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف انما يصيب جسم البدن ، وهو القشرة ، وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا ،فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والمشاهدة ، التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾[1] وبقوله عز وجل : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾[2] .

وكما ان اللب نفيس فى نفسه بالاضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لايخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لايشاهد سوى الواحد الحق .

فإن قلت : كيف يتصور الا يشاهد الا واحدا ، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة ، وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا .

فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات ، وأسرار هذا العلم لايجوز أن تسطر فى كتاب ، فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر مايكسر سورة استبعادك ممكن ، وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الانسان كثير ان التفت الى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ،

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥
(٢) سورة الزمر آية رقم : ٢٢

وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ نقول إنه انسان واحد ، فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولايخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما انه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه فى عين الجمع والملتفت إلى الكثرة فى تفرقة فكذلك كل مافى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو بإعتبار واحد من الاعتبارات واحد ، وباعتبارات أخرى سواه كثيرة بعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وأن كان لايطابق الغرض ، ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحدا ، ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وان لم يكن ماآمنت به صفتك ، كما أنك اذا آمنت بالنبوة وان لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك ، وهذه المشاهدة التى لايظهر منها إلا الواحد الحق تارة ، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام .

نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج ، حيث رأى الخواص يدور فى الأسفار ، فقال : فبماذا أنت فقال : أدور فى الأسفار لأصحح حالتى فى التوكل ، وقد كان من المتوكلين ، فقال الحسين : أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد ، فكأن الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فى التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الإجمال .

فإن قلت فلابد لهذا من شرح بمقدار مايفهم كيفية ابتناء التوكل عليه .

فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض فى بيانه ، وليس التوكل أيضا مبينا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث وأما الأول وهو النفاق فواضح

وأما الثانى وهو الاعتقاد فهو موجود فى عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ، ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور فى علم الكلام ، وقد ذكر فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد القدر المهم منه .

وأما الثالث : فهو الذى يبنى عليه التوكل ، إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لايورث حال التوكل ، فلنذكر منه القدر الذى يرتبط التوكل به ، دون تفصيله ، الذى لايحتمله أمثال هذا الكتاب ، وحاصله أن ينكشف لك ان لافاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل/لاشريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره وماسواه مسخرون لااستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا ايضاحا أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به ان يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين :

أحدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات الثانى الالتفات إلى الجمادات

أما الالتفات إلى الجمادات ، فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ؛ وعلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها ، وهذا كله شرك فى

التوحيد وجهل بحقائق الأمور ولذلك قال تعالى :

﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾(١) .

قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ، ومن انكشف له امر العالم كما هو عليه ، علم ان الريح هو الهواء والهواء لايتحرك بنفسه مالم يحركه محرك ، وكذلك محركه وهكذا الى أن ينتهى الى المحرك الأول ، الذى لامحرك له ولا هو متحرك فى نفسه - عز وجل - فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح، يضاهى التفات من أخذ لتجز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لاحكم له فى نفسه وانما هو مسخر فى يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم فى الأرض وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة كتسخير القلم فى يد الكاتب ، بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى : ﴿ ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾(٢) .

فإذا انكشف لك ان جميع مافى السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه ، انصرف عنك الشيطان خائفا ، وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأتاك فى المهلكة الثانية وهى الالتفات الى إختيار الحيوانات فى الافعال الاختيارية ، ويقول كيف ترى الكل من الله ، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك وان شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه ، وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك ، وإن شاء عفى عنك ، فكيف لاتخافه وكيف لا ترجوه ، وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له ايضا نعم ان كنت لاترى القلم لأنه مسخر فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زلت اقدام الأكثرين الا عباد الله المخلصين ، الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين ، فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما نشاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا ، وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد ، فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع ، فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم ، لضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للاسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل ، فوقف فى الطريق على الكاتب ، وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض ، بقدرته التى بها نطق كل شىء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تتكلم بلا حرف ولا صوت ، لايسمعه الذين هم عن السمع معز ولون ، ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لايجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد

(١) العنكبوت آية رقم ٦٥

(٢) سورة الأنفال آية رقم/ ١٧

به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربى ولا عجمى .

فإن قلت فهذه أعجوبة لايقبلها العقل ، فصف لى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ، فاعلم أن لكل ذرة فى السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر ، وذلك مما لاينحصر ولا يتناهى ، فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لانهاية له ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر ﴾[1] الآية . . ثم أنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لؤم بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك ، قد نوجى بخفاياه ، فنادى بسره على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال النبى - ﷺ - (لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)

بل كان يذكر ذلك لهم حين يبكون ولايضحكون ولما نهى عن إفشاء سر القدر ، ولما قال (إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا)

ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان :

أحدهما استحالة افشاء السر .

الثانى خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكن فى المثال الذى كنا فيه وهى حركة القلم نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات ، وان لم تكن هى حروفا وأصواتا ولكن هى ضرورة التفهيم فنقول :

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ، وقد رآه أسود وجهه بالحبر ، مابال وجهك كان أبيض مشرقا ، والآن قد ظهر عليه السواد ، فلم سودت وجهك ، وما السبب فيه فقال الكاغد :

ماانصفتنى فى هذه المقالة ، فأنى ماسودت وجهى بنفسى ، ولكن سل الحبر ، فانه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره ، ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ، فقال : صدقت ، فسأل الحبر عن ذلك فقال :

ماانصفتنى ، فإنى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن الا أبرج منها ، فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد ، واختطفنى من وطنى وأجلانى عن بلادى ، وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لا على ، فقال : صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطانه ، فقال سل اليد والأصابع ، فإنى كنت قصبا نابتا على شط الأنهار ، متنزها بين خضرة الأشجار ، فجاءتنى اليد بسكين فنحت عنى قشرى ، وفرقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى ، وفصلت بين انابيبى ، ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى فى سواد الحبر وحرارته ، وهى تستخدمنى وتمشينى على قمة رأسى .

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٩

ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، فتنح عنى وسل من قهرنى ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه ، وإنما أنا مركب مسخر ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة فهى التى ترددنى وتجول فى نواحى الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ، ولا يتحرك بنفسه ، إذا لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدى الموق تساوينى فى صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بينى وبين القلم ، فسل القدرة عن شأنى ، فإنى مركب أزعجنى من ركبنى ، فقال : صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت : دع لومى ومعاتبتى فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لا ذنب له ، وكيف خفى عليك أمرى ، وكيف ظننت انى ظلمت اليد لما ركبتها ، وقد كنت لها راكبة قبل التحريك ، وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بى أنى ميتة أو معدمة ، لأنى ما كنت أتحرك ولا احرك ، حتى جاءنى موكل أزعجنى وارهقنى إلى ما تراه منى ، فكانت لى قوة على مساعدته ، ولم تكن لى قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الارادة ولا أعرفه الا باسمه وهجومه وصياله ، إذ أزعجنى من غمرة النوم ، وارهقنى إلى ما كان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأيى ، فقال : صدقت ، ثم سأل الارادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة ، حتى حدفتها إلى التحريك ، وأرهقتها اليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ، فقالت : الارادة : لا تعجل على فلعل لنا عذرا ، أو أنت تلوم ، فإنى ما انتهضت بنفسى ولكن انهضت وما انبعثت ، ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر حازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة ، فأشخصتها باضطرار ، فإنى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا ادرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته ، لكنى أدرى انى فى دعة وسكون ، ما لم يرد على هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم ، وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته الزاما ، بل لا يبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى مادام هو فى التردد مع نفسه والتحير فى حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأنى ودع عنى عتابك ، فإنى كما قال القائل :

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا الا تفارقهم فالراحلون هم

فقال : صدقت ، وأقبل على العلم والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إياهم على استنهاض الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة ، فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ، ولكن أشعلت ، وقال القلب : اما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت ، وقال العلم أما أنا فنقش نقشت فى بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى ، فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى ، فسل القلم عنى ؛ لان الخط لا يكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب ، وقال : قد طال تعبى فى هذا الطريق وكثرت منازلى ولا يزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكن

كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا فى الفؤاد ، وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال ، فأما قولك إنى خط ونقش ، وإنما خطنى قلم فلست أفهمه ، فإنى لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر ، ولا سراجا إلا من النار ، وإنى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ، ولا أشاهد من ذلك شيئا ، أسمع جعجعة ولا أرى طحنا ، فقال له القلم : ان صدقت فيما قلت ، فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك فى الطريق التى توجهت اليها كثيرة ، فالصواب لك ان تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق الى المقصد ، فألق سمعك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم فى طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثانى عالم الملكوت ، وهو رائى فاذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله ومنه المهامه والنيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المفرقه ، ولا أدرى كيف تسلم فيها . والثالث عالم الجبروت ، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل ، فى أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ، لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه نهجا ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت ، يشبه السفينة التى هى فى الحركة بين الأرض والماء ، فلاهى فى حد اضطراب الماء ، ولا هى فى حد سكون الارض وثباتها ، وكل من يمشى على الأرض يمشى فى عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة ، كان كمن يمشى فى عالم الجبروت ، فإن انتهى إلى أن يمشى على الماء من غير سفينة ، مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع ، فإن كنت لا تقدر على المشى على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الارض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافى ، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب ، وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء ، اما سمعت قول رسول الله ﷺ فى عيسى عليه السلام : (لو ازداد يقينا لمشى على الهواء) لما قيل له إنه كان يمشى على الماء ، فقال السالك السائل : قد تحيرت فى أمرى واستشعر قلبى خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدرى أطيق قطع هذه المهامة التى وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى ، فإن ظهر لك القلم الذى به أكتب فى لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، اما ترى ان النبى ﷺ فى أول امره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك ، فقال العلم لقد أبعدت النجعة ، أما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت ، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدى ، ولا قلمه الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ، ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان ، بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدى ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ،

ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وغفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا ، فما أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف فى يده وقلمه ولوحه وخطه ، فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ : (إن الله خلق آدم على صورته)[1] الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا ، وإلا فلا تلعب بالتوراة وإن فهمت شبه الصورة الباطنة ، التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار ، فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطو الطريق ، فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى ﴿ إنى أنا ربك ﴾[2] فلما سمع السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه ، وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته ، فاصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة ، وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره ، فانكشف له القلم الإلهى ، فإذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكان له فى كل قلب رأس ولا رأس له ، فقضى منه العجب ، وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عنى خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم ، فإنى أراه قلما لا كالأقلام ، فعند هذا ودع العلم وشكره ، وقال قد طال مقامى من عندك ، ومرادتى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم ، واسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها القلم ، تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفها الى المقدورات فقال : أوقد نسيت ما رأيت فى عالم الملك والشهادة ، وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد ، قال : لم أنس ذلك ، قال : فجوابى مثل جوابه ، قال : كيف وأنت لا تشبهه ، قال القلم : اما سمعت الله تعالى خلق آدم على صورته ، قال : نعم ، قال : فسل عن شأنى الملقب بقين الملك ، فإنى فى قبضته ، وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الالهى وقلم الأدمى فى معنى التسخير ، وإنما الفرق فى ظاهر الصورة ، فقال : فمن يمين الملك ، فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾[3] قال : نعم ، قال : والاقلام ايضا فى قبضة يمينه ، هو الذى يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، لا يجوز وصف شىء من ذلك ، ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات .

كثيرة عشر عشير وصفه ، والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، يد لا كالأيدى ، وأصبع لا كالأصابع ،

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاستئذان رقم ١ ، ومسلم فى كتاب البر حديث رقم ١١٥ ، وفى كتاب الجنة حديث رقم ٢٨ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٦٣ ، ٥١٩.

(٢) سورة طه الآية رقم : ١٢

(٣) سورة الزمر الآية رقم : ٦٧

فرأى القلم محركا فى قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ، فقال : جوابى مثل ما سمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة ، وهى الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها فى نفسها ، وإنما محركها القدرة لا محالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ما استحضر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين ، فقالت : إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات ، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت وقيل : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فخر صعقا يضطرب فى غشيته ، فلما أفاق ، قال : سبحانك ما أعظم شأنك ، تبت إليك وتوكلت عليك ، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ، ولا أرجو سواك ، ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك واتضرع إليك ، وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك ، واحلل عقدة من لسانى ، لأثنى عليك ، فنودى من وراء الحجاب ، إياك ان تطمع فى الثناء ، وتزيد على سيد الأنبياء ، بل ارجع اليه ، فما آتاك فخذه ، وما نهاك عنه ، فانته عنه ، وما قاله لك فقله ، فإنه ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال (سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) .

من أقوال الرسول ﷺ
فى التوكل واليقين

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهيط ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى ليس معه أحد إذ رفع لى سواد عظيم فظننت انهم أمتى فقيل لى : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الافق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : انظر إلى الافق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل له : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الاسلام فلم يشركوا بالله ـ وذكروا أشياء ـ فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : (ما الذى تخوضون فيه ؟) فاخبروه فقال : (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محض فقال : (ادع الله ان يجعلنى منهم فقال : « أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله ان يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة)[1] . متفق عليه .

« الرهيط » تصغير رهط وهم دون عشرة أنفس : و « الأفق » الناحية والجانب . « سواد عظيم » أى اشخاص كثيرة « لايسترقون » لا يطلبون الرقية من غيرهم . « ولا يتطيرون » أى لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . و « عكاشة » بضم العين وتشديد الكاف صحابى من أصحاب الرسول ﷺ .

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٥٠ ، وفى الطب / ١٧ ، ٤٢ ، وفى اللباس / ١٨ ، ومسلم فى كتاب الايمان ـ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (صحيح مسلم ٣ / ٨٨) ، وأبو عوانة الاسفرائينى (مسند أبى عوانه ١ / ١٤٠ ، ٨٦ ـ ٨٧) ، والدارمى فى كتاب الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢ / ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا ان رسول الله ﷺ كان يقول (اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت : اللهم أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت ان تضلنى أنت الحى الذى لا تموت والجن والانس يموتون)[١] . متفق عليه « لك اسلمت » استسلمت لحكمك وامرك . « وأنبت » رجعت إلى عبادتك ، والاقبال على ما يقرب منك « وبك خاصمت » اعداء الدين .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ايضا قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى فى النار ؟ وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) (رواه البخارى) .

وفى رواية للبخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار : حسبى الله ونعم الوكيل ﴾[٢] .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير »[٣] رواه مسلم

قيل معناه متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة .

وعن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا آتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ : معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافنى ؟ قال : لا ، فقال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله .

وفى رواية لأبى بكر الاسماعيلى فى صحيحه ـ فقال من يمنعك منى ؟

قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ وسلم السيف فقال من يمنعك منى ؟ فقال كن خير آخذ فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال لا ولكنى أعاهدك الا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فأتى أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس)[٤] متفق عليه

وعن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[٥] رواه الترمذى وقال حديث حسن معناه

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم / ١ ، وفى كتاب الدعوات رقم / ٩ ، وفى كتاب التوحيد رقم ٨ ، ٢٤ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١١٩ ، وفى كتاب الذكر حديث رقم ٦٨ ، وابو داود فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، والترمذى فى أبواب الدعوات رقم / ٢٩ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم / ٩ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم / ١٨٠ والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٦٩ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب القرآن رقم / ٣٤ ، وأحمد فى مسنده ١ / ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣٥٨ .

(٢) راجع فتح البارى ٩ / ٢٩٧ كتاب التفسير (سورة ال عمران) باب قوله : الذين قال لهم الناس ... الخ .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة / ٢٧ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٣٣١ .

(٤) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٣١١ ، وأحمد فى مسنده ٣ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٩٠ (وليس متفقا عليه كما ذكر)

(٥) الحديث رواه أحمد فى مسنده ١ / ٣٠ ، ٥٢ ، وفى الزهد ص ٥٨ ، والترمذى فى جامعه وقال حسن صحيح (تحفة الأحوذى ٧ / ٨ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ، والنسائى فى سننه ، وابن ماجه والحاكم فى كتاب الرقائق وقال صحيح واقره الذهبى (فيض القدير ٥ / ٣١١ رقم ٧٤٢) .

تذهب أول النهار خماصا : أى ضامرة البطون من الجوع وترجع آخر النهار بطانا : أى ممتلئة البطون .

وعن ابى عمارة البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (يافلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك : وفوضت أمرى إليك والجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت ، فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبت خيرا)(١) متفق عليه وفى رواية فى الصحيحين عن البراء قال : قال لى رسول الله ﷺ : (إذا آتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل وذكر نحو هذا الحديث ثم قال : واجعلهن آخر ما تقول)(٢) .

(أسلمت نفسى) أى جعلتها منقادة لك ، طائعة لحكمك ، راضية بقضائك ، قانعة بقدرك ، والجأت : أى اسندت « ظهرى إليك » إلى حفظك ، رغبة ورهبة إليك ، أى طمعا فى ثوابك وخوفا من عقابك . آمنت بكتابك الذى انزلت : أى القرآن وقوله ﷺ : « على الفطرة أى على الايمان » .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : (نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رءوسنا فقلت : يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : ما ظنك ياأبا بكر باثنين الله ثالثهما)(٣) متفق عليه .

ومعنى (الله ثالثهما) أى بالنصر والمعونة والحفظ ، أيصيبهما ضيم ؟ وعن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ان النبى ﷺ (كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله : اللهم إنى أعوذ بك ان أضل أو أضل أو ازل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على)(٤) .

ومعنى « ان اضل » بفتح أوله وكسر الضاد المعجمة أى أغيب عن معالى الأمور أو أضل « بضم ففتح » أى يضلنى غير . . أو أزل فتح فكسر أى أزل عن الطريق المستقيم أو « أزل » بضم ففتح أى يستولى على من يزلنى عن معالى الأمور إلى سفسافها .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قال : (هذه إذا خرج من بيته : ـ بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم . وفى رواية أبى داود فيقول يعنى الشيطان ـ لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى ؟)(٥) .

---

(١) الحديث فى عمدة القارىء ٢٥ /١٥٦ ـ ١٥٧ كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى أنزله بعلمه ، صحيح مسلم ١٧ /٣٣ ـ وفى فتح البارى ١٧ / ٢٤١ : بلفظ : .اصبت أجرا .

(٢) وفى رواية للبخارى وأبى داود : فإن مت مت على الفطرة واجعلهم آخر ما تقول (فتح البارى ١٣ / ٣٥٥ ـ ٣٥٧ ، عون المعبود ١٣ / ٣٨٩) .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم /٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ٩ ، ١١ وأحمد فى مسنده ١ / ٤ .

(٤) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الأدب رقم ١٠٣ والترمذى فى أبواب الدعوات رقم /٢٨ ، والنسائى فى كتاب الاستعاذة رقم ٣٠ ، ٦٥ ، وابن ماجه فى أبواب الدعاء رقم / ١٨ ، وأحمد فى مسنده ٦ / ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢

(٥) الحديث رواه أبو داود والترمذى وقال بحسن صحيح غريب وابن السنى وعبد الرزاق فى مصنفه .
(عون المعبود ١٣ / ٤٣٧ ـ ٤٣٨ كتاب الأدب ـ باب ما يقول إذا خرج من بيته ، تحفة الاحوذى ٩ / ٣٨٤ أبواب الدعوات ، باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته ، عمل اليوم والليلة ص ٧٥ رقم ١٧٧ باب ما يقول إذا خرج من بيته ، المصنف ٥ / ٣٢ ـ ٣٣ رقم ١٩٨٢٧) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : (كان أخوان على عهد النبى ﷺ وكان أحدهما يأتى النبى ﷺ والآخر يحترف ، فشكا المحترف أخاه للنبى ﷺ فقال : لعلك ترزق به)(١) رواه الترمذى بإسناد صحيح ومعنى « يحترف » أى يكتسب ويتسبب .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾

ومن قبائح هؤلاء الذين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، أنهم كانوا إذا أمروا بالسجود للرحمن ، سألوا متجاهلين ، وما الرحمن نحن لا نعرف إلا رحمن اليمامة ، وهكذا لجوا فى طغيانهم يعمهون ، وفى دينيهم يترددون ، ثم ازدادوا فسوقا وعصيانا ، فقالوا نسجد لما تأمرنا ، قالوها تهكما واستهزاء ويوم القيامة سيعضون على أيديهم ندما ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾(٢)

وقد كان موقف فرعون مشابها لموقفهم ، لما قالوا وما الرحمن ؟ فقد قال فرعون لموسى : وما رب العالمين ؟ وهو يعلم علم اليقين ما رب العالمين ، قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لاظنك يافرعون مثبورا ﴾(٣) .

روى الضحاك أن رسول الله ﷺ وأصحابه سجدوا ، فلما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين ، وقد ورد فى فضل سجود التلاوة ، قوله ﷺ إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار)(٤) رواه احمد ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

(والويل : الهلاك يقصد نفسه : أى ياحزن الشيطان وياهلاكه) .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة : اللهم اكتب لى بها عندك اجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فرأيت النبى ﷺ ، قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد : كما حكى الرجل عن كلام الشجرة)(٥) رواه الترمذى .

وحكم هذا السجود كما بين العلماء : فقد ذهب جمهور العلماء إلى ان سجود التلاوة سنة للقارىء والمستمع ، لما رواه البخارى عن عمر انه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النحل حتى جاء السجدة ، فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال ياأيها الناس

(١) الحديث رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح : صحيح الترمذى بشرح الامام ابن العربى ٩ /٢٠٨ أبواب الزهد ، باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ـ الطبعة الاولى ١٣٥٣ هـ مصطفى البابى الحلبى .

(٢) سورة ن الآية رقم ٤٢ ، ٤٣

(٣) سورة الاسراء آية رقم ١٠١ ، ١٠٢

(٤) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢ /٤٤٣ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠ .

(٥) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفى أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠

إنا لم نؤمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه .

لقد اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة من طهارة واستقبال قبلة وستر عورة .

ومن سجد سجود التلاوة دعا بما شاء ، وقد صح عن رسول الله ﷺ انه كان يقول فى سجوده (سجد وجهى للذى خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين)[1] رواه الخمسة إلا ابن ماجه

وبالنسبة لسجود التلاوة فى الصلاة : يجوز للامام والمنفرد ان يقرأ كل منهما آية السجدة فى الصلاة الجهرية والسرية ، ويسجد متى قرأها روى البخارى ومسلم عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة رضى الله عنه : صلاة العتمة أو قال صلاة العشاء فقرأ : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها فقلت ياأبا هريرة ما هذه السجدة ؟ فقال سجدت فيها خلف أبى القاسم ﷺ فلا أزال أسجدها حتى ألقاه[2] قال النووى : لا يكره قراءة للسجدة عندنا للامام كما لا يكره للمنفرد ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد متى قرأها .

ومواضع السجود فى القرآن الكريم خمسة عشر موضعا فى سورة (الاعراف آية ٢٠٦) ، (الرعد آية ١٥) ، (النحل آية ٤٩) ، (الاسراء آية ١٠٧) ، (مريم آية ٥٨) ، (الحج آية ١٨) ، (الحج آية ٧٧) ، (الفرقان آية ٦٠) ، (النمل آية ٢٥) ، (السجدة آية ١٥) (ص آية ٢٤) ، (فصلت آية ٣٧) ، (النجم آية ٦٢) ، (الانشقاق آية ٢١) ، واسجد واقترب ـ العلق آية ١٩) .

فتأمل حال السعداء من حال الاشقياء ، السعداء إذا امروا بالسجود خروا سجدا وبكيا ، الاشقياء إذا أمروا بالسجود قالوا : ﴿ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

كان سفيان الثورى يقول فى هذه الآية : إلهى زدنى لك خضوعا ، ما زاد عداك نفورا .

ثم يأتى الجواب قاطعا والبرهان ساطعا عما سألوا عنه ، انهم لما قالوا : وما الرحمن ! جاءتهم الاجابة من قبل الرحمن فى قوله تعالى ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .

أى تقدس ربنا الذى جعل فى السماء نجوما كبارا عدها المتقدمون نحو ألف وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديثة أكثر من مائتى ألف ألف ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديدا ، وجعل فيها شمسا متوقدة وقمرا مضيئا .

ثم بين آية أخرى من آيات قدرته وفيها الدليل على وحدانيته فقال سبحانه : ﴿ وهو الذى جعل

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٠١ ، وفى كتاب الجنائز حديث رقم ٧ ، وأبو داود فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، وفى السجود ٧ ، وفى كتاب الجنائز رقم ١٧ ، والترمذى فى أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفى أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، والنسائى فى كتاب التطبيق رقم ٦٧ /٧٠ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠ ، وفى أبواب الجنائز رقم ٦ ، وأحمد فى مسنده ٦/ ٣١ ، ٢١٧ ، ٢٩٧

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأذان رقم١٠٠ ، ١٠١ ، وفى كتاب السجود رقم ١١ ومسلم فى كتاب المساجد حديث رقم ١١٠ .

الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ أى وهو الذى جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، فيكون فى ذلك عظة لمن أراد ان يتعظ باختلافهما ويتذكر آلاء الله فيهما ويتفكر فى صنعه أو أراد ان يشكر نعمة ربه ليجنى ثمار كل منهما ، إذ لو جعل أحدهما دائما لفاتت فوائد الآخر ، ولحصلت السآمة والملل وفتر العزم الذى يثيره دخول وقت الاخر ، إلى نحو أولئك من الحكم التى أحكمها العلى الكبير .

وقد جل جلال الله إذ يقول : **﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾**(١)

وإذ يقول سبحانه : **﴿ يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾**(٢)

ويقول سبحانه : **﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾**(٣)

وفى رحاب هذه الآيات نعيش مع قصة الايمان (للشيخ نديم مفتى طرابلس ولبنان الشمالى)

فقد كتب تحت عنوان (المطويات بيمينه) قال بأسلوب شائق ممتع فيه الروعة والجمال فى صورة سؤال وجواب التلميذ واسمه حيران بن الاضعف يسأل والشيخ وأسمه ابو النور الموزون من علماء سمرقند .

قال الشيخ : ـ والآن ياحيران بأى آيات الله فى مخلوقاته نبدأ ؟

حيران : الخيار لك يامولاى ، فمخلوقات الله فى السماء والأرض أكثر من ان تحصى ، فهل إلى ذكرها كلها من سبيل ؟

الشيخ : ليس الخيار لى ولكنى سأتبع نهج القرآن الكريم ، وأختار ما اختاره فيه العليم الحكيم . فالقرآن يحض على النظرة الشاملة حين يقول : **﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾**(٤) ونقسم هذه النظرة الشاملة حين يقول **﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾**(٥) ويختار من آياته ، فى الآفاق وفى أنفسنا ، أشياء يخصها بالذكر ، فمن الخير لنا ان نتبع نفس التقسيم والترتيب ، ولكن لا سبيل لنا ، كما قلت ياحيران ، لتفصيل الكلام عن كل شىء من آيات الله ، فلابد ان نحصر الكلام فى نطاق ما خصه القرآن بالذكر ، لنتخذ منه ، كما أراد لنا العليم الحكيم ، منطلقا للنظرة الشاملة الكاملة .

حيران : إذًا نبدأ بآيات الله فى الآفاق

الشيخ : نعم فى الآفاق .

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٢
(٢) سورة النور اية رقم ٤٤
(٣) سورة القصص الآيات : ٧١ ـ ٧٣
(٤) سورة الاعراف آية رقم : ١٨٥
(٥) سورة فصلت آية رقم : ٥٣

حيران : ونبدأ بالسماء

الشيخ : نعم نبدأ بالسماء ياحيران لنرى ، على ضوء القرآن والعلم ، ما هو حظ المصادفة فى هذا الخلق العظيم .

يقول الخلاق العظيم فى كتابه الكريم : ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾[2] .

- ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾[3]

- ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾[4]

- ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾[5]

- ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾[6] .

- ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾[7]

- ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾[8]

- ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾[9]

- ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[10]

- ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾[11]

فتعال ياحيران ننظر كما أمر الله سبحانه ، وعلى ضوء العلم ، إلى ما فى هذه السماء من شىء مخلوق بلا تفاوت ، وبنيان مشيد بلا عمد ، وسقف محفوظ بلا فطور ، وسمك مرفوع بلا فروج ، وإلى ما هى عليه هذه السماء من سعة تستحق ان يقول عنها خالقها بكل جبروت الألوهية : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ وإلى ما فى بنائها من نجوم لا تعد ولا تحصى ، وما لهذه النجوم من (مواقع) تستحق ان تكون محلا للقسم العظيم يقسمه الخلاق العظيم بماذا أحدثك عن سعة السماء ياحيران . . ؟ ان السعة التى عرفها العلم اليوم من السماء لم تكن تخطر على قلب بشر فى العصر الذى نزل فيه القرآن .

أنت تعلم ان الضوء يقطع فى الثانية ١٨٦ ألف ميل (أو ٣٠٠ ألف كيلو متر) أى أنه يقطع فى الدقيقة (١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل) وفى السنة الواحدة من سنينا يقطع (ستة ملايين مليون ميل أو ستة آلاف مليار ميل تقريبا) بهذه المسافة هى التى اصطلحوا على تسميتها (السنة الضوئية) ليعبروا بها

(١) سورة الذاريات آية رقم ٤٧
(٢) سورة الاعراف آية رقم ١٨٥
(٣) سورة ق اية رقم ٦
(٤) سورة الرعد آية رقم ٢
(٥) سورة الانبياء آية رقم ٣٢
(٦) سورة الملك آية رقم ٣
(٧) سورة النازعات آية رقم ٢٧ ، ٢٨
(٨) سورة فاطر آية رقم ٤١
(٩) سورة الفرقان آية رقم ٦١
(١٠) سورة يس الآيات من رقم ٣٨ - ٤٠
(١١) سورة الواقعة الآيتان ٧٥ ، ٧٦

عن أبعاد السماء الهائلة ؟ فمتى قيل لنا إن نجما يبعد عنا سنة ضوئية فهمنا انه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل .

فالقمر ، ياحيران ، وهو اقرب الاجرام السماوية إلى الأرض ، يصل نوره إلينا فى أقل من ثانيتين ؛ لأن بعده عن الأرض ٢٤٠ ألف ميل تقريبا اما الشمس فيصل نورها إلينا فى نحو ٨ دقائق لان بعدها عن الأرض ٩٣ مليون ميل تقريبا . فهل تدرى ياحيران كم يبعد عنا أقرب نجم الينا بعد الشمس ؟

حيران : اذكر انى تعلمت فى المدرسة ان نور الشمس يصل إلينا فى ٨ دقائق ولا أذكر ما قيل لنا عن القمر والنجوم .

الشيخ : ان اقرب نجم إلى الارض يبعد عنها أربع سنوات ضوئية تقريبا ، ومعنى ذلك انه يبعد عنا ٢٣ مليون مليون ميل تقريبًا .

حيران : هذا شىء هائل .

الشيخ : هذا شىء تافه ياحيران ، فوراء ذلك (النسر الطائر) الذى يبعد عنا ١٤ سنة ضوئية ، (والنسر الواقع) الذى يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية ، و (السمال الرامح) الذى يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أى (٢٩٤ مليون مليون ميل) تقريبا .

حيران حقا إن ذاك شىء تافه ، فهذا هو الهائل ـ الشيخ ـ وهذا ايضا تافه ياحيران ، فوراء ذلك نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية ، ووراء مجراتنا هذه سدم منها سديم (المرآة المسلسلة) الذى يبعد عنا مليون سنة ضوئية ، ووراءه من السدم ما هو أبعد فى تقدير العلماء . فهل يكفيك هذا ياحيران لتدرك معنى ذلك التوكيد المضاعف الذى عبر به الخلاق العظيم عن سعة السماء بقوله : **﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾** .

حيران : سبحان الخلاق العظيم .. سبحانه .

الشيخ : هذا فى سعة السماء ، أما عدد النجوم فماذا أحدثك ؟ إنهم فى الماضى كانوا يعدون النجوم بالألوف ، ثم صاروا يعدونها بالملايين ، ثم صاروا يعدونها الى مليارين ـ اما اليوم فإنهم يقدرون عدد النجوم فى المجرة التى نحن من عالمها بثلاثين مليارا .

حيران : ثلاثون مليارا فى مجرتنا وحدها .

الشيخ : نعم ثلاثون مليارا فى مجرتنا هذه التى تسمى عندنا (درب التبان) وتسمى عند الافرنج (الدرب اللبنية) . وهذه المجرة ، التى يقع نظامنا الشمسى كله فى طرفها ، يوجد وراءها عالم السدم .

ومن جملته سديم المرآة المسلسلة بل عوالم السدم التى رأوا منها حتى اليوم بآلات التصوير (٥٠٠) ألف سديم ، ثم قالوا لو تقدمت هذه الآلات وازدادت اتقانا ، لرأينا أكثر من مليون سديم .

حيران : ياللهول . سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ : وعن مواقع النجوم بماذا أحدثك ياحيران . . . ؟ لقد رأى العلماء ان لهذه النجوم مواقع

لا تتبدل ولا تتغير ، فظنوها ثابتة ، وسموها (الثوابت) ، ومنها شمسنا . . وما هى بثوابت كما حقق العلماء فى هذا العصر ، بل كلها تدور وتجرى ، لمستقر لها فى مجريين مختلفين ، متداخل أحدهما فى الآخرة ، كأنها فوجان من النحل مختلطان .

، ولكن هذا الجرى يتم ويستمر فى مواقع ومدارات لا تتبدل ولا تتغير بنسبة بعضها إلى بعض على كر الدهور بذلك النظام العجيب الذى كان محل القسم العظيم .

حيران : والشمس تجرى معها أيضا ؟

الشيخ : كيف لا والشمس نجم من جملة نجوم هذه المجرة ، إنها تجرى مثلها ومعها أيضا ساحبة وراءها موكبها من السيارات ومن جملتها الأرض .

حيران : فرج الله عنك يامولاى كما فرجت عنى . فقد كان العلم يؤكد ان النجوم ثوابت ، وان الشمس ثابتة ، وكنت أجادل مشايخى فى معنى قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾ .

الشيخ : ألم تتعلم ياحيران ، من كل ما قررته لك ، ان حقائق العلم لا يمكن ان تتنافى مع حقائق الدين الحق . ان النجوم كلها تدور وتجرى ، والشمس معها تدور وتجرى إنهم عرفوا من قبل ، أنها تدور على محورها مرة فى مدة ٢٦ يوما ، ولكنهم كان يحسبونها ثابتة لا تنتقل ولا تجرى ، أما اليوم فقد ثبت لهم ثبوتا لا ريب فيه ، أنها تجرى ، وان النظام الشمسى كله يجرى فى السماء ، كما تجرى كل النجوم فى مجرتنا وفيها وراءها جريا عجيبا لمستقر لها ، كما قال القرآن . ومن مواقع النجوم عرف العلم ان لها اقدارا ثابتة .
مقدرة بحسب نورها وعددها ! عدوا منها فى الماضى البعيد ستة اقدار ووقفوا ، ثم مازال العلم يكشف الجديد ، حتى وصلوا إلى القدر العشرين ثم إلى القدر الحادى والعشرين . والعجيب فى هذه الاقدار انها تسير مترقية أو متدينة بحسب عدد النجوم تارة ، وبحسب قوة نورها أخرى ، فى نسب مدهشة تطرد فى عدد النجوم ، فتزداد تباعا من قدر إلى قدر ، فيكون عدد نجوم القدر الاول ١٤ نجما ، ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ فى القدر العشرين ٧٦ مليون نجم ، ويبلغ فى القدر الحادى والعشرين مليارى نجم . اما فى قوة النور ، فالعجيب ان قوة النور فى تلك الاقدار ، تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر ، فكلما زاد عدد نجوم القدر زادت قوة نور نجومه ، واما بعد القدر العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور فى التضاؤل .

وترى مثل هذا التناسب بين الأبعاد فى عالم الشمس . فأنت تعلم أن فى المجموعة الشمسية ثمانية كواكب غير منيرة تدور حول الشمس : أصغرها عطارد ثم المريخ ثم الزهرة ، فالأرض فأورانوس فنبتون فزحل فالمشترى ، ثم بلوتو الذى كشفوه منذ ثلاثين سنة (وهو كوكب شاذ فى صغر حجمه وفى بعده عن الشمس فلا يصلح أن يكون سببا قاطعا لإبطال النسبة العجيبة التى سأذكرها لك عن بعد الكواكب من الشمس) . هذا فى ترتيب أحجامها ، وأما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتى على ترتيب آخر : فأقربها عطارد الذى يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، ثم الزهره

ومتوسط بعدها ٦٧ مليونا ، فالأرض ومتوسط بعدها ٩٣ مليونا ، فالمريخ وبعده ١٤٢ مليونا ، فالمشترى وبعده ٤٨٤ مليونا ، فزحل وبعده ٨٨٧ مليونا فأورانوس وبعده ١٧٨٢ مليونا ، ونبتون ومتوسط بعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليونا من الأميال .

وما ذكرت هذه الأحجام والأبعاد لأعرفك بشيء أنت تعرفه ، أو تستطيع أن تعثر عليه فى أبسط كتب الفلك ، وإنما ذكرتها لأعرفك بما تنطوى عليه هذه الأبعاد من نسب مقدرة تدهش العقول : فقد كشف العلماء ان أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق (٩) منازل : أولها (الصفر) ثم نليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد (٣) ثم تتدرج متضاعفة هكذا : (٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ - ١٩٢ - ٣٨٤) .

فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد (٤) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بعد السيارة ، التى فى منزلة العدد ، عن الشمس . أى أنه بإضافة (٤) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : (٤ - ٧ - ١٠ - ١٦ - ٢٨ - ٥٢ - ١٠٠ - ١٩٦ - ٣٨٨) . فإذا أخذنا اعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين ، يظهر لنا بعد السيارة التى هى فى منزلة ذلك العدد عن الشمس . فعطارد مثلا يبلغ متوسط بعده عن الشمس (٣٦) مليون ميل كما سبق القول ، وبما ان منزلته فى البعد هى الاولى ، فيكون رقمها (٤) فإذا ضربنا ٤ × ٩ ملايين يكون حاصل الضرب (٣٦) مليون ميل . وهكذا تسير النسبة فى بعد كل سيارة عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة .

ولكنهم حاروا كيف تكون المنازل التى اكتشفوها فى تفاوت الأبعاد تسع منازل فى حين ان الكواكب المعروفة ثمانية . فقد وجدوا أن منزلة العدد (٢٨) ليس فيها كوكب ، بل يأتى ، بعد المريخ صاحب العدد (١٦) ، كوكب المشترى الذى هو صاحب العدد (٥٢) . فما هو السر فى هذا الفراغ ؟ إما أن تكون النسبة التى اكتشفوها غير مطردة ، وإما أن يكون هنالك كوكب غير منظور فى مرتبة العدد (٢٨) على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس ، أى بين المريخ والمشترى .

ومن عجائب النظام الباهر انهم وجدوا اخيرا فى هذا الفراغ الشيء الذى قدروا انه لابد من وجوده . ولكنهم لم يجدوه كوكبا كبيرا بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها فى الفراغ المذكور الذى بين المريخ والمشترى ، أى فى نفس المنزلة التى حسبوها من قبل فارغة فهل هذا التناسب فى مواقع النجوم وأقدارها ، ومواقع الكواكب وأبعادها ، كله أثر من أثار المصادفة العمياء ياحيران ؟

حيران : زدنى يامولاى من هذه العجائب زدنى .

الشيخ : ماذا أزيدك ، خذ لك كتابا من كتب الفلك واقرأه تزدد إيمانا وخشوعا ياحيران . بماذا أحدثك ؟ أأحدثك عن أحجام النجوم والشموس التى تبهر العقول ؟ أأحدثك عن الأضواء التى تبهر الأبصار . . . . ؟ وما قولى تبهر الأبصار كأنى احدثك عن شمسنا .

حيران : إذن فهناك نجوم أبهر نورا من شمسنا وأكبر .

الشيخ : وما هى شمسنا هذه ياحيران فى نورها وحجمها بالنسبة للنجوم الكبرى ؟ ان نور شمسنا يبلغ بتقدير العلماء (ثلاثة آلاف مليون مليون مليون شمعه) ، ولكن ما قولك إذا عرفت

أن نور النجم المسمى (الشعرى اليمانية) أقوى من نور شمسنا بـ ٢٦ مرة . . . وإن هنالك ، فى النجوم البعيدة ، شموسا نورها أقوى من نور شمسنا بمائة مرة . . . .

حيران ـ ياللهول !

الشيخ : وما قولك إذا عرفت ان العلم اكتشف اليوم أن هنالك نجوما نورها أقوى من نور شمسنا بـ ٥٠٠ ألف مرة . . . ؟

حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : الهول الهائل فى أحجام النجوم الكبرى وأوزانها ياحيران .

فحجم أرضنا هو أكثر من مليون مليون كيلو متر مكعب ، والشمس فى حجمها أكبر من أرضنا (بمليون و ٣٠٠ ألف مرة) . لأن متوسط قطر الأرض هو (١٢٧٥٦) كيلو مترا فى حين أن متوسط قطر الشمس هو : (مليون و ٣٩٠ ألف) كيلو متر . فتكون نسبة قطر الأرض إلى قطر الشمس كنسبة (واحد إلى ١٠٩) . ومن المعلوم أن أحجام الكرات تتناسب وكعوب اقطارها . فيكون حجم الشمس (١٠٩مكعبة) أى (مليون و ٣٠٠ ألف مرة) أكثر من حجم الأرض .

وأرضنا هذه وزنها (خمسة آلاف مليون مليون مليون) طن . أما الشمس فلا استطيع ان أقول لك كم وزنها ، ولكن أقول لك ان كتلة الشمس (masse) أى وزنها أكبر من كتلة الأرض بمقدار (٣٣٢ ألف) مرة فاضرب وزن الأرض بـ (٣٣٢ ألف مرة) وانظر هل تستطيع ان تقرأ حاصل الضرب ؟

والآن بعد أن عرفت حجم الشمس وقطرها ووزنها بالنسبة للأرض فإنى مخبرك ان قطر النجم المسمى (منكب الجوزاء) هو أطول بـ ٤٦٠ مرة من قطر الشمس فيكون حجمه إذن أعظم من حجم الشمس (بمائة مليون مرة) تقريبا .

حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : وهذا أيضا ضئيل وتافه بالنسبة إلى حجم (سديم المرآة المسلسلة) الذى يضرب العلماء مثلا ، ليعرفوك بالفرق العظيم بين حجمه وحجم الشمس ، فيقولون لك : (هذه الهباءة من الغبار التى تراها فى شعاع الشمس النازل من الكوة إلى أرض غرفتك كم هو حجمها ووزنها تلك الهباءة ، بالقياس إلى حجم الأرض ؟ هكذا حجم شمسنا ووزنها بالقياس الى سديم المرآة المسلسلة ، وحق لهم ان يضربوا هذا المثل ، فان كتلة سديم المرآة المسلسلة ، أى وزنها يفوق قدر كتلة الشمس بنحو (ألف مليون مرة) . أما حجمه ياحيران فأعظم بكثير . . فلكى تعرف ما هو حجم سديم المرآة المسلسلة بالنسبة إلى حجم الشمس ، يجب أن تعرف مقدار قطره بالنسبة لقطر الشمس الذى سبق معك ان طوله مليون و ٣٩٠ ألف كيلو متر ، فهل تدرى كم هو طول قطر سديم المرآة المسلسلة ؟ إنه يبلغ نحو ٣٠ ألف سنه نورية . . أى أن حجم هذا السديم يبلغ قدر حجم الشمس (مليون مليون مليون مليون مليون مرة (أو الف مليار مليار مليار مرة .)

حيران : ياللهول الهائل . . سبحان الله العظيم . . . كيف تقف هذه الأحجام والأوزان الهائلة

فى الفضاء بهذا التوازن العجيب ؟

الشيخ : يجيبك القرآن عن هذا فيقول لك : ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها** ﴾ ويقول لك : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ .

أما العلم فيقول إن هذا الامساك يحصل بقوة الجاذبية ، التى شاهد العلماء آثارها ، وأحصوا أطوارها ، ومسوا سطوحها ولم يسبروا أغوارها ، وعرفوا قوانينها ونواميسها ولم يعرفوا بعد اسرارها . . ولعمرى انه الحق ما قالوا . فالجاذبية حق ، وقوانينها المحسوبة المتزنة المتناسبة المحكمة الدقيقة حق . ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم اثرا من آثار المصادفة العمياء ياحيران . . . ؟

﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾[1] .

عباد الرحمن

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾
وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ
عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ
يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ
ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ
ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ
إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ

(١) سورة الزمر الآية رقم ٦٧

رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)

معانى المفردات

الهون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون فى سكينة ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ،
الجاهلون : أى السفهاء
سلاما : أى سلام توديع ومتاركة لاسلام تحية كقول إبراهيم لأبيه : « سلام عليك »
يبيتون : أى يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا كما يقال بات فلان قلقا .
غراما : أى هلاكا لازما ، قال الأعشى

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالى

الاسراف : ـ مجاوزة الحد فى النفقة بالنظر لنظرائه فى المال .
التقتير : التضييق والشح
قواما : أى وسطا عدلا

لا يدعون : أى لا يشركون
الآثام : الاثم والمراد جزاؤه
مهانا : أى ذليلا مستحقرا
لا يشهدون الزور : أى لا يقيمون الشهادة الكاذبة والمراد أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم .
واللغو ما ينبغى أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه .
كراما : أى مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه
الخرور : السقوط على غير نظام وترتيب .
قرة العين : يراد بها الفرح والسرور .
الامام : يستعمل للمفرد والجمع والمراد الثانى أى أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين .
الغرفة : كل بناء عال مرتفع ويراد بها الدرجات الرفيعة .
ما يعبأ بكم : أى لا يعقد بكم .
دعاؤكم : أى عبادتكم .
لزاما : أى لازما يحيق بكم حتى يكبكم فى النار .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وصف الكافرين بالاعراض عن عبادته والنفور من طاعته والسجود له ـ عز اسمه ـ ذكر هنا أوصاف خلص عباده المؤمنين وبين ما لهم من فاضل الصفات ، وكامل الاخلاق ، التى لأجلها استحقوا

جزيل الثواب من ربهم ، وأكرم لأجلها مثواهم ، وقد عد من ذلك تسع صفات مما تشرئب إليها أعناق العاملين ، وتتطلع إليها نفوس الصالحين الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال ، وأتوا به من جليل الأعمال.

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ .

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾ أى بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كقوله تعالى : ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعا ورياء ، فقد كان سيد ولد ادم ﷺ إذا مشى كأنما من صبب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شابا يمشى رويدًا ، فقال ما بالك أأنت مريض ؟ قال لا ياأمير المؤمنين فعلاه بالدرة وامره ان يمشى بقوة،وإنما بالمراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله ﷺ (إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما ادركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا) .

وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصرى فى قوله (وعباد الرحمن) قال : إن المؤمنين قوم ذلل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم والله لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالأخرة .

قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم فى نفوسهم بشىء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو مشرب ، فقد قل علمه وحضر عذابه .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ أى إذا سفه عليهم الجهال بالقول السىء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه** ﴾ .

وروى الامام أحمد بسنده عن النعمان بن مقرن المزنى قال : قال رسول الله ﷺ وسب رجل رجلا عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله ﷺ : (أما إن ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به وإذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به)[1] .

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٥ / ٤٤٥

وقال مجاهد (قالوا سلاما) يعنى قالوا سدادا ، وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفا من القول ، وقال الحسن البصرى ، قال سلام عليكم ، إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل ، فقال تعالى : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ أى فى طاعته وعبادته ،كما قال تعالى : ﴿ كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾(١) وقوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾(٣) .

فضل قيام الليل

عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة:عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى .

وابن ماجه وقال : (فيصبح نشيطا طيب النفس ، قد أصاب خيرا ، وإن لم يفعل أصبح كسلا خبيث النفس لم يصب خيرا)(٤) رواه ابن خزيمة فى صحيحه ونحوه .

وزاد فى آخره : فحلوا عقد الشيطان ولو بركعتين .

المعنى :ـ

[قافية] الرأس : مؤخره ومنه سمى آخر بيت الشعر قافية .

يعقد : أى يأتى بأشياء حقيقية وينويها ويثبتها ويسحر عليها ، كى تمنع الانسان من القيام من نومه ، ليعبد ربه ، كما يعقد الساحر من سحره . قال العينى واكثر ما يفعله النساء : تأخذ إحداهن الخيط فتعقد منه عقدا وتتكلم عليها بالكلمات ، فيتأثر المسحور عند ذلك ، كما أخبر الله تعالى فى كتابنا الكريم : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾(٥) فالذى خذل يعمل فيه ، والذى وفق يصرف عنه ، والدليل على كونه على الحقيقة ما رواه ابن ماجه ومحمد بن نصر من طريق صالح عن أبى هريرة مرفوعا (على قافية رأس احدكم حبل فيه ثلاث عقد)(٦) إلى أن قال بعضهم : هو على المجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم بفعل الساحر بالمسحور ، وقيل : هو من عقد القلب وتصميمه ، فكأنه يوسوس بأن

(١) الذاريات الآية رقم : ١٧ ، ١٨

(٢) السجدة الآية رقم : ١٦

(٣) الزمر الآية رقم : ٩

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم /١٢ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم /١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين رقم ٢٠٧ ، وابو داود فى كتاب التطوع رقم /١٨ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم ٩٥ وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٣ .

(٥) سورة الفلق الآية رقم ٤

(٦) الحديث رواه ابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٥٣

عليك ليلا طويلا ، فيتأخر عن القيام بالليل ، وقال صاحب النهاية : المراد تثقيله فى النوم وإطالته ، فكأنه قد سد عليه سدا وعقد عليه عقدا .

يضرب : يمر بيده ويضغط على حباله الداعية إلى الكسل والخمول والعجز والتقصير عن الطاعات ، وتحصيل الدرجات ، ونيل الحسنات وكسب الخيرات ، وقيل يضرب بالرقاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فضربنا على آذانهم فى الكهف** ﴾(١) ومعناه حجب الحس عن النائم حتى لا يستيقظ قائلا عند كل ضربة : نم ليلك طويل .

فارقد : نم واهدأ .

فأصبح : يستقبل يومه بسرور ، وصباحه بحبور ، وبكورته بفرح جزيل ، قوى البنية ، منشرح الصدر ، باسم الثغر ، مثلوج الفؤاد ، قرير العين ، لان الله تعالى وفقه لطاعته ، وجلب المحامد ، وكسب المحاسن ، وقد بارك له فى وقته وفى نفسه وتصرفه الحسن ، وأزال سلطان الشيطان عليه وقهره .

وإلا : وإن ترك ما كان اعتاده أو نواه من فعل الخير ، ولم يقم من نومه ، يتهجد ، طلع النهار وعليه الغضب والخبث (كسلان) ببقاء أثر تثبيط الشيطان عليه ، قال الكرمانى : وأعلم أن مقتضى (وأصبح) ان من لم يجمع الأمور الثلاثة : الذكر والوضوء والصلاة ، فهو داخل تحت من الصبح خبيث النفس كسلان وإن أتى ببعضها ، وقال العينى : وإن لم يذكر ولم يتوضأ ولم يصل ، يصبح خبيث النفس كسلان ؟ وفيه ان الذكر يطرد الشيطان ، وكذا الوضوء والصلاة ، ويجزىء كل ما يصدق عليه ذكر الله تعالى ، ويدخل فيه تلاوة القرآن ، ولا تحل عقدة الجنب إلا بالاغتسال .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من ذكر ولا أنثى إلا على رأسه جرير معقود حين يرقد بالليل ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإذا قام توضأ وصلى ، انحلت العقد وأصبح خفيفا طيب النفس قد أصاب خيرا)(٢) . رواه ابن خزيمة فى صحيحه

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)(٣) . رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه

وعن عبدالله بن سلام رضى الله عنه قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)(٤) رواه الترمذى

(١) سورة الكهف الآية رقم : ١١

(٢) صحيح ابن خزيمة ٢ / ١٧٥ - ١٧٦ رقم ١١٣٣ ، كتاب الصلاة قال ابو بكر ابن خزيمة : الجرير : الحبل .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الصيام حديث رقم ٢٠٢ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ٢٠٧ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ٦ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٣٤٤

(٤) الحديث رواه الترمذى فى أبواب القيامة رقم / ٤٢ ، وابن ماجه فى أبواب القيامة رقم / ١٧٤ ، وفى ابواب الاطعمة رقم / ١ ، والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٥٦ ، وفى كتاب الاستئذان رقم / ٤ ، وأحمد ٥ / ٤٥١ .

المعنى

أفشوا : اكثروا من رميه على من عرفت ومن لم تعرف ، والسلام من الله الأمان والرحمة .
أطعموا الطعام : اكثروا من إطعام الطعام والجود والكرم وبذل المعروف وإيواء الجائع .
وصلوا الأرحام : زوروا أقاربكم وودوهم بصلة وهدية وساعدوهم وأعينوهم واستجلبوا رضاهم .
وصلوا بالليل : - تهجدوا
بسلام : بلا عذاب
انجفل الناس : أى أسرعوا ومضوا كلهم .
استبنته : أى تحققته وتبنيته .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (فى الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها فقال ابو مالك الأشعرى : لمن هى يارسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام وبات قائما والناس نيام)[1] رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى

أطاب الكلام : أحسن القول ، وأبش وجهه ، وطاب كلامه ، وعذب لفظه ، وكثر خيره ، وعم بره ولطفه ، وجل أدبه وعظم حياؤه ، ورق شعوره ودق إحساسه .
بات قائما : يذكر الله تعالى ، ويتهجد ويعبد ربه فى ليله ، والناس نائمون ، وأفشوا فعل أمر : أى أظهروه برفع الصوت ، وأن تسلم على كل من لقيته من المسلمين وإن لم تعرفه ، وبذل الطعام أن تتصدق بما فضل عن نفقة من تلزمك نفقته .

قال النووى : السلام أول أسباب التآلف ، ومفتاح استجلاب المودة ، وفى إفشائه تمكين ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم من غيرهم من أهل الملل ، مع ما فيه من رياضة النفوس ، ولزوم التواضع ، وإعظام حرمات المسلمين .

وبه يزول التنافر ياأخى المسلم فسلم ، لتدوم المحبة وتجتمع القلوب ، فعليك به ، اجعله تحيتك لأهل بيتك وللمسلمين ، وإفشاؤه سبب رضاء الله تعالى عن عبده ، ويثيب عليه ، قال ﷺ : (أفشوا السلام فإنه لله تعالى رضا) رواه عمر بن الخطاب .

وعن أبى الدرداء (أفشوا السلام كى تعلوا) حديث حسن أى إذا أفشيتم السلام تحاببتم فاجتمعت كلمتكم فقهرتم عدوكم وعلوتم عليه .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام)[2]

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن والحاكم وقال:صحيح على شرطهما . (الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٣ - ٤٢٤)
(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان صـ ٦٨ رقم ٦٤١ .

رواه ابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى أنبئنى عن كل شىء ، قال : (كل شىء خلق من الماء فقلت أخبرنى بشىء إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : أطعم الطعام وأفش السلام وصل الأرحام وصل بالليل والناس نيام . تدخل الجنة بسلام)[(١)] رواه احمد وابن أبى الدنيا .

المعنى : ـ

طابت : فرحت وطهرت واستبشرت وطابت نفسه بالشىء : إذا سمحت به من غير كراهة ومنه الحديث أنه قال لعمار : «مرحبا بالطيب المطيب) أى الطاهر المطهر .

وقرت : سرت ومنه حديث « لو رآك لقرت عيناه » أى لسر بذلك وفرح وحقيقته : أبرد الله دمعة عينيه لأن دمعة الفرح والسرور باردة) .

وقيل : معنى أقر الله عينك بلغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره .

أنبئنى : ـ أخبرنى

كل شىء خلق من ماء : ـ الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم وكل شىء خلق منه وفى قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾[(٢)]

قيل خلقهما لم يكن حائل بينهما لا أنه موضوع على متن الماء ، واستدل به على إمكان الخلاء .

وروى عن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فى الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مد البصر فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا ، فيقول الذين أسفل منهم درجة يارب بما بلغ عبادك هذه الكرامة كلها ؟ قال فيقال لهم : كانوا يصلون بالليل ، وكنتم تنامون ، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون ، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون ، وكانوا يقاتلون وكنتم تجبنون)[(٣)] رواه ابن ابى الدنيا

المعنى : ـ

لا تروث : لا تنزل ثغلا للطعام

خطوها : أى مقدار الخطوة الواحدة نهاية امتداد البصر فى الآفاق ، بمعنى أنها تنهب الأرض نهبا وتطويها طيا بقدرة الله تعالى ، لتظهر البهجة والرواء والعزة والنعيم ، وتذهب إلى أى مكان أراده أهل الجنة ، فيراهم من هم أقل منهم عملا صالحا فى دنياهم ، ويسألون الله عز وجل عن سبب هذا

---

(١) الحديث رواه أحمد ٢٩٥/٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٤٩٣ ورواه أيضا ابن أبى الدنيا فى كتاب التهجد،وابن حبان فى صحيحه،والحاكم وصححه(الترغيب والترهيب ٤٢٥/١)

(٢) سورة هود الآية رقم ٧

(٣) الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٥

النعيم ، فيتفضل المولى تبارك وتعالى بالاجابة بفضل التهجد ، وصيام النافلة ، وكثرة الصدقات ، وعمل مشروعات الخير ، وإعانة المحتاج والانفاق فى البر والجهاد فى إعلاء دين الله ، والشجاعة فى إظهار الحق ، والمروءة فى العدل والشمم فى نصر الدين ، والدفاع عن شرع الرسول ﷺ .

وروى عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : (يحشر الناس فى صعيد واحد يوم القيامة فينادى مناد فيقول : أين الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب)[١] رواه البيهقى .

المعنى : -

صعيد واحد : وجه الأرض أى مستوى .

تتجافى جنوبهم : يستيقظون ويهجرون فراش النوم فى السحر وفيه دليل على أن التهجد يمنع من الحساب .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقيل له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[٢] رواه البخارى ومسلم والنسائى .

المعنى : -

تورمت قدماه : أصابها ورم وانتفاخ ، وفى النهاية انتفخت من طول قيامه فى صلاة الليل ، يقال : ورم يرم ، والقياس يورم وهو أحد ما جاء على هذا البناء .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقوم حتى ترم قدماه ، فقيل له : أى رسول الله أتصنع هذا وقد جاءك من الله ان قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[٣] رواه ابن خزيمة فى صحيحه

المعنى :

ترم : فعل مضارع مبنى للمجهول وترم بكسر الراء . من ورم جلده يرم تورم وورمه غيره توريما .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : (أفلا أحب أن أكون عبدا

---

(١) الحديث أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب بصيغة التمريض (روى) ١ / ٤٢٥ - ٤٢٦ كتاب الصلاة - الترغيب فى قيام الليل وعزاه للبيهقى .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (فتح الباري) (سورة الفتح) (فتح البارى ١٠ / ٢٠٦) ومسلم فى كتاب صفات المؤمنين واحكامهم (صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢) ، النسائى ١ / ٢٤٤ كتاب قيام الليل وتطوع النهار ذكر صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، الترمذى (تحفة الأحوذى ٢ / ٤٦٠ - ٤٦١) ، البيهقى فى السنن الكبرى ٣ / ١٦ كتاب الصلاة ، باب من وثق بنفسه فشدد على نفسه بالعبادة .

(٣) صحيح ابن خزيمة ٢ / ٢٠١ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٨٤

شكورا)[١] رواه البخاري ومسلم

المعنى :

تتفطر : أى تتشقق وتتألم من كثرة الوقوف .

عبدا شكورا : بينه ﷺ بأنه يتهجد ثلث الليل ويكثر من صوم التطوع . قال الشرقاوى : أى أترك قيامى وتهجدى لما غفر لى (فلا أكون عبدا شكورا) . يعنى أن غفران الله لى سبب لأن أقوم وأتهجد شكرا له فكيف أتركه : كأن المعنى ألا أشكره وقد أنعم على وخصنى بخير الدارين ، فان الشكور من أبنية المبالغة يستدعى نعمة خطيرة ، وتخصيص العبد بالذكر مشعر بغاية الاكرام والقرب من الله تعالى ، ومن ثم وصفه به فى مقام الاسراء ولأن العبودية تقتضى صحة النسبة ، وليست الا بالعبادة والعبادة عين الشكر ، وفيه أخذ الانسان على نفسه بالشدة فى العبادة ، وهو أفضل إن لم يخش الملل ؛ لأنه إذا كان هذا فعل المغفور له ، فكيف من جهل حاله وأثقلت ظهره الأوزار ، ولا يأمن غدا النار .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما)[٢] رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

المعنى : -

يقوم ثلثه : وقت تجلى الرب تبارك وتعالى على عباده .

ينام سدسه : ليستريح من تعب القيام فى بقية الليل ، وإنما كان هذا أحب إلى الله تعالى ، لأنه أخذ بالرفق على النفوس التى يخشى منها السآمة المؤدية إلى ترك العبادة ، والله يحب أن يوالى فضله ويديم إحسانه ، وإنما كان ذلك أرفق ؛ لأن النوم بعد القيام ، يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم ، بخلاف السهر إلى الصباح ، وفيه من المصلحة أيضا استقبال الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال ، ولأنه أقرب إلى عدم الرياء ، لأن من نام السدس الاخير ، أصبح ظاهر اللون سليم القوى ، فهو أقرب إلى أنه يخفى عمله الماضى على من يراه . أشار إليه ابن دقيق العيد .

وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة)[٣] رواه مسلم

المعنى :

قال النووى : فيه إثبات ساعة الاجابة فى كل ليلة ، ويتضمن الحث على الدعاء فى جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (سورة الفتح) فتح البارى ٣ / ٢٥٦ باب قيام النبى ﷺ بالليل ، ومسلم (صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢) كتاب صفات المؤمنين وأحكامهم ، إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم / ٧ ، وفى كتاب الانبياء رقم / ٣٨ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم / ١٤ ، وفى كتاب الصيام رقم ٦٩ ، وابن ماجه فى أبواب الصيام رقم ٣١ ، وأحمد ٢ / ١٦٠ ، ٢٠٦

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١٦٦ ، ١٦٧

أيها المكروب . إذا أصابك هم فالجأ إلى الله تعالى ، واستيقظ من نومك سحَرا ، وتوضأ وصل ركعتين لله نافلة ، وتضرع إليه جل وعلا عسى أن تصادفك ساعة الاجابة ، فيزيل الله كربك ويشرح صدرك ، ويذهب عسرك ويبعد ضيقك .

وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم)(١) رواه الترمذى .

المعنى :

دأب : العادة والشأن من دأب العمل : جد وتعب .

مكفرة للسيئات : سبب تغطية الذنوب وسترها ومزيلها وفى النهاية أصل الكفر : تغطية الشيء تغطية تستهلكه ومنه (من ترك الرحى فنعمة كفرها) .

منهاة : أى مبعدة وفى النهاية أى حالة من شأنها ان تنهى عن الاثم ، أو هى مكان مختص بذلك ، وهى مفعلة من النهى والميم الزائدة والنهى العقول واحدتها نهية بالضم ، سميت بذلك لأنها تنهى صاحبها عن القبيح .

نعم إن الذى تعود أن يقف بين يدى ربه يناجيه بلسان الاخلاص شرح الله صدره للعبادة فطهر نفسه من أدران الحياة ، فيتحرى الصالحات فيعملها .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم ، ومطردة للداء عن الجسد)(٢)رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى : -

مقربة : يفتح لكم أبواب رحماته ، ويتجلى عليكم برضوانه ، فيستجاب دعاؤكم وتشعرون بالرضا .

مطردة : - فى النهاية (هو قربة إلى الله تعالى ، مطردة الداء عن الجسد) أى أنها حالة من شأنها إبعاد الداء ، أو مكان يختص به ويعرف ، وهى مفعلة من الطرد . إن هذا وصف طبيب النفوس ، من قام ليله صفا جسمه ، وملك صحته ، وأزال الله مرضه ، وحسبك الالتجاء إلى الحكيم الخالق أن يشفيه **﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين ﴾**(٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت . وأيقظت

(١) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الدعوات رقم ١٠١ ، ورواه ايضا ابن خزيمة فى صحيحه ٢ / ١٧٦ - ١٧٧ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٣٥

(٢) الحديث أورده الهيثمى فى المجمع وعزاه للطبرانى فى الكبير وقال : وفيه عبدالرحمن بن سليمان بن أبى الجون وثقه دحيم وابن حبان وابن عدى وضعفه ابو داود وابو حاتم (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥) وأورده ايضا بلفظ : عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفر للسيئات ومنهاة عن الاثم
- وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط عن ابى امامة وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث ، قال عبد الملك بن شعيب بن الليث : ثقة مأمون وضعفه جماعة من الأئمة أ هـ

(٣) سورة الشعراء الآيات رقم : ٧٨ - ٨٠

زوجها ، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء)[١] رواه أبو داود

المعنى : -

نضح : أن يأخذ قليلا من الماء فيرش به ، وقد نضح عليه الماء ونضحه به : إذا رشه عليه ، وفيه من السنن العشر الانتضاح .

أى يرش مذاكيره بعد الوضوء لينفى عنه الوسواس ، يدعو النبى ﷺ لمن استيقظ ليتهجد فيوقظ زوجه بالرحمة والخير ، وشموله بالبركة والرضوان فإذا فتر الصديق ، أو كسل عن اليقظة ، أتى خليله وخدنه بقليل من الماء يمره على وجهه ، ليزول نومه ، ويبعد كسله ، ويملك شعوره ، ويتعاونان على عبادة الله . هذه التربية العالية أيها المسلمون أن يتفق الرجل وزوجه على طاعة الله ، وبذا توجد الثقة والاطمئنان ويدوم العيش الرغد ، وترفرف السعادة بين المتآلفين ، وحسبك أنهما فى ظل الله يوم القيامة ، وهما أحد السبعة (اجتمعا عليه وتفرقا عليه) وقد دعا ﷺ ايضا للزوجة إن استيقظت للعبادة ودعت زوجها النائم للتهجد،ان الذى يفعل ذلك بتعاليم القرآن عمل لآخرته ، ودخل فى زمرة من قال الله فيهم : **﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾**[٢] . يقول البيضاوى (مبارك)كثير النفع والفائدة ، مصدق الكتب التى قبله أو التوراة ، ولينذر أهل مكة ، وأهل الشرق والغرب ، فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ، ولا يزال الخوف يحمله على التدبر والنظر ، حتى يؤمن بالنبى ﷺ والكتاب والضمير يحتملها ويحافظ على الطاعة ، وتخصيص الصلاة،لأنها عماد الدين وعلم الايمان .

وروى الطبرانى فى الكبير عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من رجل يستيقظ من الليل فيوقظ امرأته ، فإن غلبها النوم نضح فى وجهها الماء ، فيقومان فى بيتهما فيذكران الله عز وجل ساعة من الليل إلا غفر لهما)[٣]

وعن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : (إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا ، أو صلى ركعتين جميعا ، كتبا فى الذاكرين ،والذاكرات)[٤] رواه ابو داود

وعن عبدالله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة :العلانية)[٥]رواه الطبرانى

المعنى : -

فضل : ثواب والمعنى المحافظة على التهجد تسبب حسنات لمصيلها جمة ، لبعدها عن الرياء ،

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى كتاب التطوع رقم /١٨ ، وفى كتاب الوتر رقم /١٣ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم /٥ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٥٠ ، ٤٣٦

(٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٢

(٣) جمع الجوامع ١ / ٧١٧ـ قال الهيثمى : وفيه محمد بن اسماعيل بن عياش وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٣)

(٤) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الوتر رقم / ١٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم / ١٧٥

(٥) الحديث رواه ابن المبارك فى الزهد والطبرانى فى الكبير وابو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود رضى الله عنه قال الهيثمى ورجاله ثقات أ هـ وخرجه البيهقى باللفظ المذكور وصحح وقفه (فيض القدير ٤ / ٤٣٦ رقم ٥٨٧٢ ، مجمع الزوائد ٢ / ٢٥١)

ولمجاهدة النفس فى ترك لذة النوم ، وطلب مناجاة الرب جل وعلا ، وقال المناوى : يؤخذ منه أن المقتدى به المعلم غيره صلاة النهار فى حقه أفضل ، كما فى إظهار المقتدى به الصدقة بقصد أن يتبعه الناس .

وقد علق عليه الشيخ الحفنى : يؤخذ من هذا التشبيه ، أنه لو كان يصلى فى النهار ، لقصد تعليم الناس ، أو ليقتدى به غيره ، كان أفضل من صلاة الليل ، كما أن صدقة العلانية حينئذ أفضل .

وروى عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : (أمرنا رسول الله ﷺ ان نصلى من الليل ما قل أو كثر ونجعل آخر ذلك وترا)[١] رواه الطبرانى والبزار

المعنى : -

نصلى من الليل : صلاة التهجد وبعد ذلك نختم بالوتر . هذا فى حق من آنس القيام بالليل وضمن اليقظة وأمن الغفلة .

وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه قال :(صلاة فى مسجدى تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفى ألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد فى جوف الليل لا يريد بهما إلا ما عند الله عز وجل)[٢] رواه ابو الشيخ بن حبان فى كتاب الثواب

المعنى : -

مسجدى : مسجده ﷺ بالمدينة : ثواب الركعة فيه مضاعف حسنات تساوى هذا العدد فى غيره .

المسجد الحرام : - بمكة

أرض الرباط : - المكان الذى ينتظر فيه المجاهدون

جوف الليل : - وسطه ، والمعنى أن ثواب الركعتين مضاعف الأجر كثير الثواب .

وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :(لابد من صلاة بليل ، ولو حلب شاة ، وما كان بعد صلاة العشاء فهو من الليل.)[٣] رواه الطبرانى

المعنى : -

حلب : - أى تصلى فى وقت قدر إخراج اللبن من ضرع الشاة : أى فى نحو خمس دقائق .

الليل : - بعد راحة وفتور الجسم ، وأخذه قسطا ، ولو قليلا من النوم ولا يعد التهجد إلا بعد القيام من نومه . قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾[٤]

---

(١) الحديث رواه البزار والطبرانى فى الأوسط والكبير وابو يعلى - وللبزار فى رواية : أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا ان نصلى كل ليلة بعد الصلاة المكتوبة نحوه - وإسناده ضعيف - قاله الهيثمى (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٢) الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٠ كتاب الصلاة - الترغيب فى قيام الليل .

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٤) سورة السجدة آية رقم ١٦ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فذكرت قيام الليل ، فقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ قال :(نصفه ثلثه ربعه ، فواق حلب ناقة ، فواق حلب شاة)[١] رواه ابو يعلى

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :(أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ، ورغب فيها حتى قال عليكم بصلاة الليل ولو ركعة)[٢] رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط

المعنى : ـ

أمره ﷺ للندب ، والترغيب فى قيام الليل ، وذكر الله وتسبيحه وعدم غفلة المسلم،وكنت واقفا أمام سيدنا الحسين رضى الله عنه فجاءنى رجل أعده وليا من أولياء الله ، وأكثر من ذكر هذه الجملة (من كثر دمه كثر نومه ، ومن كثر نومه فالنار أولى به) .

فأيقنت أن هذا يخاطب الجمهور ، ولكن يعلمنى لعلى أفقه فأعمل .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنهما قال : (جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يامحمد : عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس)[٣] رواه الطبرانى فى الأوسط

المعنى : ـ عن الناس :

سيدنا جبريل عليه السلام يعطى درسا لأشرف الخلق عليه الصلاة والسلام ، ليرشد أمته ﷺ ان العمر وإن طال فمآله الفناء ، وكل محاسب على عمله ، إن خيرا وإن شرا مجازى به ومسئول عنه ، ويأمر بالمحبة وحسن المعاشرة والتودد والتحلى بمكارم الأخلاق ، ليكسب الانسان الذكر الحسن بعد فراقه ﴿ كل من عليها فان ﴾[٤] وأخبر أن التهجد رفعة ، ورقى ومحامد ، والعز عدم سؤال أى مخلوق .

أشراف : ـ

كرماء وفضلاء وأعاظم وأسياد أمتى الذين يحفظون القرآن ، ويعملون بأوامره ، ويجتنبون مناهيه ، ويصونون قراءته عن الابتذال ، ويتحرون أماكن النظافة،والمستمعين ويكونون قدوة حسنة وأسوة صالحة .

أصحاب الليل : ـ المتهجدون العابدون الذاكرون المستغفرون .

وروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من صلى منكم من الليل فليجهر بقراءته ، فإن الملائكة تصلى بصلاته ، وتستمع لقراءته ، وإن مؤمنى الجن الذين يكونون فى الهواء وجيرانه فى مسكنه ، يصلون بصلاته ويستمعون قراءته ، وإنه يطرد بقراءته عن داره وعن الدور التى حوله فساق الجن ومردة الشياطين وإن البيت الذى يقرأ فيه القرآن عليه خيمة من نور يهتدى بها أهل السماء كما يهتدى بالكوكب الدرى فى لجج البحار وفى الأرض القفر ، فإذا مات صاحب القرآن

(١) الحديث رواه ابو يعلى ، قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)
(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، قال الهيثمى : وفيه حسين بن عبدالله وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)
(٣) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيثمى :وفيه زافربن سليمان ، وثقه احمد وابن معين وابو داود ، وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢ ـ ٢٥٣)
(٤) سورة الرحمن الآية رقم : ٢٦

رفعت تلك الخيمة ، فتنظر الملائكة من السماء ، فلا يرون ذلك النور . فتلقاه الملائكة من سماء إلى سماء فتصلى الملائكة على روحه فى الأرواح ، ثم تستقبل الملائكة الحافظين الذين كانوا معه ، ثم تستغفر له الملائكة إلى يوم يبعث ، وما من رجل تعلم كتاب الله ، ثم صلى ساعة من ليل ، إلا أوصت به تلك الليلة الماضية الليلة المستأنفة ، أن تنبهه لساعته وأن تكون عليه خفيفة ، فإذا مات وكان أهله فى جهازه ، جاء القرآن فى صورة حسنة جميلة فوقف عند رأسه ، حتى تدرج فى أكفانه فيكون القرآن على صدره دون الكفن ، فإذا وضع فى قبره وسوى وتفرق عنه أصحابه ، أتاه منكر ونكير عليهما السلام فيجلسانه فى قبره فيجىء القرآن حتى يكون بينه وبينهما ، فيقولان له : إليك حتى نسأله ؟ فيقول : لا ورب الكعبة إنه لصاحبى وخليلى ولست أخذ له على حال ، فإن كنتما أمرتما بشىء ، فامضيا لما أمرتما ودعانى مكانى ، فإنى لست أفارقه حتى أدخله الجنة ، ثم ينظر القرآن إلى صاحبه فيقول : أنا القرآن الذى كنت تجهر بى وتخفينى وتحبنى ، فأنا حبيبك ومن أحببته أحبه الله ليس عليك بعد مسألة منكر ونكيرهم ولا حزن ، فيسأله منكر ونكير ويصعدان ويبقى هو والقرآن ، فيقول لأفرشنك فراشا لينا ، ولأدثرنك دثارا حسنا جميلا بما أسهرت ليلك وأنصبت نهارك .

قال : فيصعد القرآن إلى السماء أسرع من الطرف ، فيسأل الله ذلك له ، فيعطيه ذلك فيجىء القرآن فينزل به ألف ألف ملك من مقربى السماء السادسة فيجىء القرآن فيحييه فيقول : هل استوحشت ما زدت منذ فارقتك أن كلمت الله تبارك وتعالى ، حتى أخذت لك فراشا ودثارا ومصباحا ، وقد جئتك به فقم حتى تفرشك الملائكة عليهم السلام . قال : فتنهضه الملائكة إنهاضا لطيفا ثم يفسح له فى قبره مسيرة أربعمائة عام ، ثم يوضع له فراش بطانته من حرير أخضر حشوه المسك الأذفر ، ويوضع له مرافق عند رجليه ورأسه من السندس والاستبرق ، ويسرج له سراجان من نور الجنة عند رأسه ورجليه يزهران إلى يوم القيامة ثم تضجعه الملائكة على شقه الايمن مستقبل القبلة ثم يؤتى بياسمين الجنة وتصعد عنه ويبقى هو والقرآن ، فيأخذ القرآن الياسمين ، فيضعه على أنفه غضا فيستنشقه حتى يبعث ، ويرجع القرآن إلى أهله ، فيخبرهم كل يوم وليلة ، ويتعاهده كما يتعاهد الوالد الشفيق ولده بالخير ، فإن تعلم أحد من ولده القرآن بشره بذلك ، وإن كان عقبه عقب سوء دعا لهم بالصلاح والاقبال أو كما ذكر)[1] رواه البزار .

المعنى : ـ

يطرد : يبعد

فساق : عصاة

مردة : جمع مارد : العاتى الشديد

خيمة : ظلة ساترة ومنه خيم بالمكان : أقام فيه وسكنه ، فاستعارها لظل رحمة الله ورضوانه ، وأمنه ، وهذا معنى « الشهيد فى خيمة الله تحت العرش) .

(١) الحديث رواه البزار ، قال الهيثمى قال البزار ، قال : ابن معدان لم يسمع من معاذ قلت : وفيه من لم أجد من ترجمه أ هـ (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤) .

بالكوكب : أى الشديد الانارة ، كأنه نسب إلى الدر تشبيها بصفاته ، وقال الفراء : الكوكب الذى عند العرب هو العظيم المقدار ، وقيل : هو أحد الكواكب الخمسة السيارة .

لجج : فضائها الواسع ولجة البحر : معظمة ، والمعنى فى شدة تلاطم أمواجه وظلمه يسطع النور السارى .

القفر : المفازة : الصحراء التى لا تنبت ، والمعنى يستضىء الماشى فى المهامة به ، كذلك يستضاء بالقرآن .

فتلقاه : أى فتقابله بالبشرى وتستقبله بالفرح .

فتصلى : فتدعو له بنعيم روحه ، وتجعل الملائكة احتفالا بهيجا لحراسه والحافظين عليه فى حياته .

تستغفر : تكون وظيفة الملائكة طلب الاستغفار له من الله جل وعلا ، حتى ينشر ويخرج من قبره للحساب .

صلى : ذكر الله وسبح واستغفر وتهجد جزءا من الزمن فى سحره .

الليلة : الليلة الآتية الجديدة توصيها سابقتها بيقظته . . والرأفة به وتلطيف هوائها وإزالة شرها : وإبعاد أذاها ، حتى يتجدد نشاطه وتقوى صحته ويزداد انشراحا وقبولا ويشعر بالسرور

جهازه : الإستعداد لدفنه

دون : يتمثل القرآن نورا ملاصقا لصدره فوق كفنه

فيجىء القرآن : يمثل الله القرآن بشفيع قوى الحجة مدافع عنه

إليك : إبعد عنا وتنح

ولست أخذله : والله لا أهزمه ولا أتركه

فامضيا : اسألا ونفذا مهمتكما واعملا بواجبكما

ودعانى : اتركانى ملازما له .

تجهر : كنت تقرأ فى الجهر وفى السر ولا تخشى فى الله لومة لائم وتحترمنى وتعظ الناس بى وتعمل بآدابى .

ويصعدان : يذهبان إلى ربهما .

ولأدثرنك : والدثار : الثوب الذى يكون فوق الشعار (القميص) ، ومنه

دثرونى : أى غطونى بما أدفأ به . قال تعالى : ﴿ **يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر** ﴾[1] . وإن القلب يدثر كما يدثر السيف فجلاؤه ذكر الله : أى يصدأ كما يصدأ السيف .

أسهرت : بعدت جفونك عن النوم .

وأنصبت : ـ أقمت يومك فى العبادة والتلاوة .

الطرف : لمح البصر .

---

(١) سورة المدثر الآيات ١ ـ ٣

مقربي : الأبرار المقربين المطيعين

فيحييه : ـ يقدم له أجل تحية مباركة للاستئناس .

فتنهضه : ـ تطلب منه تخلى هذا المكان برفق لتكسوه من أغلى الرياش وأفخر الأثاث (بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)

مسيـرة أربعمائة عام : ـ بمقدار سير ناقة نجيبة مسرعة . قبره يساوى هذه المسافة فى الاتساع .

حشوه المسك : كثير الطيب منتشر الرائحة .

السندس : الحرير الرقيق .

الاستبرق : الحرير الغليظ . قال تعالى : ﴿ **وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا عليهم ثياب سندس خضر واستبـرق** ﴾[1]

يسـرج : ـ يضاء له

يزهران : يلمعان وفى صفته ﷺ أنه كان أزهر اللون ، والزهر الأبيض المستنير والزهر والزهرة : البياض النير وهو أحسن الألوان .

ياسمين : نوع من أحسن الرياحين عرفها ذكى وشذاها طيب .

غضا : طريا لم يتغير ومنه حديث على هل ينتظر أهل غضاضـةالشاب أى نضارته وطراوته .

عقب : إن ترك ذرية فاسقة ، تضرع القرآن لربه عز وجل أن يوفقهم للعمل كأبيهم . وهذه بشارة عظيمة لحامل القرآن أن يبارك الله فى ذريته ويحيطهم برحمته ، ويشملهم برضاه تعالى .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :(من بات ليله فى خفة من الطعام والشراب يصلى تراكضت حوله الحور العين حتى يصبـح)[2]رواه الطبرانى فى الكبير .

المعنى : ـ

تراكضت : ـ أى لازمته وأحاطت به وفى حديث ابن عمرو بن العاص (المؤمن أشد ارتكاضة على الذنب من العصفور حين يعذف به) أى أشد حركة واضطرابا ، والركض : الضرب بالرجل والاصابة بها . وفى الحديث طلب الأكل الخفيف فى العشاء وعدم تثاقل المعدة بالطعام ، رجاء اليقظة للتهجد و لذكر الله تعالى ، ليعمه نعيم الله ورضوانه ، وتحفه رياض الجنة ، وزهرتها ، ويحوطه نساء الجنة الحسان يدعون له بالتوفيق ، برجاء أن يزف إليهن يوم القيامة . ياأخى : السيدة الحسناء والغادة الهيفاء تبتهج بعبادتك وتنتظرك ، لتتمتع بها فى آخرتك وتنادى مهرها التهجد .

وقيدت نفسى فى هواك محبة ‏ ‏ ‏ ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر

وعن عمر وبن عتبة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر فإن استطعت ان تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن) رواه الترمذى .

---

(١) سورة الانسان الأيتان ٢٠ ، ٢١

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه أصرم بن حوشب وهو متروك (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥) .

المعنى :

جوف الليل : بعد نصف الليل إلى مطلع الفجر كما قال ﷺ : (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، ومن يسألنى فأعطيه ومن يستغفرنى فأغفر له ؟) أى تنزل رحمته وأمره وملائكته ومعناه الاقبال على الداعين بالاجابة واللطف .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(ما خيب الله امرأ قام فى جوف الليل فافتتح سورة البقرة وآل عمران)[1] رواه الطبرانى فى الأوسط

المعنى : ـ ما خيب :

أى ما أسقط وما حرم ، والخائب : الذى لا نصيب له فى الخير وخاب يخيب ويخوب ومنه الحديث : (خيبة لك وياخيبة الدهر)

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :(ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذى إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ؟ والذى له امرأة حسنة وفراش لين حسن ، فيقوم من الليل فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ، ولو شاء رقد والذى إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهرواثم هجعوا. فقام من السحر فى ضراء وسراء .)[2]رواه الطبرانى

المعنى : يكفيه : يبعد عنه شرهم ويزيل ضررهم .

يذر : يترك لذته ويبتعد عن تمتعه بزوجته الحسناء حبا فى ذكر الله وتسبيحه تهجدا .

رقد : نام وأحل الله له ذلك وتمتع .

ركب : جماعة رفقاؤه

فهروا : أدلجوا طول الليلة ولم يذوقوا النوم .

هجعوا : ناموا ليلا وفى حديث الثورى : طرقنى بعد هجع من الليل . والهجع والهجعة والهجيع : طائفة من الليل .

السحر : آخر الليل يتحمل آلام السهر فى طاعة الله وذكره ويشعر بالسرور فى درك ثواب الله .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (عجب ربنا تعالى من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبه إلى صلاته ، فيقول الله جل وعلا : انظروا إلى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى،ورجل غزا فى سبيل الله وانهزم أصحابه وعلم ما عليه فى الانهزام وماله فى الرجوع ، فرجع حتى يريق دمه فيقول الله انظروا الى عبدى رجع رجاء فيما عندى وشفقة مما عندى حتى يهريق دمه)[3]رواه احمد

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيثمى : وفيه ليث بن أبى سليم وفيه كلام وهو ثقة مدلس أ هـ (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٤)

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥)

(٣) الحديث رواه احمد فى مسنده ١ /٤١٦ واللفظ له ، وابو يعلى والطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى بعد عزوه لهم : وإسناده حسن (مجمع الزوائد٢/ ٢٥٥)

المعنى : ـ

ثار : ـ بعد من ثار الشيء يثور : انتشر وارتفع ومنه الحديث (فرأيت الماء يثور من بين أصابعه) أى ينبع بقوة وشدة .

الشيء المذلول : الموطوء : أى ترك فراشه وغطاءه الدفء . والوطاء : ما تحت الأقدام .

حبه : أقربائه وحبيبه .

رغبة : رجاء ثوابى وحبا فى طلب رضاى

شفقة : ـ خوفا من عذابى ومنه قوله تعالى : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾(١) أى خائفون .

ما عليه : علم أن الانحدار سبب موته وأسره وقتله ولكن جاهد حتى يشتهد طلبا فى نعيم الله .

يهريق : ـ يراق ويسال دمه ، والمعنى أن رجلين اكتسبا زيادة الأجر من الله تعالى :

أ ـ من هجر لذة نومه وترك سريره ليتهجد

ب ـ المجاهد فى سبيل الله المستبسل ولم يفر عند الهزيمة .

* وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :(الرجل من أمتى يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فإذا وضأ يديه انحلت عقدة وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة وإذا مسح رأسه انحلت عقدة واذا وضأ رجليه انحلت عقدة فيقول الله عز وجل للذين وراء الحجاب : انظروا إلى عبدى هذا يعالج نفسه يسألنى ما سألنى عبدى هذا فهو له)(٢). رواه احمد

المعنى :

الطهور : الوضوء : أى ما يتطهر به

عقد : خبال غلب عليه الشيطان وكتفه بخيوط الكسل والغفلة وجرى مجرى عروق الدم منه رجاء نسيان ذكر الله ورقوده وسباته ، فإذا اراد الله له باليقظة ، فذكر الله حطم سلسلة من قيوده وفرق عقدة من اغلاله ، وهكذا حتى يتم الوضوء ، فيتجلى عليه الرب جل وعلا ويباهى بفعله هذا ملائكته المقربين ، ويأمرهم ان ينظروا إلى فعل طاعته ، وتذلل لربه رجاء رحمته تعالى ، ثم يبشرهم بإجابة كل ما سأل تفضلا وتكرما ، الله اكبر هذا وقت المعاملة الحسنة مع الله ، والتجارة مع الغنى الكريم والتضرع إليه وقد تكفل سبحانه بعدم رد طلب لمن سأل .

* وعن أبى عبيدة رضى الله عنه قال : قال عبد الله : إنه مكتوب فى التوراة : « لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم من المضاجع ما لم ترعين ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل » قال ونحن نقرؤها (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين)(٣) رواه الحاكم .

---

(١) سورة سأل الآية رقم ٢٧

(٢) الحديث رواه احمد فى مسنده ٤ / ١٥٩ ، ٢٠١ ـ قال الهيثمى : وفيه ابن لهيعه وفيه كلام (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٤)

(٣) الحديث رواه الحاكم فى المستدرك ٢ / ٤١٤ كتاب التفسير (سورة السجدة) وقال صحيح واقره الذهبى ولفظه ولا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ...اعين جزاء بما كانوا يعملون » .

قال الحافظ المنذرى : ابو عبيدة لم يسمع من عبد الله بن مسعود ، وقيل سمع (الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٧)

المعنى : عبدالله : سيدنا عبدالله بن سلام كان حبرا وعالما انبأنا عما فى التوراة لسيدنا موسى ، وقد أوفقه كلام الله عز وجل فى قرآنه عن جزاء المتهجد العابد الذاكر المستغفر سحرا .

* وعن عبد بن أبى قيس رضى الله عنه قال : قالت عائشة رضى الله عنها : « لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعدا »(١) رواه ابو داود

المعنى : لا تدع : لا تترك . لا : الناهية

لا يدعه : كان لا يتركه

مرض أو كسل : أعياه التعب : ولحق به العناء .

* وعن طارق بن شهاب أنه بات عند سلمان رضى الله عنه لينظر ما اجتهاده قال : « فقام يصلى من آخر الليل ، فكأنه لم ير الذى كان يظن ، فذكر ذلك له ، فقال سلمان : حافظوا على هذه الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة ، فإذا صلى الناس العشاء صدروا عن ثلاث منازل .

منهم : من عليه ولا له ، ومنهم : من له ولا عليه ومنهم : من لا له ولا عليه ، فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس فركب فرسه فى المعاصى ، فذلك عليه ولا له . ومن له ولا عليه : فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس ، فقام يصلى فذلك له ولا عليه ، ومن لا له ولا عليه : فرجل صلى ثم نام فلا له ولا عليه : إياك والحقحقة وعليك بالقصد ودوامه » . رواه الطبرانى فى الكبير موقوفا .

المعنى : ـ ماجتهاده : ما اسم استفهام مبتدأ : أى شىء بلغ اجتهاده .

كفارات : ـ مزيلات الصغائر وسائر الخطايا التى يقترفها الانسان .

المقتلة : ما لم تفعل الكبائر التى أوعد الله بها العقاب الأليم ونهى عنها وشدد على مرتكبيها مثل الزنا ، والسرقة ، والشرك بالله ، والسحر ، والربا ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقذف المحصنات الغافلات ، والغيبة والنميمة ، والكبر والحسد ، والفتنة .

من له : أى يجاهد نفسه فى التوبة من المعاصى وكثرة الاستغفار والانابة إلى الله والاقلاع عن الشرور والتهجد .

فركب : أى استرسل فى إدراك شهوات نفسه وأطلق لها العنان فى فعل الموبقات ، فذلك أوزاره جمة وسيئاته كثيرة وعذابه أليم وحسابه عسير .

فذلك : ـ له الثواب الجزيل ولا ذنب عليه .

نام : ـ لا له ولا عليه .

ودوامه : ـ اى استمر فى العبادة جهد الطاقة ، ولا تتعب نفسك بكثرة السهر واترك الغلو فى العبادة ، ولا تحمل نفسك فوق طاقتها ، وفيه ان الانسان يصلى العشاء وينام رجاء آن الله يوفقه بالقيام للتهجد ، لينال من الله النعيم ، ويجاب دعاؤه ، ويحذر أن يسهر فى معصية ويسامر فى غضب الله ،

وفيه النهى عن المغالاة فى العبادة « إن الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

الحقحقة : بحاءين مهملتين مفتوحتين وقافين ، الأولى ساكنة ، والثانية مفتوحة : هو أشد السير ، وقيل : هو أن يجتهد فى السير ويلح فيه ، حتى تعطب راحلته ، أو تقف ، وقيل غير ذلك .

* وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول لنا :(ليس فى الدنيا حسد إلا فى اثنتين : الرجل يغبط ان يعطيه الله المال الكثير فينفق منه فيكثر النفقة ، يقول الآخر : لو كان لى مال لأنفقته مثل ما ينفق هذا وأحسن فهو يحسده ، ورجل يقرأ القرآن فيقوم الليل ورجل إلى جنبه لا يعلم القرآن فهو يحسده على قيامه وعلى ما علمه الله عز وجل القرآن ، فيقول : لو علمنى الله مثل هذا لقمت مثل ما يقوم)[1] رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى : ـ

حسد : هنا غبطة : أى تتمنى أن تفعل خيرا مثله وليس الحسد المذموم الذى هو تمنى زوال النعمة عن اخيك .

ما علمه الله عز وجل من القرآن : ـ يبين رسول الله ﷺ خصلتين نتمنى ان تتحلى بهما أيها المسلم :

أ ـ خلة الانفاق والجود على إنشاء مشروعات الخير وتشييد الصالحات وتنظر إلى المحسنين ، فتتمنى أن يكون لك مال لتعمل مثلهم .

ب ـ خلة التقوى المنبعثة من قراءة القرآن الداعية إلى التهجد الغارسة دوحات العلم النافع فى قلب حافظه ، فتتمنى ان تفقه القرآن وتقرأه لتظهر تعاليمه وتثمر أوراقه فى حديقتك .

الحسد : ـ

يطلق ويراد به تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام بالاتفاق ويطلق ويراد به الغبطة وهو تمنى حالة كحالة المغبط من غير تمنى زوالها عنه ، وهو المراد فى هذا الحديث وفى نظائره ، فإن كانت الحالة التى عليها المغبط محمودة فهو تمن محمود ، وإن كانت مذمومة فهو تمن مذموم يأثم عليه المتمنى .

* وعن عبدالله رضى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار،ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)[1] رواه مسلم

وعن يزيد بن الاخنس وكانت له صحبة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (لا تنافس إلا فى اثنتين : رجل اعطاه الله قرآنا ، فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، فيقول رجل لو أن الله اعطانى ما اعطى فلانا ، فأقوم به كما يقوم ، ورجل اعطاه الله مالا ، فهو ينفق منه ويتصدق ، فيقول رجل مثل ذلك)

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفى اسناده بعض ضعف ورواه البزار بإسناد ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٦)

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التمنى رقم / ٥ ، وفى كتاب التوحيد رقم / ٤٥

رواه الطبراني في الكبير .

تنافس : التسابق في الخير وانتهاز فرص نيل الثواب .

آناء : ساعاته جمع إنا بالكسر والقصر أو جمع آناء بالفتح والمد قال تعالى ﴿ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾(١)

والمعنى انه يعظ الناس به في أوقات الليل ان سنحت الفرصة وكذا في النهار مع العمل به ، ويقرأ امام الفقراء ويحترم قراءته ونفسه ثم رسخ الايمان بقلبه ، فتهجد وذكر الله في السحر .

ينفق : ينشيء به الاعمال الصالحات ومشروعات تفيد الابناء ، ويوجد اعمالا للعاطلين ، ويكسو عريانا ويطعم جائعا ويصرف في وجوه البر ويزكى

ـ وعن فضالة بن عبيد وتميم الداري رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (من قرأ عشر آيات في ليلة كتب له قنطار والقنطار خير من الدنيا وما فيها فإذا كان يوم القيامة ، يقول ربك عز وجل : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهي إلى آخر آية معه يقول ربك عز وجل للعبد : اقبض ، فيقول العبد بيده : يارب أنت أعلم يقول لهذه الخلد ولهذه النعيم)(٢) . رواه الطبراني

ظاهره من أي سورة ينال ثوابا لو وزن لرجحت كفته عن القنطار ، وهذا خير من نعيم الدنيا الفاني على ان الله تعالى يتفضل ويرقيه إلى درجات عالية كل آية درجة يصعد بها إلى العلياء والعز والنعيم المقيم لما في الآيات من ذكر الله وتسبيحه وتقديسه ، بمعنى انه يتهجد وبعد فاتحة الكتاب يقرأ ما تيسر من القرآن يحفظ الله له ذلك ذخيرة عنده يوم القيامة ويجازيه ، وما من كمال إلا وعند الله اكمل منه ، قال ﷺ : (ان في الجنة مائة درجة ما بين الدرجتين ، كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه المقنطرين ﴾(٤)

ـ وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين) (٣) رواه ابو داود

لم يكتب من الغافلين : أي صلى نافلة وتلا في صلاته عشر آيات عد من الذاكرين الله كثيرا ومحيت عنه الغفلة ، ومن قام اى تهجد في صلاته فقرأ مائة آية ، كتبه الله من الطائعين الخاشعين العابدين وفيه (تفكر ساعة خير من قنوت ليلة)

---

(١) سورة طه آية رقم ١٣٠

(٢) الحديث رواه الطبراني في الكبير والاوسط ، قال الهيثمي : وفيه اسماعيل بن عياش ، ولكنه من روايته عن الشاميين وهى مقبولة (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٧)

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد رقم / ٤ ، وفي كتاب التوحيد رقم / ٢٢ والترمذي في أبواب الجنة رقم ٤ وأحمد ٢ / ٣٣٥ .

(٤) الحديث رواه أبو داود في سننه واللفظ له وابن حبان ولفظه : ومن قام بمائتي آية كتب من المقنطرين ـ قال في عون المعبود : قال السندي : والحديث سكت عنه المنذري أ هـ (المنهل العذب ٨ / ١٥ ـ ١٦ ، عون المعبود ٤ / ٢٧٤ ابواب قيام الليل ، باب تحزيب القرآن ، موارد الظمآن ١٧٢ رقم ٦٦٢ كتاب المواقيت ، باب القراءة في الليل .

وقال ابن الانبارى : القنوت على أربعة اقسام :

الصلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت أ . هـ ومنه :

أ ـ ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ وقيل اى الصلاة أفضل ؟

قال : طول القنوت اى الاشتغال بالعبادة ورفض كل من سواه سبحانه وتعالى فعليك أخى بكثرة القراءة فى الصلاة عسى ان تنال هذه الصفة قال تعالى :

(ب) ﴿ ان إبراهيم كان أمة قانتا ﴾[1]

(ج) ﴿ يامريم اقتنتى لربك ﴾[2]

(د) ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ﴾[3]

وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال :(القنطار اثنا عشر ألف أوقية . . الأوقية خير مما بين السماء والأرض)[4] رواه ابن حبان فى صحيحه

ـ وعن ابى امامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليلة ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين ومن قرأ اربعمائة آية كتب من العابدين ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحافظين ومن قرأ ستمائة آية كتب من الخاشعين ومن قرأ ثمانمائة آية كتب من المخبتين ومن قرأ الف آية اصبح له قنطار والقنطار ألف ومائتا أوقية والأوقية خير مما بين السماء والأرض . أو قال : خير مما طلعت عليه الشمس ومن قرأ الفى آية كان من الموجبين)[5] رواه الطبرانى

المعنى : ـ

الحافظين : الذين أجادوا معرفته وعد من المطهرين المقربين ، الذين قال الله عنهم : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾[6] ما شاء الله زيادة التلاوة فى الصلاة ، تنقى صحائف القارىء ، وتطهره من الآثام ، وتجعله فى صفوف الأبرار الصالحين الذين يخافون الله جل وعلا الذين يعنيهم الله بقوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان)[7]

الخاشعين : المتواضعين الذين يعنيهم الله بقوله :﴿ فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾[8] .

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٠
(٢) سورة آل عمران آية رقم ٤٣
(٣) سورة الاحزاب آية رقم ٣١
(٤) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص ١٧٢ حديث رقم ٦٦٣
(٥) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه يحيى بن عقبة بن أبى العيزار وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٧ ـ ٢٦٨)
(٦) سورة الانفطار آية رقم ١٠ ، ١١ ، ١٢
(٧) سورة الرحمن آية رقم ٤٦
(٨) سورة الحج الآيتان رقم ٣٤ ، ٣٥

المخبتين : زيادة التواضع والذلة لله يقال أخبت لله .
أى زاد تواضعا : الموجب : الذى اتى بفعل يوجب له الجنة وكذلك من أتى بفعل يوجب له النار أربع خصال حازها المخبتون : أولا : خوف الله،ثانيا : الصبر عند المصائب،ثالثا : إقامة الصلاة .
رابعا : الانفاق فى الخيرات ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ .
صلاة التهجد سعادة وهى ثمرات دوحات نبتت فى قلوب المتقين فأزهرت .
أى الصلاة بالليل بعد العشاء وأصله ترك الهجود وهو النوم : قال ابن فارس : المتهجد : المصلى ليلا وفى نسخة من الليل
أريد ان ابين للمسلمين ان القيام ليلا لذكر الله يجلب هناءة الضمير وقرة العين وإنشراح الصدر .
أولا : لازالة سلطة الشيطان عليه وقهره وفك عقد كسله (فأصبح نشيطا)
ثانيا : سبب دخول الجنة وحصن منيع من النار ، وقد رأى سيدنا عبد الله بن عمر ملكين اخذاه الى النار ، فقابله آخر قال : (لن تراع لن تراع) فقص الرؤيا على أخته (السيدة حفصة) فقصتها على سيدنا رسول الله ﷺ فقال : (نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل) فما ترك التهجد بعدئذ .
قال شراح الحديث : فيه ان القيام بالليل يمنع عذاب النار ، وأى فرح وعز وشعور بالنجاة والسرور من ان يضمن الانسان لنفسه السلامة من جهنم والفوز بجنة اعدها الله للمحسنين الصالحين .
ثالثا : يقف الخلائق للحساب إلا المتهجد فيمر بسلام .
رابعا : لعل المتهجد يتفق دعاؤه ساعة تفتحت لها أبواب رحمة الله تعالى فيجاب دعاؤه وينال سؤاله وتقضى آماله فينجح ويربح .
خامسا : اخبرنا الصادق المصدوق ﷺ ان قيام الليل يجدد للجسم نشاطه ويبعث الصحة ، ويقوى دورة الدم وينقيه باستنشاق نسيم السحر العليل البليل الجميل .
ويعطى الرئتين قوة ومناعة وتصح العينان ، ويسلم الرأس من عوارض الزكام والصداع ، وتطرد الأدواء عن الجسم (ومطردة للداء عن الجسد) كما قال ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام : (ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة)[1]
صدق أيها المسلم واحى هذه العادة الجميلة لتحيا حياة الابرار وتعيش عيشة الاخيار الاطهار .
سادسا : تبادل الثقة بين الزوجين : الرجل يوقظ زوجته أو هى توقظ زوجها وقد دعا لهما ﷺ بالرحمة ان فعلا ذلك ، هذه هى السعادة ان يتعاونا على طاعة الله وهنا تتجدد عرى الصداقة وتقوى روابط الأسرة ، ويزول سوء التفاهم ، وتشرق أنوار السعادة على هذا البيت ، فيخرج الزوج إلى عمله قرير العين ، مثلوج الفؤاد ، آمنا على عرضه ، مطمئنا على بيته وقديما قيل (رأس الحكمة مخافة الله) وأترك للقارىء حوادث سوء النية للزوج أو الزوجة اللذين لا يخافان الله وإنها لكثيرة : شقاق وكدر وغضب ومحاكم وتبرج ونزاع وإسراف وقلة أدب ، وهكذا مما يجره عدم العمل بكتاب رب العالمين

(١) ١ - سورة النجم آيات رقم : ٢ - ٦

وسنة سيد المرسلين ونسيان قوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾(١) وقوله ﷺ : (فصلى وأيقظ امرأته) .

سابعا : عد ﷺ قيام الليل شرفا وسيادة ، وعلو نفس طماعة إلى كسب المعالى ، وجنى ثمار المحامد ، ولو كشف الله بصيرته لرأى جمال الهيئة وأنوار ملائكة الرحمة ، وفرح الحور العين بعمله ، وتجليات المولى جل وعلا عليه بالرحمة واستظلاله بظل الله ، والناس غافلون ، وقد نفى ﷺ الخيبة فى طلبه والخسران فى عمله ، وكفل له الربح والفلاح وأمنه الله من المكاره وزال عنه الاخطار .

ثامنا : تخفيف الطعام فى العشاء من سنة رسول الله ﷺ لتستريح المعدة ، ويهدأ نومه وهذا نهاية الطب ومجلب للصحة .

أدلة التهجد من القرآن

قال تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا . وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾(٢) .

قيل المراد بالصلاة صلاة المغرب ثم بين مبدأ الوقت ومنتهاه وقال ﷺ : (أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر وقيل : لغروبها (وقرآن الفجر) صلاة الصبح تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، أو شواهد قدرة الخالق جل وعلا من تبدل ظلمة الليل بضياء النهار والنوم بالانتباه ، ليعتبر العقلاء ، فيقوموا لذكر الله وشاهدنا (ومن الليل فتهجد به) اى وبعض الليل فاترك الهجود للصلاة ، والضمير للقرآن (نافلة لك) فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة ، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك رجاء مقام يحمده القائم فيه وكل من عرفه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : (هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى)(٣) ثم دعا ﷺ بدعاء (أدخلنى) أى فى القبر إدخالا مرضيا (وأخرجنى) اى منه عند البعث إخراجا ملقى بالكرامة ، أو أدخلنى يارب المدينة أو مكة ظاهرا عليها ، أو فيما جعلتنى من أعباء الرسالة ، وأخرجنى من مكة سالما آمنا من المشركين ، أو أخرجنى مما حملتنى من عباء الرسالة مؤديا حقه ، أو أدخلنى الغار وأخرجنى سالما وقونى بحجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكا ينصر الاسلام على الكفر . والحق الاسلام ، والباطل الشرك كان مضمحلا غير ثابت .

عن ابن مسعود رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل ينكت بمخصرته فى عين واحد واحد منها فيقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب

(١) سورة طه آية رقم ١٣٢
(٢) سورة الاسراء الآيات رقم ٧٨ - ٨١
(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢ / ٤٤١ ، ٥٢٨ عن أبى هريرة

لوجهه حتى ألقى جميعها ، وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من صفر فقال يا على : ارم به فصعد فرمى به فكسره(١) .

قال الشرقاوى : فى صحيح النووى انه نسخ عنه التهجد كما نسخ عن أمته قال : ونقله الشيخ ابو حامد عن النص وهو الاصح أو الصحيح ففى مسلم عن عائشة رضى الله عنها ما يدل عليه أو فضيلة لك فإنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحينئذ فلم يكن فعل ذلك يكفر شيئا ، ويرجع التكاليف كلها فى حقه عليه الصلاة والسلام قرة عين وإلهام طبع ، وتكون صلاته فى الدنيا مثل تسبيح اهل الجنة فى الجنة لا على وجه الكلفة والتكليف ، وهذا كله مفرع على طريقة إمام الحرمين من أن التكليف يستلزم الوعيد ، وأما على طريقة القاضى حيث يقول : لو أوجب الله تعالى شيئا لوجب وإن لم يكن وعيد فلا يمتنع حينئذ بقاء التكاليف فى حقه عليه الصلاة والسلام على ما كانت عليه مع طمأنينته عليه الصلاة والسلام من ناحية الوعيد ، وعلى كلا التقديرين فهو معصوم ولاذنب ولاعتب ، وأما أمره بالاستغفار فى قوله ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ فهو تعبد على الفرض والتقدير : أى استغفر مما عساه ان يقع لولا عصمتك .

ب - ﴿ ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾(٢)

ج - ﴿ يأأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾(٣) .

روى انه عليه الصلاة والسلام كان يصلى متلففا بمرط مفروش على عائشة رضى الله عنها وأصله المتزمل فأدغم التاء فى الزاى من تزمل الزمل : تحمل الحمل : أى يأأيها المتحمل أعباء النبوة قم إلى الصلاة أو داوم عليها ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾(٤)

قولا : أى القرآن لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ إذا كان عليه ان يتحملها ويحملها أمته ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ اى إن النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض وقام .

أو قيام الليل على ان الناشئة له أو العبادة التى تنشأ بالليل : أى تحدث أو ساعات الليل ؛ لأنها تحدث واحدة بعد اخرى ﴿ هى أشد وطأ ﴾ أى كلفة او ثبات قدم وقرىء ﴿ وطاء ﴾ أى مواطأة القلب اللسان لها أو فيها أو موافقة لما يراد منها من الخضوع والاخلاص ﴿ وأقوم قيلا ﴾ اى وأشد مقالا أو اثبت قراءة لحضور القلب وهذه الاصوات .

﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾(٥) أى تقلبا فى مهماتك

(١) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة الاسراء ، وفى كتاب المظالم ومسلم فى كتاب الجهاد ، الترمذى فى تفسير سورة الاسراء - وقال حسن صحيح - وأحمد ١ / ٣٧٧ ، ٣٧٨

(٢) سورة الذاريات آيات : ١٥ - ١٩ .(٣) سورة المزمل آيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) سورة المزمل آيات ٥ ، ٦

(٥) المزمل الآيات : ٧ - ٨

واشتغالا بها فعليك بالتهجد فإن مناجاة الحق تستدعى فراغا (قرىء سبخا) أى فراغا تفرغ قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نقشه ونشر أجزائه ودم على ذكر ربك ليلا ونهارا وذكر الله يتناول كل ما يذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم (وتبتل) وانقطع إليه بالعبادة وجرد نفسك عما سواه .

أيها المسلم : هل تقتدى بسيدنا رسول الله ﷺ امره الله بالتهجد ، فزاد كمالا . ونصره الله ، ودانت له الأرض ، وعز ملكه وانتشر دينه ﷺ ونال الشفاعة العظمى وخصه الله بمحامد ومكارم وأخلاق .

قال تعالى : ﴿ **وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[1] ﷺ (غير ممنون) غير مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فانه تعالى يعطيك بلا توسط ، لأنك تتحمل من قومك ما لا يتحمل أمثالك ، وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » ألست تقرأ القرآن ؟ بلى اقرأ قد أفلح المؤمنون اللهم صلى عليه وانفعنا بسنته ووفقنا لنهج منهجه إنك عزيز حكيم .

وقد اخبر الله تعالى فى محكم كتابه انه ﷺ وأصحابه قاموا بالتهجد خير قيام ، قال جل وعلا : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله** ﴾[٣] (ادنى) استعار الادنى للاقل ، لأن الأقرب إلى الشىء أقل بعدا منه ويقوم بذلك جماعة من أصحابك ولا يعلم مقادير ساعات الليل والنهار كما هى إلا الله سبحانه وتعالى ، ولن تحصوا تقدير الأوقات ، ولن تستطيعوا ضبط الساعات (فتاب عليكم) بالترخيص فى ترك القيام المقدر ورفع التبعة ، كما رفع التبعة عن التائب (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) : فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل عبر عن الصلاة بالقرآن كما عبر عنها بسائر أركانها وقيل : فاقرءوا القرآن بعينه كيفما تيسر عليكم والضرب فى الأرض المسافرة للتجارة أو لتحصيل العلم .

﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ المفروضة

التحذير من صلاة الانسان وقراءته حال النعاس

عن عائشة رضى الله عنها ان النبى ﷺ قال :(اذا نعس احدكم فى الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن احدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه) . رواه مالك والبخارى ومسلم

اذا نعس احدكم وهو يصلى فلينصرف فلعله يدعو على نفسه وهو لا يدرى .

وعن انس رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال :(اذا نعس احدكم فى الصلاة فلينم حتى يعلم ما

(١) سورة (ن) الأيتان : ٣ ـ ٤

(٢) سورة المزمل الآية رقم : ٢٠

يقرؤه .) رواه البخارى والنسائى إلا انه قال :(اذا نعس احدكم فى صلاته فلينصرف وليرقد)[١]

نعس : اخذه النوم يقال نعس نعسة ونعاسا وهو الوسن وأول النوم ، نهى ﷺ ان يستمر الناعس فى صلاته خشية ان يدعو على نفسه وهو لا يدرى وخشية عدم إتمام الأركان ، فليقطع صلاته ولينم حتى يذهب عنه النوم ، وحتى يذهب ليفعل الوسائل التى تزيل وسنه ، وفيه ان المصلى لابد ان يملك شعوره ويعلم حركاته واقواله وان المتهجد اذا لم يذهب نومه بل غلبه ينام أحسن من الاستمرار فى الصلاة خوفا من الخلط وسب نفسه .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا قام احدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع)[٢] رواه مسلم .

المعنى : استعجم : استغلق

على لسانه : اى ثقلت عليه القراءة كالأعجمى لغلبة النعاس .

قال العلقمى : قال القرطبى : القرآن مرفوع على انه فاعل استعجم اى صارت قراءته كالعجمية لاختلاف حروف النائم وعدم بيانها .

فليضجع : قال المناوى : للنوم ندبا ان خف النعاس بحيث يعقل القول ، أو وجوبا ان غلبه بحيث أفضى الى الاخلال بواجب . أ . هـ .

وقال العلقمى : لئلا يغير كلام الله ويبدله أ . هـ

وقال الحفنى : والتقييد بالليل للغالب من ان النوم فى الليل وإلا فالنوم فى النهار كذلك . أ . هـ

واقول : ينام إذا كان فى تهجد ليلا أو نافلة نهارا ، أما اذا كان يصلى الفرض وينام فيقطع صلاته ويرش على وجهه الماء ويذهب النوم عنه ويصلى خشية ان يضيع الوقت وخوفا من ذهاب الفضيلة ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

التحذير من نوم الانسان الى الصباح
وترك قيام شىء من الليل

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ذكر عند النبى ﷺ رجل نام ليلة حتى اصبح قال : ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه ، أو قال فى أذنه)[٣] رواه البخارى ومسلم .

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوضوء رقم ٥٣ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٢ ، وأبو داود فى كتاب صلاة التطوع رقم /١٨ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ١٤٦ ، وابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٨٤ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب صلاة الليل رقم ٣ ، والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٠٧ ، واحمد فى مسنده ٦ /٥٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٥٩ ، ٣ / ١٤٢ ، ١٥٠

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٣ ، وابو داود فى كتاب التطوع رقم ١٨ ، وابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٨٤ ، واحمد ٢ / ٣١٨

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم ١٣ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم ١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٠٥ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ٥ ، وابن ماجه فى ابواب الامامة رقم ١٧٤ ، وأحمد ١ / ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، ٢ / ٢٦٠ ، ٤٢٧

المعنى : بال : قيل معناه سخر منه وظهر عليه حتى نام عن طاعة الله عز وجل كقول الشاعر : بال سهيل فى الفضيخ ففسد .

أى لما كان الفضيخ يفسد بطلوع سهيل كان ظهوره عليه مفسدا له وعن الحسن مرسلا ان النبى ﷺ قال : (فإذا نام شغر الشيطان برجله فبال فى اذنه) وسهيل الفضيخ كوكبان وشغر رفع احدى رجليه ليبول ، والمعنى ان الشيطان يسلح على الغافل تارك التهجد وهو كالتغوط للانسان .

وروى الطبرانى فى الأوسط حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه قال رسول الله ﷺ :(اذا اراد العبد الصلاة من الليل أتاه ملك فقال له : (قم فقد اصبحت فصل واذكر ربك فيأتيه الشيطان فيقول : عليك ليل طويل وسوف تقوم ، فإن قام فصلى أصبح نشيطا خفيف الجسم قرير العين وان هو اطاع الشيطان حتى اصبح بال فى اذنه)

المعنى : ملك : من ملائكة الرحمة الحفظة .

فصل : قربت من السحر فتهجد

قرير العين : مسرورا اقر الله عينه اعطاه حتى تفرح فلا تطمح إلى من هو فوقه ودمعة السرور باردة والحزن حارة .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس احدكم اذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا اصبح خبيث النفس كسلان)(١) رواه مالك والبخارى ومسلم .

فيصبح نشيطا طيب النفس قد أصاب خيرا وإن لم يفعل أصبح كسلان خبيث النفس لم يصب خيرا .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :(قالت ام سليمان بن داود لسليمان : يابنى : لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة)(٢) رواه ابن ماجه

فقيرا : خاليا من الحسنات .

وعنه رضى الله عنه ايضا ان النبى ﷺ قال :(ما من مسلم ذكر ولا انثى ينام الا وعليه جرير معقود فإن هو توضأ وقام إلى الصلاة أصبح نشيطا قد أصاب خيرا وقد انحلت عقده كلها وان استيقظ ولم يذكر الله اصبح وعقده عليه ، واصبح ثقيلا كسلان ولم يصب خيرا) .(١) رواه ابن حبان و ابن خزيمة .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢١
(٢) الحديث رواه ابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٧٤
(١) هذا الحديث رواه ابن ماجه فى صحيحه بهذا اللفظ
قال الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ١ / ٤٤٦ بعد ذكره لهذه الرواية : رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما واللفظ لابن حبان وتقدم لفظ ابن خزيمة ا هـ

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ان الله يبغض كل جعظرى جواظ صخاب فى الاسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة)[١] رواه ابن حبان .

قال أهل اللغة : الجعظرى : الشديد الغليظ

الجواظ : الأكول

والصخاب : الصياح .

المعنى : يخبر ﷺ ان الله تعالى خلق الانسان للعمل والعبادة ، قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾[٢]

أى لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلبة لها ، وجعل خلقهم مغيابها مبالغة فى ذلك ، ولو حمل على ظاهره مع ان الدليل يمنعه . لنا فى ظاهره قوله : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس** ﴾[٣] ذرأ خلق وقد قرأ ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ **وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون** ﴾ وقيل معناه إلا لأمرهم بالعبادة ، وهو منقول عن على رضى الله عنه وقيل:إلا ليكونوا عبادا لى والوجه أن تحمل العبادة على التوحيد ، وقد قال ابن عباس رضى الله عنه : كل عبادة فى القرآن توحيد والكل يوحدونه فى الآخرة .

قال تعالى : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾[٤] ﴿ **ما أريد منهم من رزق** ﴾ اى ما أريد أى أحد منكم فى تحصيل رزقى ، فاشتغلوا بما انتم كالمخلوقين له أو المأجورين به ، والمراد ان يبين ان شأنه مع عباده ليس شأن السادة من عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم ، والله تعالى يرزق كل من يفتقر الى الرزق ، وفيه إيماء باستغنائه عنه . . فسبحانه غنى شديد القوة ، واذا عرفت معنى هذه الآية علمت ان الذى خلق ليأكل مذموم وتراه معتنيا بملذاته وترفه ، فيغلظ جسمه ويتضخم ، ثم يتفنن فى الطعام والشراب وينسى حقوق الله ويترك الصدقة ، ثم يكثر اللغط والسباب والفسوق والصياح ، ولا يذكر الله تعالى ، فالله ينتقم منه ويعذبه يوم القيامة ، ويمنع عنه سبحانه وتعالى رحمته ، ويحمل عليه سخطه (حمار بالنهار) اى شغال لجمع الدنيا ولا يفقه فى الدين ، وعالم بظاهر الحياة بلا عمل صالح . قال تعالى : ﴿ **يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾

---

(١) الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه والاصبهانى (الترغيب والترهيب ١ / ٤٤٦ - ٤٤٧)

(٢) سورة الذاريات الآيات رقم : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

(٣) سورة الاعراف الآية رقم ١٧٩

(٤) سورة الأنعام الآية رقم ٢٣

(٥) سورة الروم الآية رقم ٧

وهذا دعاء ورجاء ، فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والغرام هو الشيء الملازم الدائم قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم مادامت السموات والأرض قوله تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ اى بئس المستقر وبئس المقام جهنم .

قال ابن ابى حاتم عند قوله : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ حدثنا ابى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا ابو الاحوص عن الاعمش عن مالك بن الحارث قال : (إذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فإذا انتهى الى بعض ابوابها ، قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأسا من سم الاساود والعقارب قال فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة) .

وقال ايضا عن عبيد بن عمير قال : ان فى النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب امثال البغال الدهم فإذا قذف بهم فى النار خرجت اليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشقارهم فكشطت لحومهم الى اقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الامام احمد بسنده عن انس عن مالك عن النبى ﷺ قال : (إن عبدا فى جهنم لينادى ألف سنة ياحنان يامنان فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتنى بعبدى هذا ، فينطلق جبريل فيجد اهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل ائتنى به فانه فى مكان كذا وكذا فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له ياعبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى فيقول يارب ما كنت ارجو اذ اخرجتنى منها ان تردنى فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدى)[(١)]

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أى ليسوا بمبذرين فى انفاقهم ، فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهليهم ، فيقصرون فى حقهم ، فلا يكفونهم بل عدولا خيارا وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا .

﴿ وكان بين ذلك قواما ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ .

قال الامام أحمد عن ابى الدرداء عن النبى ﷺ (من فقه الرجل قصده فى معيشته) .

وقال الامام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد) وقال الحافظ البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ (ما أحسن القصد فى الغنى وما أحسن القصد فى الفقر وما أحسن القصد فى العبادة) .

وقال الحسن البصرى : ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف وقال اياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف وقال غيره السرف النفقة فى معصية الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن

(١) الحديث رواه احمد ٣ / ٢٣٠

وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا) .

قال الامام أحمد حدثنا ابو معاوية،حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبدالله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك » قال ثم أى ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك » قال ثم أى ؟ قال : « ان تزانى حليلة جارك » . قال عبدالله وأنزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر)(١) وقال النسائى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع « ألا إنما هى أربع » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ، (لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا)(٢) وقال الامام أحمد حدثنا على بن المدينى رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعيد الانصارى سمعت ابا طيبة الكلاعى سمعت المقداد بن الأسود رضى الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : (ما تقولون فى الزنا ؟) قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : (لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بإمرأة جاره) قال (فما تقولون فى السرقة ؟) قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام . قال : (لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من ان يسرق من بيت جاره)(٣) وقال ابو بكر بن ابى الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ قال : (ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له) . وقال ابن جريج أخبرنى يعلى عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث ان ناسا من اهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم اتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت ﴿ **والذين لايدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الآية وقال ابن ابى حاتم حدثنا ابى حدثنا ابن ابى عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن أبى فاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل (إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك ان تقتل ولدك وتغذم كلبك ، وينهاك ان تزنى بحليلة جارك) قال سفيان وهو قوله : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ **ومن يفعل ذلك يلق أثاما**) . روى عن عبدالله ابن عمرو أنه قال : أثاما : واد فى جهنم ، وقال عكرمة (يلق أثاما) نكالا : كنا نحدث انه واد فى جهنم .

وقد ذكر لنا ان لقمان كان يقول : يابنى ! إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة . وقد ذكر فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره عن أبى إمامة الباهلى موقوفا ومرفوعا ان غيا وأثاما بئران فى قعر

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (تفسير سورة البقرة ٢٥ ، وفى التوحيد رقم ٤٠ ، ٤٦ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤١ ، ١٤٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ ، والنسائى فى كتاب التحريم رقم ٤ ، واحمد ١ / ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤ .

(٢) الحديث رواه أحمد ٤ / ٣٣٩

(٣) الحديث رواه أحمد ٦ / ٨

جهنم أجارنا الله منها ، بمنه وكرمه . وقال السدى (يلق أثاما) جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلا عنه وهو قوله تعالى : ﴿ **يضاعف له العذاب يوم القيامة** ﴾ أى يكرر عليه ويغلظ . ﴿ **يخلد فيه مهانا** ﴾ أى حقيرا ذليلا .

قال الامام ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على ان من الذنوب كبائر وصغائر قال الله تعالى : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش الا اللمم** ﴾ . وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)[1] وهذه الاعمال المكفرة لها ثلاث درجات: إحداها ان تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية ، الثانية ان تقاوم الصغائر ولا ترتقى إلى تكفير شىء من الكبائر،الثالثة ان تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة وفى الصحيح عنه ﷺ انه قال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . قلنا : بلى يارسول الله ، فقال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور)[2] وروى فى الصحيح عنه ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات . قيل وما هن يارسول الله ؟ قال : (الاشراك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا . والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[3] وفى الصحيح عنه ﷺ ، انه سئل أى الذنب أكبر عند الله قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك قيل ثم أى ، قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قيل ثم أى ، قال أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديقها : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ واختلف الناس فى الكبائر هل لها عدد يحصرها على قولين . ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها . فقال عبدالله بن مسعود : هى أربعة وقال غيره هى إحدى عشر ، وقال آخر هى سبعون ، وقال أبو طالب المكى : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة فى القلب وهى : الشرك بالله ، والاصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن مكر الله . وأربعة فى اللسان وهى : شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر . وثلاثة فى البطن : شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا . واثنتان فى الفرج وهما : الزنا واللواطة . واثنتان فى اليدين : وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين وهى

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الطهارة حديث رقم ١٤ ، ١٥ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ٣٦ ، وابن ماجه فى ابواب الطهارة رقم ٧٨ ، ١٠٦ ، وأحمد ٢ / ٢٢٩ ، ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤٨٤ ، ٥٠٦ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب رقم ٦ ، وفى كتاب الاستئذان رقم ٣٥ ، وفى كتاب الايمان رقم ١٦ ، وفى كتاب الاستتابة رقم ١ ، وفى كتاب الديات رقم ٢ ، وفى كتاب الشهادات رقم ١٠ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٣ ، ١٤٤ ، وابو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والترمذى فى أبواب البر رقم ٤ ، وفى أبواب البيوع رقم ٣ ، وفى أبواب الشهادات رقم ٣ ، وفى تفسير سورة ٤ ، والنسائى فى كتاب التحريم رقم ٣ ، وفى كتاب القسامة رقم ٤٩ ، والدارمى فى كتاب الديات رقم ٩ وأحمد ٢ / ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١٤

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوصايا رقم ٢٣ وفى كتاب الطب رقم ٤٨ ، وفى كتاب الحدود رقم / ٤٤ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٤ ، وابو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والنسائى فى كتاب الوصايا رقم ١٢

الفرار من الزحف . وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهى عقوق الوالدين . والذين لا يحصرونها بعدد منهم من قال : كل ما نهى الله عنه فى القرآن فهو كبيرة ، وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة . وقالت طائفة : ما اقترن بالنهى عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة ، وما لم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة . وقيل كل ما رتب عليه حد فى الدنيا أو وعيد فى الآخرة فهو كبيرة . وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة . وقيل كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر وما كان تحريمه فى شريعة دون شريعة فهو صغيرة،وقيل كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة . وقيل كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ . والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها بالنسبة للجراءة على الله سبحانه معصيته ومخالفة أمره كبائر . فانظر الى من عصى أمره وانتهك محارمه فوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهى مستوية فى هذه المفسدة . قالوا ويوضح هذا ان الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ولا فرق فى ذلك بين ذنب وذنب . قالوا ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى . ولهذا لو شرب رجل خمرا أو وطأ فرجا حراما وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان اتى بإحدى المفسدتين وهو الذى يستحق العقوبة دون الأول فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب . قالوا ويدل على هذا ان المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمته وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب قالوا فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره فى نفسه ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمته بالمعصية وهذا لا يقترن فيه الحال بين معصية ومعصية . فإن ملكا عظيما مطاعا لو أمر أحد مملوكيه ان يذهب فى مهم له إلى بلد بعيد وأمر آخر أن يذهب له فى شغل الى جانب الدار فعصياه وخالفا امره لكانا فى مقته والسقوط من عينه سواء، قالوا ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة ، وهو جار المسجد اقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد ، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ، ولو كان مع رجل مائة درهم فمنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم فمنع زكاتها لا يستويان فى منع ما وجب على كل واحد منهما ولا يبعد استواؤهما فى العقوبة اذا كان كل منهما مصرا على منع زكاة ماله قليلا كان المال أو كثيرا .

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة ان يقال إن الله عز وجل ارسل رسله وأنزل كتبه وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله له ، والطاعة كلها له والدعوة له كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت

(١) سورة الذاريات آية ٥٦
(٢) سورة الحجر آية ٨٥
(٣) سورة الطلاق آية ١٢

الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم ﴾[١] .

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض . كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[٢] فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ، ومن أعظم القسط التوحيد ، بل هو رأس العدل وقوامه وأن الشرك ظلم كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فالشرك أظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود ، فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر بتفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم . وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصى ، فلما كان الشرك بالله منافيا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الاطلاق . وحرم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيدا لهم لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه ان يقبل من مشرك عملا أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له فى الآخرة دعوة أو يقبل له فيها عثرة . فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه ندا ، وذلك غاية الجهل به كما انه غاية الظلم منه . . . وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه ووقعت مسألة وهى ان المشرك إنما قصده لعظيم جناب الرب تبارك وتعالى ، أو انه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه الا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك . . فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه ، وقال إنما أعبد هذه الوسائط لتقربنى إليه وتدخلنى عليه ، فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء وكان هذا القدر موجبا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلدا فى النار وموجبا سفك دماء اصحابه واستباحة حريمه وأموالهم وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو انه هل يجوز ان يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول يمتنع ان تأتى به شريعة بل جاءت بتقرير مافى الفطر والعقول من قبحه الذى هو اقبح من كل قبيح ، وما السبب فى كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٣] . .

وتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار فنقول وبالله التوفيق والتأييد ومنه نستمد المعونة والتسديد ، فإنه من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له ، ولا مانع لما اعطى ولا معطى لما منع ، الشرك شركان شرك يتعلق بذات المعبود واسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرك فى عبادته

(١) سورة المائدة آية ٩٧
(٢) سورة الحديد آية ٢٥
(٣) سورة النساء الآية رقم ٤٨ ، ١١٦

ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد انه سبحانه لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، والشرك الأول نوعان ، احدهما شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون اذ قال : وما رب العالمين ؟ . . وقال تعالى مخبرا عنه انه قال : ﴿ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ﴾(١) .

فالشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك ، لكن لا يستلزم اصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقرا بالخالق سبحانه وصفاته . ولكن عطل حق التوحيد . وأصل الشرك وقاعدته التى ترجع إليها هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كمال المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ومخلوق ، ويقولون ههنا شيئان بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وانه لم يكن معدوما اصلا بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأثرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ليسمونها العقول والنفوس ومن هذا شرك من عظيم أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسما ولا صفة ، بل جعلوا المخلوق أكمل منه اذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

فصل

النوع الثانى شرك من جعل معه إلها آخر ، ولم يعطل اسماءه وربوبيته وصفاته ، كشرك النصارى الذى جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلها وأمه إلها ، ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة ، ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق افعال نفسه ، وانها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وارادته ، ولهذا كانوا من اشباه المجوس ، ومن هذا شرك الذى حاج ابراهيم فى ربه اذ قال ابراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال انا احيى وأميت ، فهذا جعل نفسه ندا لله يحيى ويميت بزعمه ، كما يحيى الله ويميت ، فألزمه إبراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته ان طرد قولك ان تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأت الله بها منها ، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل بل إلزاما على طرد الدليل ان كان حقا ، ومن هذا شرك كثيرا ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أربابا مدبرة لأمر هذا العالم ، كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم ، ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ، ومن هؤلاء من يزعم ان معبوده هو الإله على الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم انه إله من جملة الآلهة ، وانه اذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم ان معبودهم الادنى ، يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه والفوقانى يقربه إلى ما هو فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله

(١) سورة غافر الآية رقم ٣٦ ، ٣٧

سبحانه ، فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل .

فصل

وأما الشرك فى العبادة ، فهو اسهل من هذا الشرك وأخف امرا ، فإنه يصدر ممن يعتقد انه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص لله فى معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحظ نفسه تارة ، وطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخالق تارة ، فلله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبى ﷺ فيما رواه ابن حبان فى صحيحه : (الشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب النمل . قالوا وكيف ننجو منه يارسول الله ؟ قال : قل : (اللهم إنى أعوذ بك ان أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم) فالرياء كله شرك . قال تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾(١) اى كما انه إله واحد لا إله سواه . فكذلك ينبغى ان تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالالهية يجب ان يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة ، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا) وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا ، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾(٢) فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذى اتى به شىء غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى : ﴿ **أنا أغنى الشركاء عن الشرك . فمن عمل عملا أشرك معى فيه غيرى فهو للذى أشرك به وأنا منه برىء** ﴾ .

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور وأكبر وأصغر ، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر ، وليس شىء منه مغفور فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بان يحب مخلوقا كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا** ﴾(٣) وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم : ، ﴿ **تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين** ﴾(٤) . ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق والاماتة والأحياء والملك والقدرة ، وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل ، وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب ، وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى

(١) سورة الكهف الآية رقم ١١٢
(٢) سورة البينة الآية رقم ٥
(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٦٥
(٤) سورة الشعراء الآية رقم ٩٧ ، ٩٨

الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذى ليس له من ذاته إلا العدم بالغنى بالذات القادر بالذات الذى غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ، فأى ظلم أقبح من هذا ، وأى حكم أشد جورا منه ، حيث عدل من لا عدل له يخلقه ، كما قال تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾(١) فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه .

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه في الاقوال والأفعال ، والارادات ، والنيات ، فالشرك فى الأفعال كالسجود لغيره والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وقد لعن النبى ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها فكيف بمن اتخذ القبور أوثانا يعبدها من دون الله ، وفى الصحيحين عنه انه قال : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . .) وفى الصحيح عنه ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد)(٢) وفى الصحيح ايضا عنه ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك ، وفى مسند الامام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه ﷺ : (لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد ووالسرج)(٣) .وقال : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد)(٤) وقال : (إن من كان قبلكم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)(٥) فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر بنفسه) وقد قال النبى ﷺ اللهم لا تجعل قبرى وثنا

---

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١

تعليق قصير جدا على هذه الأحاديث

قال الحافظ فى الفتح ٢ / ٧١ ط : الحلبى : قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصلاة نحوها ، واتخذوها أوثانا ، لعنهم الله ، ومنع المسلمين عن مثل ذلك ، فأما من اتخذ مسجدا فى جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل فى ذلك الوعيد أ هـ والكلام كثير فى الرد على من يرى غير ذلك (كصاحب هذا الكتاب) ولا يتسع المقام لذكره .

(٢) الحديث رواه احمد فى مسنده ١ / ٤٣٥

(٣) الحديث رواه ابو داود فى كتاب الجنائز رقم ٧٨ ، والترمذى فى ابواب الصلاة ١٢١ ، والنسائى فى كتاب الجنائز رقم ١٠٤ ، وأحمد ١ / ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب المغازى رقم ٢٤ ، ومسلم فى كتاب الجهاد حديث رقم ١٠٦ ومالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم ٨٥ ، واحمد ١ / ٢٨٨ ، ٢ / ٣١٧ ، ٤٩٢

(٥) الحديث رواه البخارى فى كتاب الصلاة رقم ٤٨ ، ٥٤ ، وفى كتاب الجنائز رقم ٧٠ ، وفى كتاب مناقب الانصار رقم ٣٧ ، ومسلم فى كتاب المساجد حديث رقم ١٦ ، وفى كتاب الفتن حديث رقم ١١٠ ، ١١٦ ١٣١ ، والنسائى فى كتاب المساجد رقم ١٣ .

يعبد)[1] . وقد حمى النبى ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لئلا يكون ذريعة الى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين وسد الذريعة ، بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح ، لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس ، وأما السجود لغير الله ، فقال لا ينبغى لأحد ان يسجد لأحد إلا الله ، ولا ينبغى فى كلام الله ورسوله ﷺ للذى هو فى غاية الامتناع شرعا . كقوله تعالى : ﴿ وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا ﴾[2] وقال : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾[3]وقوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم ﴾[4] وقوله عن الملائكة : ﴿ ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾[5] ...

فصل

ومن الشرك به سبحانه ـ الشرك به فى اللفظ كالحلف بغيره كما رواه أحمد وأبو داود عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وصححه الحاكم وابن حبان)[7] .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ماشاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبى ﷺ انه قال له رجل : ماشاء الله وشئت . قال : أجعلتنى لله ندا . قل ، ما شاء الله وحده)[6] وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ . فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك . وأنا فى حسب الله وحسبك . وما لى إلا الله وأنت . وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركاتك . والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض . ويقول : والله وحياة فلان أو يقول : نذرا لله ولفلان . وأنا تائب لله ولفلان أو أرجو الله وفلانا ، ونحو ذلك . فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت . ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك ان قائلها أولى لجواب النبى ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان قد جعله ندا لله بها ، فهذا قد جعل من لا يدانى رسول الله ﷺ فى شىء من الأشياء بل لعله أن يكون من أعدائه ندا لرب العالمين ، فالسجود والعبادة ، والتوكل والانابة ، والتقوى والخشية ، والتحسب والتوبة ، والنذر والحلف ، والتسبيح والتكبير ، والتهليل والتحميد ، والاستغفار وحلق الرأس خضوعا وتعبدا . والطواف بالبيت والدعاء ، كل ذلك محض حق الله لا يصلح ولا ينبغى لسواه من ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، وفى مسند الامام أحمد ان رجلا اتى به إلى النبى ﷺ قد أذنب ذنبا فلما وقف بين يديه قال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال قد عرف الحق لأهله) .

(١) الحديث رواه مالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم ٨٥ ، واحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٦ .
(٢) سورة مريم الاية ٩٢
(٣) سورة يس الاية ٦٩
(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٠ ، ٢١١
(٥) سورة الفرقان الآية ١٨
(٦) الحديث رواه احمد ٢ / ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذى فى ابواب النذور رقم / ٩ ، والنسائى فى كتاب الايمان رقم ٤ ، وابن ماجه فى ابواب الكفارات رقم / ٢ ، والدارمى فى كتاب النذور رقم / ٦
(٧) الحديث رواه أحمد ٢/٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذى فى أبواب النذور رقم ٩ ، والنسائى فى كتاب الإيمان رقم ٤ ، وابن ماجه فى أبواب الكفارات رقم ٢ ، والدارمى فى كتاب النذور رقم ٦ .
(٨) الحديث رواه احمد ١ / ٢١٤ ، ٢٢٤ ٢٨٣ ، ٣٤٧

فصل

وأما الشرك فى الارادات والنيات ، فذلك البحر الذى لا ساحل له ، وقل من ينجو منه ، فمن أراد بعمله غير وجه الله نوى شيئا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه. فقد أشرك فى نيته وإرادته ، والاخلاص ان يخلص لله فى أفعاله وأقواله وإرادته ونيته ، وهذه هى الحنيفية ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها ، وهى حقيقة الاسلام كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(١) وهى ملة إبراهيم عليه السلام التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة إن فتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول : ومن الله وحده نستمد الصواب حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه فى الحقيقة لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ ، فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأوكسه بلبسه الأمر وجعل التوحيد تشبها والتشبيه تعظيما وطاعة ، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الالهية ، فإن من خصائص الالهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق ، فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا أفضل من غيره ، تشبها بمن له الأمر كله ، فأزمة الأمور كلها بيديه ، ومرجعها اليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى وما معطى لما منع ، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها احد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد فمن اقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغنى بالذات ، ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب ان تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة ان يكون له وحده ويمنع عقلا وشرعا وفطرة ان يكون لغيره . فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له وذلك اقبح التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده انه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة ، ومن خصائص الالهية العبودية التى قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما غاية الحب مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الاصلين ، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به فى خالص حقه ، وهذا من المحال ان تأتى به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى ، فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نورا على نور يهدى الله لنوره من يشاء . إذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره ، فقد شبه المخلوق به ومنها

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٨٥

التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به ومنها الحلف باسمه تعظيما واجلالا ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه . واما فى جانب التشبه به فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى اطرائه فى المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفا ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه فى ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيقة بان يهينه غاية الهوان ويذله غاية الذل ، ويجعله تحت اقدام خلقه وفى الصحيح عنه ﷺ قال ﴿ يقول الله عز وجل : العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحدا منها عذبته ﴾[1] وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذابا يوم القيامة لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والالهية كما قال النبى ﷺ : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون . يقال لهم : احيوا ما خلقتم)[2] .

وفى الصحيحين عنه ﷺ انه قال : (قال الله عز وجل : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة »[3] فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر والمقصود ان هذا حال من تشبه به فى صنعة صوره ، فكيف حال من تشبه به فى خواص ربوبيته وإلهيته . وكذلك من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ونحوه . وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ انه قال : (إن اخنع الاسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك إلا الله)[4] وفى لفظ أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الاملاك)[5] فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده ، وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذى يحكم على الحكام كلهم ويقضى عليهم كلهم لا غيره .

فصل

إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسىء به الظن قد ظن به خلاف كما له المقدس ، فظن به ما يناقض اسماءه وصفاته ، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ﴾[6]

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾[7] وقال تعالى عن خليله إبراهيم ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أإفكا آلهة دون الله

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب البر حديث رقم ١٣٦ ، وأبو داود فى كتاب اللباس رقم ٢٥ ، وابن ماجه فى ابواب الزهد رقم ١٦ ، واحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ٤٢٧ ٤٤٢ ٦ / ١٩

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب اللباس رقم ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ والترمذى فى أبواب المواقيت رقم ١٤٩

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التوحيد رقم ٥٦ ، واحمد ٢ / ٢٣٢ ، ٢٥٩ ، ٣٩١ ، ٤٥١ ، ٥٢٧ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب رقم ١١٤ ، وأبو داود فى كتاب الأدب رقم ٦٢ ، والترمذى فى أبواب الأدب رقم ٦٦ ، وأحمد ٢ / ٢٤٤

(٥) الحديث رواه احمد ٢ / ٣١٥

(٦) سورة الفتح الآية رقم ٦

(٧) سورة فصلت الآية رقم ٢٣

تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾(١) أى فما ظنكم ، اى يجازيكم به إذا لا قيتموه وقد عبدتم غيره ، وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره ، وما ظننتم باسمائه وصفاته وربوبيته من النقص ، حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ، فلو ظننتم به ما هو أهله من انه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وانه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافى لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته فلا يحتاج فى رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم وإلى من يسترحمهم وإلى من يستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم ، فأما القادر على كل شيء الغنى عن كل شيء الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شيء فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقض لحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء ، وهذا يستحيل ان يشرعه لعباده ويمتنع فى العقول والفطر ، وقبحه مستقر فى الفطر السليمه فوق كل قبيح ، يوضح هذا ان العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له ورب تعالى وحده هو الذى يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع ، وهذا خالص حقه فمن اقبح الظلم ان يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه ولا سيما الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى :

﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾(٢) أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكا له فى رزقه ، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا به متفرد ، وهو الالهية التى

لا تنبغى لغيرى ولا تصح لسوائى فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ، ولا عظمنى حق عظمتى ولا أفردنى بما انا متفرد به وحدى دون خلقى ، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى : ﴿ يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾(٣) إلى قوله ﴿ لقوي عزيز ﴾ . فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وان يسلبهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدروا على الاستعاذة منه . قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ﴾(٤) فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه فى عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال : انه لم يرسل إلى خلقه رسولا ، ولا أنزل كتابا ، بل نسبه إلى ما لايليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى وخلقهم باطلا عبثا ، وكذا ما قدره حق قدره من نفى حقائق اسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم . ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته

(١) سورة الصافات الآيات رقم ٨٥ - ٨٧
(٢) سورة الروم الآية رقم ٢٨
(٣) سورة الحج الآيتان ٧٣ ، ٧٤
(٤) سورة الزمر الآية رقم ٦٧

ومشيئته ، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب ، فيكون فى ملكه ما لا يشاء ويشاء مالا يكون ، فتعالى عن قولة أشباه المجوس علوا كبيرا ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال أيعاقب عبده على ما لا يفعله عبده ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البته ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله ، فهو سبحانه الذى جبر العبد عليه،وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق ، وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول ان السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه وإليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة ، ثم يعاقب عليه . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقول هؤلاء شر من أشباه قول المجوس . والطائفتان ما قدر الله حق قدره ، وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله فى كل مكان ، وصانه عن عرشه ان يكون مستويا عليه ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وتعرج الملائكة والروح،وتنزل من عنده وتدبر الأمر من السماء الى الأرض ، ثم تعرج اليه فصانه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله فى كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان ان يكون فيه ، وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه ، وغضبه ومقته ، ولا من نفى حقيقة حكمته التى هى الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة مجيئه واتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسى من جانب الطور ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التى نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره ، وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدا ، وجعله سبحانه يحل فى جميع مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود ، وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع اعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم ، وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعزو وضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته،أهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا ، وهذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب . تعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا ، وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى فى رب العالمين ، انه ارسل ملكا ظالما فادعى النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت ، ويقول : قال كذا وامر بكذا ، ونهى عن كذا . وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ويستبيح دماء اتباعهم وأموالهم وحريمهم ويقول : الله اباح لى ذلك والرب تعالى يظهره ويؤيده ، ويعليه ويقربه ، ويجيب دعواته ويمكنه ممن يخالفه ، ويقيم الأدلة على صدقه ولا يعاديه أحد إلا ظفر به ، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره وتحدث ادلة تصديقه شيئا بعد شيء إلى يوم القيامة،ومعلوم ان هذا يتضمن أعظم القدح والطعن فى الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته تعالى الله عن قول الجاحدين . علوا كبيرا . فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر :

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا يتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز ان يعذب أولياءه ، ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وان كل الامرين بالنسبة إليه وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فمعناه

للخبر لا للمخالفة حكمته وعدله ، وقد أنكر سبحانه فى كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الانكار وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام ، وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم انه لا يحيى الموتى ، ولا يبعث من فى القبور ، ولا يجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه بإحسانه ، والمسىء فيه بإساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين المشاق فى هذه الدار من أجله وفى مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذين يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين،وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه امره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله فلله الفضلة من قلبه وعلمه ، وقوله وعمله وماله وسواه المقدم فى ذلك ، لأنه المهم عنده يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهو فى قبضته وناصيته بيده ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، ويستخفى من الناس ولا يستخفى من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام فى خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام فى حق ربه ان ساعده القدر قام قياما لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحى ان يواجه به مخلوقا مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ، وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه فى محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ، فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكا فى ذلك لكان ذلك جراءة وتوثبا على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغى ولا يصلح إلا له سبحانه ، فكيف وإنما اشرك معه أبغض الخلق اليه واهونهم عليه وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ، فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان . كما قال تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان . إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم** ﴾(١) .

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعا . ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون** ﴾(٢)

فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم انه ملك كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهى التى تخاطبهم وتقضى لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان ، فإنه يزعم انه يعبد من امره بعبادته وعبادة امه ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم . لعنة الله عليه لا عبد الله ورسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عبد مبين . وان اعبدونى هذا صراط مستقيم** ﴾ فما عبد أحد من بنى آدم غير الله كائنا من كان إلا وقعت عبادته

(١) سورة يس الآيتان ٦٠ ، ٦١
(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٠ ، ٤١

للشيطان ، فيستمتع العابد بالمعبود فى حصول أغراضه ، ويستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له وإشراكه مع الله الذى هو غاية رضاء الشيطان ولهذا قال تعالى : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس** ﴾ . اى من اغوائهم واضلالهم ﴿ **وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم** ﴾(١)

فهذه اشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وانه لا يغفره بغير التوبة منه ، وإنه يوجب الخلود فى النار ، وانه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهى عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهاغيره ،كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كمال ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والالهية والعظمة والاجلال ان يأذن فى مشاركته فى ذلك او يرضى به تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فصل

فلما كان الشرك أكبر شىء منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق كان من أكبر الكبائر عند الله ، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده ، والشرك والكبر ينافيان ذلك ، ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ولا يدخلها من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

فصل

ويلى ذلك فى كبر المفسدة القول على الله بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ، فهذا أشد شىء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم اثما عند الله فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ، كما ان من اقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التى استحق بها الملك لكن جعل معه شريكا فى بعض الأمور تقريبا اليه خيرا ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكا هذا امر مستقر فى سائر الفطر والعقول فأين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عباده واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة اعظم له واجلالا،فداء التعطيل هذا الداء العضال الذى لا دواء له ، ولهذا حكى عن امام المعطلة فرعون انه انكر على موسى ما أخبر به من ان ربه فوق السموات ﴿ **ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب اسباب السماوات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا** ﴾ ، واحتج الشيخ ابو الحسن الأشعرى فى كتبه على المعطلة بهذه الآية وقد ذكرنا لفظه فى غير هذا الكتاب ، وهو كتاب اجتماع

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١٢٨

الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية فى اثبات العلوم . والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ، ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيبا بما اخبر به عن نفسه واخبر به عنه رسوله ﷺ عنادا وجهلا ، كانت من اكبر الكبائر ان قصرت عن الكفر وكانت أحب إلى إبليس من كبار الذنوب ، كما قال بعض السلف البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لان المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها ، وقال إبليس لعنه الله : أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكونى بلا اله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الاهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون ، لانهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومعلوم ان المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع ، وفتنة المبتدع فى أصل الدين ، وفتنة المذنب فى الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع قادح فى أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ ، والعاصى ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصي بطىء السير بسبب ذنوبه .

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذى قامت به السموات والأرض وأرسل الله سبحانه رسله ـ صلى الله عليهم وسلم ـ وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، كان أى الظلم من أكبر الكبائر عند الله وكانت درجته فى العظمة بحسب مفسدته فى نفسه وكان قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذى لا ذنب له ، وقد جبل الله سبحانه وتعالى القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه فى مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشده ، وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذات رحمه وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله السعى فى إبقائه ونصيحته ، ولهذا كان أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبى ، ويليه من قتل إماما عادلا ، أو عالما يأمر الناس بالقسط ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصحهم فى دينهم وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمدا ، الخلود فى النار ، وغضب الجبار ولعنته واعداد العذاب العظيم له . هذا موجب قتل المؤمن عمدا ما لم يمنع منه مانع ، ولا خلاف ان الاسلام الواقع بعد القتل طوعا واختيارا مانع من نفوذ ذلك الجزاء ، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه . فيه قولان للسلف والخلف وهما روايتان عن احمد ، والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا انه حق لآدمى لم يستوفه فى دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلابد ان يستوفى له فى دار العدل . قالوا فما استوفاه الوارث ، فإنما استوفى محض حقه الذى خيره الله بين استيفائه والعفو عنه وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ، وأى استدراك بظلامته حصل له باستيفاء وارثه ، وهذا اصح القولين فى المسألة ان حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهى وجهان لاصحاب الشافعى واحمد وغيرهما ، ورأت طائفة انه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها ، والذنب الذى قد جناه قد اقيم عليه حده ، قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثما من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ، وقد

قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أولياءهم وفتنوهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة ، وقال تعالى : ﴿ ياعبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾[1] وهذا فى حق التائب وهى تتناول الكفر فما دونه . قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع لله وجزائه ، قالوا وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول ، فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث والتحقيق فى المسألة ان القتل يتعلق به ثلاثة حقوق : حق الله ، وحق للمظلوم المقتول وحق للولى ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعا واختيارا إلى الولى ، ندما على ما فعل ، وخوفا من الله ، وتوبة نصوحا يسقط حق الله بالتوبة ، وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح او العفو وبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا ، وأما مسألة المال فقد اختلف فيها . فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من مال إلى الوارث فقد برىء من عهدته فى الآخرة ، كما برىء منها فى الدنيا . وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلماته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه به فى طول حياته ، ومات ولم ينتفع به ، فهذا ظلم لم يستدركه وإنما ينتفع به غيره بإدراكه ، وبنوا هذا على انه لو انتقل من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة للجميع ، لانه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث ، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد ، وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من اخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذ حتى مات صارت المطالبة به للوارث فى الآخرة ، كما هى له كذلك فى الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه واخذه بل حال بينه وبينه ظلما وعدوانا فالطلب له فى الآخرة ، وهذا التفصيل من أحسن ما يقال فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر أخذه منه ، صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل وداره التى احرقها غيره وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره ، ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث فى حق المطالبة لمن تلف على ملكه ، فينبغى أن يقال ، فإذا كان المال عقارا وأرضا أو أعيانا قائمة باقية بعد الموت ، فهى ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، وإذا لم تدفع إليه أعيان ما له استحق المطالبة بها عند الله تعالى ، كما يستحق المطالبة بها فى الدنيا ، وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال المطالبة لهما جميعا كما لو غصب مالا مشتركا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقهم منه ، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ولم يكن بعضهم اولى بها من بعض والله أعلم .

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣

جميعا ﴾[١] وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقالوا معلوم ان إثم قاتل مائة أعظم إثما عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوا من ظنهم ان التشبيه فى مقدار الاثم والعقوبة،والقول لم يدل على هذا ولا يلزم من تشبيه الشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾[٣] وذلكُ لا يوجب ان لبثهم فى الدنيا إنما كان هذا المقدار وقد قال النبى ﷺ : (من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله)[٤] اى مع العشاء كما جاء فى لفظ آخر وأصرح من هذا قوله : من صام رمضان وأتبعه ستة من شوال فكأنما صام الدهر)[٥] وقوله ﷺ من قرأ قل هو الله فكأنما قرأ ثلث القرآن)[٦] ومعلوم ان ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به . فيكون قدرها سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى الفجر والعشاء فى جماعة فى قيام الليل منفعة غير التعب والنصب ، وما أوتى احد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فإن قيل ففى اى شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعا ، قيل : فى وجوه متعددة:أحدها ان كل واحد منهما عاص لله ورسوله ﷺ ، مخالف لأمره متعرض لعقوبته،وكلا منهما قد باء بغضب من الله ولعنته واستحقاق الخلود فى نار جهنم واعدلهم عذابا عظيما ، وان تفاوتت درجات العذاب فليس إثم من قتل نبيا أو إماما عادلا أو عالما يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لا مزية له من آحاد الناس . الثانى انهما سواء فى استحقاق ازهاق النفس ، الثالث انهما سواء فى الجراءة على سفك الدم الحرام فإن من قتل نفسا بغير استحقاق بل لمجرد الفساد فى الأرض ولأخذ ماله فإنه يجترىء على قتل كل من ظفر به وامكنه قتله ، فهو معاد للنوع الانسانى ، ومنها انه يسمى قاتلا أو فاسقا أو ظالما أو عاصيا بقتله واحدا ، كما يسمى ذلك بقتله الناس جميعا ، ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . فإذا اتلف القاتل عضوا من ذلك الجسد فكأنما اتلف سائر الجسد وآلم جميع أعضائه فمن آذى مؤمنا واحدا فقد آذى جميع المؤمنين وفى اذى جميع المؤمنين اذى جميع الناس كلهم ، فإن الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم فإيذاء الخفير إيذاء المخفر وقد قال النبى ﷺ : - (لا تقتل النفس ظلما بغير حق إلا كان على ابن ادم الأول كفل منها،لأنه أول من سن القتل ولم يجىء هذا الوعيد فى أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر .

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٢
(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٦
(١) سورة الأحقاف آية رقم ٣٥
(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاذان رقم ٣٤ ، ومسلم فى كتاب المساجد حديث رقم ٢٦٠ ، والترمذى فى ابواب الصلاة رقم ٢٨ ،واحمد ١ / ٥٨ ، ٦٨
(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الصوم رقم ٥٩ ، وفى كتاب النكاح رقم ١ ، ومسلم فى كتاب الصيام حديث رقم ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، والترمذى فى ابواب الصوم رقم ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٥ ، والنسائى فى كتاب الصيام رقم ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، وابن ماجه فى ابواب الصيام / ٣٢ ، واحمد ٥ / ١٤٦ .
(٤) الحديث لفظه :(من قرأ قل هو الله احد فكأنما قرأ بثلث القرآن) رواه احمد والنسائى فى اليوم والليلة عن ابى بن كعب ، أو عن رجل من الانصار- قال الهيثمى بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح)
(المسند ٥ / ١٤١ ،مجمع الزوائد ٧ / ١٤٧ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٧ ط : الحلبى

وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل؛لأنه أول من سن الشرك ، ولهذا رأى النبي - ﷺ - عمرو بن لحي الخزاعي يعذب أعظم العذاب في النار ، لأنه أول من غير دين ابراهيم - عليه السلام - وقد قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ (١) ، أي فيقتدي بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها .

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : (يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول يارب سل هذا فيما قتلني فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ﴾ (٢) ثم قال : ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة قال الترمذي : هذا حديث حسن (٣) .

وفي صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال : (أول ما ينتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم ألا يأكل الا طيبا فليفعل ومن استطاع الايحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل)(٤)

وفي جامع الترمذي عن نافع قال : (نظر عبد الله بن عمر يوما الى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك) قال الترمذي هذا حديث حسن .

وفي صحيح البخاري - أيضا - عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ - : (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه مالم يصب دما حراما) (٥) .

وذكر البخاري أيضا عن ابن عمر قال : (من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه : (سباب المؤمن فسوق . وقتاله كفر) (٦) .

وفيهما أيضا عنه - ﷺ - (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) (٧) .

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ : (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها يوجد مسيرة

---

(١) سورة البقرة الآية : ٤١

(٢) سورة النساء من الآية : ٩٣

(٣) الحديث في سنن الترمذي « أبواب تفسير القرآن » ج٤ ص٣٠٦ - ٣٠٧ عن ابن عباس بلفظ « يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول : يارب قتلني هذا حتى يدنيه من العرش ، قال : فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية . . » الخ وقال : هذا حديث حسن .

(٤) صحيح البخاري كتاب الاحكام - باب من شاق شق الله عليه » من حديث طويل « من سَمَّعَ الله به يوم القيامة . . الخ عن جندب .

(٥) الترغيب والترهيب . . كتاب الحدود . . باب الترهيب من قتل النفس . . الخ ج٣ ص٢٩٢ حديث رقم ٤ وهذا جزء من حديث ابن عمر . ثم قال المنذري : رواه البخاري والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

(٦) الترغيب والترهيب كتاب الادب وغيره باب« الترهيب من السباب واللعن . . الخ » ج٣ ص٤٦٦ الحديث رقم ٢ عن ابن مسعود - رضي الله عنه - بلفظه . .

(٧) صحيح البخاري كتاب العلم - باب « الانصات للعلماء » ج١ ص٤١ عن جرير ان النبي - ﷺ - قال له في حجة الوداع : استنصت الناس فقال : لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .
وانظر سنن الترمذي كتاب الفتن ابواب القدر ج٣ ص٣٢٩ حديث رقم ٢٢٨٩ .

أربعين عاما)[١] ..

هذه عقوبة قاتل عدو الله اذا كان معاهدا فى عهده وامانه فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن .

واذا كانت امرأة قد دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا فرآها النبى - ﷺ - فى النار والهرة تخدشها فى وجهها وصدرها . فكيف عقوبة من حبس مؤمنا حتى مات بغير جرم . وفى بعض السنن عنه - ﷺ - (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق) .

﴿ مفسدة الزنا ﴾

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته واخته وأمه وفى ذلك خراب العالم ، كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر ولهذا قرنه الله - سبحانه - بها فى كتابه ورسوله - ﷺ - فى سننه . قال الامام احمد ولا أعلم بعد قتل النفس شيئا أعظم من الزنا وقد أكد الله سبحانه حرمته بقوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلٰهًا آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ [٢] ، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود فى النار وفى العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجبَّ ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ [٣] . فأخبر عن فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى قد تناها قبحه حتى استقر فحشه فى العقول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودى قال : رأيت فى الجاهلية قردا زنا بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا) [٤] ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا فانه سبيل هلكة وبوار وافتقار فى الدنيا وسبيل عذاب فى الأخرة وخزى ونكال ، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له الى الفلاح بدونه فقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ الى قوله : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ [٥] . وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وانه من الملومين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح واستحق اثم العدوان ، ووقع فى اللوم ،

---

(١) « الترغيب والترهيب » كتاب الحدود باب « من قتل معاهداً .. الخ ج٣ ص٢٩٨ ، حديث رقم ٢٣ عن عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظه . وقال المنذرى : رواه البخارى واللفظ له ، والنسائى إلا انه قال : من قتل قتيلا من أهل الذمة » وانظر البيهقى ج٨ ص١٣٣ باب ما جاء فى اثم من قتل ذميا .. الخ بزيادة « بغير حق » وقال رواه البخارى فى الصحيح عن قيس بن جعفر .. الخ

(٢) سورة الفرقان من الآية : ٦٨

(٣) سورة الاسراء الآية : ٣٢

(٤) صحيح البخارى « القسامة فى الجاهلية » ح٥ ص٥٦ عن عمرو بن ميمون بلفظ قال : «رأيت فى الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم »

(٥) سورة المؤمنون الآيات من ١ - ٧

فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ، ونظير هذا أنه ذم الانسان ، وانه خلق هلوعا لا يصبر على شر ولا خير ، بل اذا مسه الخير منع وبخل ، واذا مسه الشر جزع إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر عنهم ﴿ **الذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ وأمر الله - تعالى - نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾[1] . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج فإن الحوادث مبدؤها من النظر كما أن معظم النار مبدؤها من مستغر الشرر .

﴿ أثر المعاصى ﴾

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله فمنها :

حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب ، والمعصية تطفىء ذلك النور ، ولما جلس الامام الشافعى بين يدى مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وقور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال : إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعـاصى

وقال : اعلم بان العلم فضل ... وفضل الله لا يؤتاه عاصى

ومنها حرمان الرزق :

وفى المسند أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه و، تقدم ولما أن كانت تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصى .

ومنها وحشة يجدها العاصى فى قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذة ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به إلا من فى قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلو لم يكن ترك الذنوب إلا حذرا من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حريا بتركها ، وشكا رجل الى بعض العارفين وحشة يجدها فى نفسه فقال له :

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب فالله المستعان .

ومنها الوحشة التى تحصل له بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما يبعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته

(١) سورة غافر الآية : ١٩

وولده وأقاربه وبيته وبين نفسه ، فتراه مستوحشا من نفسه وقال بعض السلف : إنى لأعصى الله فأرى ذلك فى خلق دابتى وامرأتى ،

وفى تعسير أموره عليه . فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه .

وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا ، فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسرا .

ويالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى .

ومنها ظلمة يجدها فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم اذا ادلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع فى البدع والضلالات والأمور المهلكة . وهو لا يشعر كأعمى أخرج فى ظلمة الليل يمشى وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا فى الوجه حتى يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : ان للحسنة ضياء فى الوجه ونورا فى القلب ، وسعة فى الرزق ، وقوة فى البدن ، ومحبة فى قلوب الخلق .

وان للسيئة سوادا فى الوجه ، وظلمة فى القبر والقلب ووهنا فى البدن ، ونقصا فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق .

ومنها أن المعاصى توهن القلب والبدن ، وأما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا يزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية ، وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه .

وأما الفاجر فانه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة ، فتخونه قوته عند أحوج ما يكون الى نفسه ، فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم . ومنها حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا انه يصد عن طاعة تكون بدله ، ويقطع طريق طاعة اخرى فينقطع عليه طريق ثالثة ، ثم رابعة ، وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة ، منعته من عدة أكلات أطيب منها . والله المستعان .

ومنها أن المعاصى تقصر العمر وتمحق بركته ولابد فإن البر كما يزيد فى العمر فالفجور ينقص .

وقد اختلف الناس فى هذا الموضع فقالت طائفة : نقصان عمر العاصى هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه ، وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصى .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه للبركة فى الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة فى العمر أسباب تكثره وتزيده قالوا : ولاتمنع زيادة العمر بأسباب ، كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق ، والآجال ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والغنى ، والفقر ، وان كانت بقضاء الله ـ عز وجل ـ فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصي فى محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة ، وهى حياة القلب ، ولهذا جعل الله ـ سبحانه وتعالى . . الكافر ميتا غير حى ، كما قال سبحانه ﴿ أموات غير أحياء ﴾[1] فالحياة فى الحقيقة حياة القلب ، وعمر الانسان مدة حياته ، فليس عمره إلا أوقات حياته ، بالله ، فتلك ساعات عمره .

فالبر والتقوى والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ولا عمر له سواها .

وبالجملة فالعبد اذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غب إضاعتها يوم يقول :﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾[2] فلا يخلو اما أن يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا ، فان لم يكن له تطلع الى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلا ، وان كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضرارها ، وذلك نقصان حقيقى من عمره .

وسر المسألة ان عمر الانسان مدة حياته ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وايثار مرضاته .

ومنها أن المعاصى تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة سيئة بعدها ، وان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها .

فالعبد اذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها : اعملنى أيضا ، فاذا عملها قالت الثانية . . كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك كانت السيئات . أيضا حتى تصير الطاعات والمعاصى هيئات راسخة ، وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ، فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها ، حتى ان كثيرا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانىء حيث قال :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر :

وكانت دوائى وهى دائى بعينه ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله ـ سبحانه ـ برحمته عليه الملائكة تأزه اليها أزا ، وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ، ومجلسه اليها ، ولا يزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله اليه الشياطين فتأزه اليها أزا ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد فكانوا اكثر من أعوانه ، وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه .

---

(١) سورة النحل من الاية : ٢١
(٢) سورة الفجر من الاية : ٢٤

ومنها وهو من أخوفها على العبد أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا الى أن تنسلخ من قلبه ارادة التوبة بالكلية ، فلو مات نصفه لما تاب الى الله ، فيأتى بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشىء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصر عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنه ، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها الى الهلاك .

ومنها ان ينسخ من القلب استقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه ، وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يافلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب كما قال النبى - ﷺ - (كل أمتى معافى إلا المجاهرين وان من الاجهار ان يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول : يافلان عملت البارحة يوم كذا وكذا فتهتك نفسه وقد بات يستره ربه)[١] .

ومنها أن كل معصية من المعاصى فهى ميراث عن أمة من الأمم التى أهلك الله - عز وجل - فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب ، والعلو فى الأرض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود . فالعاصى لابس ثياب بعض هذه الأمم وهم أعداء الله .

وقد روى عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : أوحى الله الى نبى من أنبياء بنى اسرائيل أن قل لقومك لا تدخلوا مداخل أعدائى ، ولا تلبسوا ملابس أعدائى ، ولا تركبوا مراكب أعدائى ، ولا تطعموا مطاعم أعدائى ، فتكونوا أعدائى، كما هم أعدائى .

وفى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبى - ﷺ - قال : (بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم)[٢] .

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم واذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى : ﴿ **ومن يهن الله فماله من مكرم** ﴾[٣] . وان عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم اليهم أو خوفا من شرهم لهم فى قلوبهم أحقر شىء وأهونه .

ومنها ان العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه وتصغر فى قلبه وذلك علامة الهلاك فان الذنب كلما صغر فى عين العبد عظم عند الله .

---

(١) الحديث فى رياض الصالحين-باب ستر عورات المسلمين والنهى عن اشاعتها لغير ضرورة-ص١٢٦ ولفظه ، عن ابى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كل أمتى معافى الا المجاهرين ، وان من المجاهرة ان يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يافلان ، عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله » متفق عليه .

(٢) مسند الامام احمد المجلد الثانى ط دار الفكر العربى ص٥٠ بلفظه عن ابن عمر .

(٣) سورة الحج من الآية : ١٨

وقد ذكر البخارى فى صحيح على بن مسعود قال : (ان المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال : هكذا فطار)[١] .

ومنها ان غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال ابو هريرة : ان الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم ، وقال مجاهد : ان البهائم تلعن عصاة بنى آدم اذا اشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم وقال عكرمة : دواب الارض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بنى آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له .

ومنها ان المعصية تورث الذل ولابد ، فان العز كل العز فى طاعة الله ـ تعالى ـ قال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾[٢] . فليطلبها بطاعة الله فانه لا يجدها إلا فى طاعته ، وكان من دعاء بعض السلف (اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلنى بمعصيتك) . قال الحسن البصرى : انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ان ذل المعصية لا تفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك .

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك واحبار سوء ورهبانها

ومنها أن المعاصى تفسد العقل فان للعقل نورا والمعصية تطفىء نور العقل ، ولابد ، واذا طفىء نوره ضعف ونقص ، وقال بعض السلف : ماعصى الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر ، فانه لو حضر عقله لحجزه

عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى أو تحت قهره وهو مطلع عليه وفى داره على بساطه ، وملائكته . شهود عليه ، ناظرون اليه ، وواعظ القرآن ينهاه ، ولفظ الايمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذه بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم .

ومنها ان الذنوب اذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين ، كما قال بعض السلف فى قوله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾[٣] قال:هو الذنب بعد الذنب وقال

---

(١) شرح السنة للامام البغوى كتاب الدعوات ـ باب التوبة ـ ج٥ ص٨٦ ط/ المكتب الاسلامى عن الحاريث بن سويد قال : دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض ، فحدثنا بحديثين:حديث عن نفسه ، وحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « ان المؤمن يرى ذنوبه كانه فى أصل جبل يخاف ان يقع ، وان الفاجر يرى ذنوبه مثل ذباب مر على أنفه فذبه عنه ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : لله أشد فرحا بتوبة عبده ... الخ

وانظر صحيح البخارى ج١١ ص١٠٢ باب التوبة حديث رقم ٦٣٠٨ مع اختلاف فى بعض الفاظه .

(٢) سورة فاطر من الآية : ١٠

(٣) سورة المطففين آية : ١٤

الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم ، وأصل هذا ان القلب يصدى من المعصية فاذا زادت غلب الصدى حتى يصير رانا ثم يغلب حتى يصير طبعا وقفلا وختما ، فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد . .

ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ـ ﷺ ـ فانه لعن على معاص والتى غيرها اكبر منها ، فهى أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة،والواصلة والموصلة،والنامصة والمتنمصة،والواشرة والمستوشرة ، ولعن أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده ، ولعن المحلل والمحلل له ، ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة اليه ، ولعن من غير منار الأرض وهى اعلامها وحدودها ، ولعن من لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا يرميه بسهم ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثا أو آوى محدثا ، ولعن المصورين ، ولعن من عمل عمل قوم لوط ، ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كمه أعمى عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من رسم دابة فى وجهها،ولعن من ضار بمسلم أو مكر به ، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ، ولعن من أتى امرأة فى دبرها ، وأخبر ان من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب الى غير ابيه ، وأخبر ان من أشار الى اخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه ، ولعن من سب الصحابة ، وقد لعن الله من أفسد فى الأرض وقطع رحمه واذاه وأذى رسوله ، ولعن من كتم ما انزل الله ـ سبحانه ـ من البينات والهدى ، ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة ، ولعن من جعل سبيل الكافر أهدى من سبيل المسلم ، ولعن رسول الله ـ ﷺ ـ الرجل يلبس لباس المرأة ، والمرأة تلبس لباس الرجل ، ولعن الراشى والمرتشى والرائش وهو الواسطة فى الرشوة ، ولعن على اشياء أخر غير هذه لولم يكن فى فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان فى ذلك ما يدعو الى تركه .

ومنها حرمان دعوة رسول الله ﷺ ـ ودعوة الملائكة فان الله ـ سبحانه ـ أمر نبيه ان يستغفر للمؤمنين والمؤمنات .

وقال تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ (١) . فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرها فلا يطمع غير هؤلاء باجابة هذه الدعوة اذا لم يتصف بصفات المدعو له بها .

---

(١) سورة غافر الآيات : ٧ ، ٨ ، ٩

ومن عقوبات المعاصي ـ ما رواه البخاري في صحيحه من حديث سمره بن جندب قال : (كان النبي ـ ﷺ ـ مما يكثر ان يقول لأصحابه : هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا فيقص عليه ما شاء الله ان يقص وانه قال لنا ذات غداة : انه أتاني الليلة آتيان وأنهما انبعثا لي وانهما قالا لي : انطلق واني انطلقت معهما وإنا اتينا على رجل مضطجع واذا آخر قائم عليه بصخرة واذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع اليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى قال : قلت لهما : سبحان الله ما هذان ؟ قالا لي : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه واذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد واذا هو يأتي احد شقي وجهه فيشرشر شدقه الى قفاه،ومنخره الى قفاه،وعينه الى قفاه ثم يتحول الى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى ، قال : سبحان الله ما هذان ؟ فقال لي : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور واذا فيه لغط وأصوات قال : فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة واذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فاذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا فقال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : فقالا لي : انطلق انطلق قال : فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فاذا في النهر رجل سابح يسبح واذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة واذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق فيسبح ثم يرجع اليه كما رجع اليه فيفغر له فاه فيلقمه حجرا قال : قلت لهما : ما هذان ؟ قالا لي : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآى كأكره ما أنت راء رجلا مرآه،واذا هو عنده نار يحشها ويسعى حولها قال : قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالا لي : انطلق انطلق فانطلقنا على روضة مغيمة فيها من كل نور الربيع واذا بين ظهراني الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء واذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال : قلت : ما هذا ؟ وما هؤلاء ؟ قال : قالا لي : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن قال : قالا لي : ارق فيها فارتقينا فيها الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال : فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فد خلناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر منهم كأقبح ما أنت راء قال لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر قال : واذا نهر معترض يجرى كان ماءه المحض في البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم قال : قالا لي : هذه جنة عدن وهناك منزلك قال : فسما بصرى صعدا فاذا قصر مثل الربابة البيضاء قال : قالا لي : هذاك منزلك .

قال : قلت لهما : بارك الله فيكما فذراني أدخله قالا : أما الآن فلا،وأنت داخله قال : قلت لهما : فإني رأيت منذ الليلة عجبا فما هذا الذي رأيت قال : قالا لي : أما إنا سنخبرك ، أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة ، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق ، وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور فانهم الزناة والزواني ، وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا ، وأما الرجل

الكريه المنظر الذى عند النار يحثها ويسعى حولها ، فانه مالك خازن جهنم ، وأمآ الرجل الطويل الذى فى الروضة فانه ابراهيم ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة - وفى رواية البرقانى - ولد على الفطرة . فقال بعض المسلمين : يارسول الله ، وأولاد المشركين فقال رسول الله - ﷺ - وأولاد المشركين ، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم ﴾[1] .

ومن آثار الذنوب والمعاصى انها تحدث فى الأرض انواعا من الفساد فى المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ قال مجاهد : اذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد فيحس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾[2] . ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر أما انى لا أقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء ، وقال قتادة : اما البر فأهل العمور وأما البحر فأهل القرى والريف قلت : وقد سمى الله - تعالى - الماء العذب بحرا فقال : ﴿ **وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج** ﴾[3] . وليس فى العالم بحر حلو واقفا وانما هى الأنهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التى على المياه الجارية باسم تلك المياه ، وقال ابن زيد : ظهر الفساد فى البر والبحر قال : الذنوب ، قلت : أراد ان الذنب سبب الفساد الذى ظهر وان أراد ان الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله : ﴿ **ليذيقهم بعض الذى عملوا** ﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصى العباد فكل ما أحدثوا ذنبا أحدث لهم عقوبة كما قال بعض السلف كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة ، والظاهر - والله أعلم - ان الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **ليذيقهم بعض الذى عملوا** ﴾ فهذا حالنا وانما أذاقنا الشىء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

ومن تأثير المعاصى فى الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله - ﷺ - على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من أبيارهم حتى أمر الا يعلف العجين الذى عجن بمياههم لنواضح الابل لتأثير شؤم المعصية فى الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات .

وقد ذكر الامام احمد فى مسنده فى ضمن حديث قال : وجدت فى خزائن بعض بنى أمية حنطة الحبة بقدر نواة الثمر وهى فى صبرة مكتوب عليها كان هذا ينبت فى زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله - سبحانه وتعلى - بما أحدث العباد من الذنوب .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الجنائز ج ٢ ص١٢٥ وما بعدها ورد الحديث عن سمره بن جندب مع اختلاف فى اللفظ .
(٢) سورة الروم الآية : ٤١
(٣) سورة الفرقان من الآية : ٥٣

وأخبرنى جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هى الآن ، وكثير من هذه الآفات التى تصيبها لم يكونوا يعرفونها . . وانما حدثت من قرب ، وأما تأثير الذنوب فى الصور والخلق فقد روى الترمذى فى جامعه عن النبى ـ ﷺ ـ انه قال :(خلق الله آدم وطوله فى السماء ستون ذراعا[1] ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فاذا أراد الله ان يطهر الأرض من الظلمة والخونة والفجرة أخرج عبدا من عباده من أهل بيت نبيه ـ ﷺ ـ فيملأ الارض قسطا كما ملئت جورا ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذى بعث الله به رسوله وتخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقمة الواحدة يكفى الفئام من الناس وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصى ظهرت فيها آثار البركة من الله ـ تعالى ـ التى محقتها الذنوب والكفر ، ولا ريب ان العقوبات التى أنزلها الله فى الأرض بقية آثارها سارية فى الأرض تطلب ما يشاء ، كلها من الذنوب التى هى آثار تلك الجرائم التى عذبت بها الأمم ، فهذه الآثار فى الأرض من آثار العقوبات كما أن هذه المعاصى من آثار الجرائم فتناسبت كلمة الله وحكمه الكونى أولا وآخرا وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية ، والأخف للأخف ، وهنا يحكم سبحانه بين خلقه فى دار البرزخ ودار الجزاء ، وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ، ولما أثرت طاعته فى الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شىء من الروح والرحمة والبركة .

ومن عقوباتها : انها تطفىء من القلب نار الغيرة التى هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن ، فان الغيرة حرارته وناره التى تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد ، وأشرف الناس وأعلاهم قدرا وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبى ـ ﷺ ـ أغير الخلق على الأمة ، والله ـ سبحانه ـ أشد غيرة منه كما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ انه قال :(اتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير منى)[2] وفى الصحيح ايضا عنه انه قال ـ ﷺ ـ فى خطبة الكسوف (يا أمة محمد ، ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته)[3] وفى الصحيح ـ أيضا ـ عنه ـ انه قال : (لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا احد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك ارسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد احب اليه المدح من الله من أجل ذلك اثنى على نفسه)[4] فجمع فى هذا الحديث بين الغيرة التى أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الذى يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان . والله ـ سبحانه ـ

---

(١) مسند الامام احمد ج٢ ص٣١٢ ورد الحديث عن ابى هريرة بلفظ : « خلق الله ـ عز وجل ـ آدم على صورته طوله ستون ذراعا . . الخ

وانظر كنز العمال ج٦ ص١٢٩ حديث رقم ١٥١٢٩ وعن ابى هريرة بلفظ « خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعا . . الخ » .

(٢) صحيح البخارى ج٧ ص٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظه .

وانظر مسند الامام احمد ج٤ ص٢٤٨ ورد الحديث عن المغيرة بن شعبه مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) صحيح البخارى ج٧ ص٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظ « يا أمة محمد ما أحد أغير من الله ان يزنى عبده أو أمته

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٣٨١

مع شدة غيرته يحب ان يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه ، وانه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر اليهم ، ولاجل ذلك ارسل رسله وانزل كتبه اعذارا وانذارا وهذا غاية المجد والاحسانٌ ونهاية الكمال فان كثيرا ممن تشتد غيرته من تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعذار منه ، ومن غير قبول العذر ممن اعتذر إليه ، بل قد يكون له فى نفس الأمر عذر ولاتدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره ، وكثير ممن تقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع فى طرق المعاذير ويرى عذرا ما ليس بعذر حتى يعذر كثير منهم بالعذر . وكل منهما غير ممدوح على الاطلاق ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : (إن من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغضها الله ، فالتى يبغضها الله الغيرة من غير ريبة ﴾[1] وذكر الحديث وإنما الممدوح اختزان الغيرة بالعذر فيغار فى محل الغيرة ويعذر فى موضع العذر ، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقا .

ولما جمع ـ سبحانه ـ صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغى له بل هو مدح نفسه وأثنى على نفسه ، فالغيور قد وافق ربه ـ سبحانه ـ فى صفة من صفاته ، ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة اليه بزمامه وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوبا له ، فانه ـ سبحانه ـ رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء ، عليم يحب العلماء ، قوى يحب المؤمن القوى وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف ، حتى يحب أهل الجفاء ، جميل يحب ما يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ، ولو لم يكن فى الذنوب والمعاصى الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطرة تنقلب وسوسة ، والوسوسة تصير إرادة ، والارادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلا ، ثم تصير صفة لازمة ، وهيئة ثابتة راسخة ، وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به ، والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس ، وقد تضعف فى القلب حدا لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ، ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك ، وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه إليه ويحثه عليه ويسعى له فى تحصيله ، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه لغيره ، فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح فتدفع السوء والفواحش ، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ، ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل

(١) السنن الكبرى للبيهقى ج٩ ص١٥٦ كتاب السر ـ باب الخيلاء فى الحرب ـ ورد الحديث عن جابر بن عتيك بلفظ : « ان من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغض الله ، فاما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، وأما الغيرة التى يبغض فالغيرة فى غير ريبة .. الخ

قابلا ولم يجد دافعا فتمكن فكان الهلاك ، ومثلها مثل صياصي الجاموس التى تدفع بها عن نفسه وعن ولدها فاذا تكسرت طمع فيها عدوها .

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذى هو مادة الحياة للقلب ، وهو أصل كل خير،وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفى الصحيح عنه ـ ﷺ ـ انه قال :(الحياء خيركله)[1]وقال : (ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت)[2]وفيه تفسيران : أحدهما : انه على التهديد والوعيد والمعنى من لم يستح فانه يصنع ما شاء من القبائح ، اذ الحامل على تركها الحياء ، فاذا لم يكن هناك حياء نزعه عن القبائح فانه يوافقها . وهذا تفسير ابى عبيدة والثانى : ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذى ينبغى تركه ما يستحى فيه من الله ، وهذا تفسير الامام احمد فى رواية ابن هانى فعلى الاول : يكون تهديدا كقوله :﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾[3]وعلى الثانى : يكون اذنا واباحة . فان قيل:فهل من سبيل الى حمله على المعنيين ؟ قلت : لا ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار احد المعنيين يوجب اعتبار الآخر ، والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى ربما انه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبيح ما يفعله،والحامل على ذلك انسلاخه من الحياء ، واذا وصل العبد الى هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع واذا رأى ابليس طلعة وجهه حياه وقال : فديت من لا يفلح .

والحياء مشتق من الحياة والغيث سمى حيا بالقصر،لان به حياة الأرض والنبات والدواب . وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ميت فى الدنيا شقى فى الآخرة ، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ويطالبه حثيثا ، ومن استحى من الله عند معصيته استحى الله من عقوبته يوم يلقاه ، ومن لم يستح من الله ـ تعالى ـ من معصيته لم يستح الله من عقوبته .

ومن عقوباتها : انها تضعف فى القلب تعظيم الرب ـ جل جلاله ـ وتضعف وقاره فى قلب العبد ولابد شاء أم أبى ، ولو تمكن وقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرأ على معاصيه ، وربما اغتر المغتر وقال : انما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء وطمعى فى عفوه لا ضعف عظمته فى قلبى ، وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله ـ تعالى ـ وجلاله فى قلب العبد وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب ، والمتجرئون على معاصيه ما قدروه حق قدره ، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل ، وكفى بالعاصى عقوبة ان يضمحل من قلبه تعظيم الله ـ جل جلاله ـ وتعظيم حرماته ويهون عليه ، ومن بعض عقوبة هذا ان يرفع الله ـ عز وجل ـ مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس ، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته

---

(١) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج٨ ص٢٦ باب «ما جاء فى الحياء».. ورد الحديث بلفظه عن انس

(٢) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج٨ باب «ما جاء فى الحياء» ص٢٧ ورد الحديث بلفظه عن حذيفة .

(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٠

يعظم الناس حرماته ، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع الا ينتهك الناس حرماته ، ام كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس ، أم كيف يستخف بمعاصى الله ولا يستخف به الخلق وقد أشار ـ سبحانه ـ الى هذا فى كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وانه اركس اربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم وطبع عليها بذنوبهم وانه نسيهم كما نسوه واهانهم كما اهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا امره ، ولهذا قال تعالى : فى آية سجود المخلوقات له : ﴿ ومن يهن الله فماله من مكرم ﴾ (١) . فانهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد ان اهانهم ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من اكرم .

ومن عقوباتها : انها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه ، وهنالك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة قال الله تعالى : ﴿ يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) فأمر بتقواه ونهى ان يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه ، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه ، أى : أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه ، وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها ، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره ، فترى العاصى مهملا لمصالح نفسه مضيعا لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا ، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط فى سعادته الأبدية واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة إنما هى سحابة صيف أو خيال طيف .

أحلام نوم أو كظل زائل ... ان اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن فضيع من لا غنى له عنه ولا عوض له منه ، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض .

من كل شىء اذا ضيعته عوض ... وليس فى الله ان ضيعت من عوض

فالله سبحانه يعوض عن كل شىء ما سواه ولا يعوض منه شىء ، ويغنى عن كل شىء ولا يغنى عنه شىء ، ويمنع من كل شىء ولا يمنع منه شىء ، ويجير من كل شىء ولا يجير منه شىء ، كيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ، وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره ، حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم ، فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه ، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه .

ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين ، فان الاحسان اذا باشر القلب منعه عن المعاصى ، فان من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه

(١) سورة الحج من الآية : ١٨
(٢) سورة الحشر الآيتان : ١٨ ، ١٩

ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك سيحول بينه وبين ارادة المعاصى فضلا عن مواقعتها ، فاذا خرج من دائرة الاحسان فاته صحبة رفقته الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام ، فان اراد الله به خيرا أقره فى دائرة عموم المؤمنين ، فان عصاه بالمعاصى التى تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبى - ﷺ - (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ، اياكم وإياكم والتوبة معروضة بعد) . ومن فاته رفقة المؤمنين خرج عن دائرة الايمان ، فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفاته كل خير رتبه الله فى كتابه على الايمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها .

فمنها الاجر العظيم ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾[١] .

ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾[٢] ومنها استغفار حملة العرش لهم ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾[٣] .

ومنها موالاة الله لهم ولا يذل من والاه الله قال تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾[٤] ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم ﴿ اذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾[٥]. ومنها ان لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[٦] ومنها معية الله لاهل الايمان ﴿ وإن الله مع المؤمنين ﴾[٧] ومنها الرفعة فى الدنيا والآخرة ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[٨] ومنها اعطاهم كفلين من رحمته واعطاهم نورا يمشون به ومغفرة ذنوبهم، ومنها الود الذى يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحببهم الى ملائكته وانبيائه وعباده الصالحين ومنها أمانهم الخوف يوم يشتد الخوف ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٩] ومنها انهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نسأله ان يهدينا الى صراطهم المستقيم فى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة .

ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾[١٠] .

والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير ، وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الايمان ، فكيف يهون على العبد ان يرتكب شيئا يخرجه من دائرة الايمان ، ويحول بينه وبينه ، ولكن لا تخرج من دائرة عموم المسلمين ، فان استمر على الذنوب واصر عليها خيف عليه ان يرين على قلبه فيخرجه عن

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٤٦
(٢) سورة الحج من الآية : ٣٨
(٣) سورة غافر من الآية : ٧
(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٥٧
(٥) سورة الانفال من الآية : ١٢
(٦) سورة المنافقون من الآية : ٨
(٧) سورة الأنفال من الآية : ١٩
(٨) سورة المجادلة من الآية : ١١
(٩) سورة المائدة من الآية : ٦٩
(١٠) سورة فصلت من الآية : ٤٤

الاسلام بالكلية ، ومن هنا اشتد خوف السلف كما قال بعضهم : انتم تخافون الذنوب وانا أخاف الكفر .

ومن عقوباتها انها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطو الى الله خطوة،هذا ان لم ترده عن وجهته الى ورائه ، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر ، وينكس الطالب ، والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التى تسير ، فان زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه والله المستعان .

فالذنب إما يميت القلب ، وإما يمرضه مرضا مخوفا ، أو يضعف قوته ، ولابد حتى ينتهى ضعفه الى الاشياء الثمانية التى استعاذ منها النبى - ﷺ - وهى الهم ، والحزن ، والكسل ، والعجز ، والجبن ، والبخل ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال ، وكل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان فإن المكروه والوارد على القلب ان كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم ، وان كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن . والعجز والكسل قرينان ، فان تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وان كان لعدم ارادته فهو الكسل ، والجبن والبخل قرينان ، فان عدم النفع منه ان كان ببدنه فهو الجبن ، وان كان بماله فهو البخل ، وضلع الدين وقهر الرجال قرينان فان استيلاء الغير عليه ان كان بحق فهو من ضلع الدين ، وان كان بباطل فهو من قهر الرجال .

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية ، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال النعم ، وتحول عافيته وفجاءة نقمته وجميع سخطه .

ومن عقوبات الذنوب انها تزيل النعم وتحل النقم فمازالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال على بن ابى طالب - رضى الله عنه : مانزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء الا بتوبة وقد قال تعالى :﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾(١)وقال تعالى : ﴿ ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾(٢)فاخبر الله تعالى انه لا يغير نعمته التى انعم بها على احد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره واسباب رضاه باسباب سخطه فاذا غير غير عليه جزاء وفاقا﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾(٣)فان غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾(٤)وفى بعض الآثار الالهية عن الرب - تبارك وتعالى - انه قال : ﴿ وعزتى وجلالى لا يكون عبد من عبيدى على ما أحب ثم ينتقل عنه الى ما أكره إلا انتقلت له مما يحب عبدى الى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدى على ما اكره فينتقل عنه الى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره الى ما يحب ﴾ وقد أحسن القائل :

اذا كنت فى نعمة فارعها فان الذنوب تزيل النعم

(١) سورة الشورى من الآية : ٣٠
(٢) سورة الأنفال من الآية : ٥٢
(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٦
(٤) سورة الرعد من الآية : ١١

وحطها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم
واياك والظلم مهما استطعت فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر من الظلم وهو الذى قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن قصور واخرى عليهم أطم
صلوا بالجحيم وفات النعم وكان الذى نالهم كالحلم

ومن عقوباتها : ما يلقيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من الرعب والخوف فى قلب العاصى فلا تراه إلا خائفا مرعوبا فان الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه أمانا ، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف ، فلا تجد العاصى إلا وقلبه كأنه بين جناحى طائرإن حركت الريح الباب قال جاء الطلب ، وان سمع وقع قدم خاف ان يكون نذيرا بالعطب ، يحسب كل صيحة عليه وكل مكروه قاصدا اليه ، فمن خاف الله آمنه من كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلقوا ان المخاوف والاجرام فى قرن

ومن عقوباتها : انها توقع الوحشة العظيمة فى القلب ، فيجد المذنب نفسه مستوحشا مذ وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبين الخلق وبينه ، وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأنسين ، فلو نظر العاقل ووزان بين لذة المعصية وما يولد فيه من الخوف والوحشة . لعلم سوء حاله وعظيم غبنه ، اذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف . .

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها اذا شئت واستأنس

وسر المسألة : أن الطاعة توجب القرب من الرب ـ سبحانه ـ وكلما اشتد القرب قوى الأنس ، والمعصية توجب البعد من الرب ، وكلما زاد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذى بينهما ، وان كان ملابسا له قريبا منه ، ويجد أنسا قويا بينه وبين من يحب ، وان كان بعيداً عنه ، والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة فالغفلة توجب الوحشة ، وأشد منها وحشة المعصية ، وأشد منها ، وحشة الشرك الكفر ، ولا تجد أحدا يلابس شيئا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب مالابسه منه فتعلوا الوحشة وجهه وقلبه فيستوحش ويستوحش منه .

ومن عقوباتها : انها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه ، فلا يزال مريضا معلولا لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه ، فان تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى

الأبدان ، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ، ولا دواء لها الا تركها ، وقد أجمع السائرون الى الله ان القلوب لا تعطى مناها حتى تصل الى مولاها ، ولا تصل الى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها ، ولايصح ذلك إلا بمخالفة هواها ، وهواها مرضها ، وشفاؤها مخالفته ، فإن استحكم المرض قتل أو كاد ، وكما ان من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، كذلك يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة لايشبه نعيم أهلها نعيم البتة ، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به الا من باشر قلبه هذا وهذا ، ولا تحسب ان قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم ﴾[1] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل فى دورهم الثلاثة كذلك أعنى : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . فهؤلاء فى نعيم ، وهؤلاء فى جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ، وهل العذاب إلا عذاب القلب ، وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وإنقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة ، وكل شىء تعلق به وأحبه من دون الله فانه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئا غير الله عذب به ثلاث مرات فى هذه الدار ، فهو يضرب به قبل حصوله حتى يحصل ، فاذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه . وأنواع المعارضات ، فاذا سلبه اشتد عذابه عليه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار، وأما فى البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجى عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد ، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان فى أبدانهم ، بل عملها فى النفوس دائم مستمر حتى يردها الله الى أجسادها فحينئذ ينتقل العذاب الى نوع هو أدهى وأمر ، فأين هذا من نعيم يرقص قلبه طربا وفرحا وانسا بربه ، واشتياقا اليه ، وارتياحا بحبه ، وطمأنينة بذكره ، حتى يقول بعضهم : فى حال نزعه واطرباه ، ويقول آخر : ان كان اهل الجنة فى مثل هذا الحال انهم لفى عيش طيب ، ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها وما ذاقوا أطيب ما فيها ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : ان فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن وغبن كل الغبن فى هذا العقد وهو يرى انه قد غبن اذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقومين ، فيا عجبا من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذى جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول - ﷺ - وقد بعتها بغاية الهوان .

اذا كان هذا فعله عبد بنفسه فمن ذاله من بعد ذلك يكرم

﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ﴾[2]

---

(١) سورة الانفطار الآيتان : ١٣ - ١٤

(٢) سورة الحج من الآية : ١٨

ومن عقوباتها : أنها تعمى بصر القلب وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية ، وقد قال مالك للشافعى ـ رحمهما الله تعالى ـ لما اجتمع به ورأى تلك المخايل : إنى أرى الله ـ تعالى ـ قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية ، ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب فى مثل الليل البهيم ـ فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر كأعمى خرج بالليل فى طريق ذات مهالك ومعاطب ، فيا عزة السلامة ويا سرة العطب ، ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب الى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها ، فاذا كانت عند الموت ظهرت فى البرزخ فامتلأ القبر ظلمة كما قال النبى ـ ﷺ ـ: (إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة ، وان الله ينورها بصلاتى عليهم.)[١] فاذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علوا ظاهرا يراه كل احد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة فيالها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الى آخرها ، فكيف يقسط العبد المنغص المنكد المتعب فى زمن انما هو ساعة من حلم والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شىء وأحقره كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾[٢]. والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنها قوله تعالى :﴿ يدسه فى التراب ﴾[٣] فالعاصى يدس نفسه فى المعصية ويخفى مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتى به،قد انقمع عند نفسه وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شىء وأكبره وأزكاه وأعلاه ومع ذلك فهى أذل شىء وأحقره وأصغره لله ـ تعالى ـ وبهذا الذل حصل لها هذا الشرف والعز والنمو فما صغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله .

ومن عقوباتها أن العاصى دائما فى أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسير أسوء حالا عن أسير أسره أعدى عدو له ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ، وكيف يخطو خطوة واحدة اذا تقيد القلب طرقته الآفات ، وكلما نزل استوحشه جانب بحسب قيوده ، ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشه الآفات ، وفى الحديث : (الشيطان ذئب الانسان) وكما ان الشاة التى لا حافظ لها وهى بين الذئاب سريعة العطب فكذا العبد اذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولابد ، وانما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى ، فهى وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه ، كما هى وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة ، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب الى الهلاك ، فأجمى ما تكون الشاة اذا قربت من الراعى ، وانما يأخذ الذئب القاصى من الغنم ، وهى أبعدهن من الراعى ، وأصل هذا كله

(١) سنن الدار قطنى كتاب الجنائز باب الصلاة على القبر ج٢ ص٧٧ حديث رقم ٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن انس .
(٢) سورة الشمس الآيتان : ٩ ـ ١٠
(٣) سورة النحل من الآية : ٥٩

أن القلب اذا كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع ، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات ، والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض ، فالغفلة تبعد العبد عن الله ، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة ، وبعد البدعة اعظم من بعد المعصية ، وبعد النفاق والشرك اعظم من ذلك كله .

ومن عقوباتها : سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه ، فان أكرم الخلق عند الله اتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له ، وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده ، فاذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه فأسقطه من قلوب عباده ، واذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوء عيش خامل الذكر ، ساقط القدر ، ذرى الحال ، لا حرمة له ، فلا فرح له ، ولا سرور ، فان خمول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل هم وغم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح ، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة .

ومن أعظم نعم الله على العبد ان يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلى قدره ، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾[1] أى خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار وهو لسان الصدق الذى سأله ابراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث قال : ﴿ **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** ﴾[2] وقال ـ سبحانه وتعالى ـ عنه وعن نبيه : ﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾[3] وقال لنبيه ـ ﷺ ـ ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾[4] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فانه من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم .

ومن عقوباتها : انها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن ، والبر ، والمحسن ، والمتقى ، والمطيع ، والمنيب ، والولى ، والورع ، والصالح ، والعابد ، والخائف ، والأواب ، والطيب ، والرضى ، ونحوها ، وتكسوه اسم الفاجر ، والعاصى ، والمخالف ، والمسىء ، والمفسد ، والخبيث ، والمسخوط ، والزانى ، والسارق ، والقاتل ، والكاذب ، والخائن ، واللوطى ، والغادر ، وقاطع الرحم ، وأمثالها .

فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الايمان التى توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزى والهوان .

وتلك أسماء توجب رضاء الرحمن ودخول الجنان وتوجب شرف المسمى بها على سائر أنواع الانسان ، فلو لم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل ناه عنها ، ولو لم يكن فى ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان فى العقل أمر بها ، ولكن لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا مقرب لمن باعد ، ولا مبعد لمن قرب . ﴿ **ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾[5] .

(١) سورة ص الآيتان : ٤٥ ـ ٤٦
(٢) سورة الشعراء الآية : ٨٤
(٣) سورة مريم الآية : ٥٠
(٤) سورة الشرح الآية : ٤
(٥) سورة الحج الآية : ١٨

ومن عقوباتها : انها تؤثر بالخاصة فى نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل ، وفكره أصح ، ورأيه أسد ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب القرآن انما هو مع أولى الألباب والعقول كقوله : ﴿ واتقون يا أولى الألباب ﴾(١) .

وكقوله : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾(٣) .

ونظائر ذلك كثيرة وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعص من هو فى قضيته وفى داره وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه ، وهو بعينه غير متوار عنه ، ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعى كل وقت غضب عليه ، ولعنته له ، وإبعاده من قربه ، وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه ، وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ، وحرمانه وروح رضاه وحبه ، وقرة العين بقربه ، والفوز بجواره ، والنظر الى وجهه فى زمرة أوليائه ، الى أضعاف اضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية ، فأى عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل الذى تقوم عليه به الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه ، وأسلم عاقبة ، فهذا من هذا الوجه .

واما تأثيرها فى نقصان العقل العيشى فلولا الاشتراك فى هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا ولكن الجائحة عامة ، والجنون فنون ، ويا عجبا لو صحت العقول لعلمت ان الطريق الذى يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش انما هو فى رضاء من النعم كله فى رضاه ، والألم والعذاب كله فى سخطه وغضبه ، ففى رضاه قرة العيون ، وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة الأرواح ، وطيب الحياة ، ولذة العيش ، وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف به ، بل اذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضا منه ، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من نعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد حصل له على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له فى خلال ذلك من الآلام ، فالأمر كما قال سبحانه : ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لايرجعون ﴾(٤) .

فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر ، والمسك بالرجيع ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا .

ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين وربه ـ تبارك وتعالى ـ واذا وقعت

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٧

(٢) سورة المائدة من الآية : ١٠٠ ، وسورة الطلاق من الآية : ١٠

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٦٩

(٤) سورة النساء من الآية : ١٠٤

القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر ، فأى فلاح وأى رجاء وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير ، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذى لا غنى له عنه طرفة عين ، ولا بدل له منه ، ولا عوض له عنه ، واتصلت به أسباب الشر ، ووصل ما بينه وبين اعداء عدو له ، فتولاه عدوه ، وتخلى عنه وليه ، فلا تعلم نفس مالهذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وانواع العذاب .

قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله ـ سبحانه ـ وبين الشيطان فان اعرض الله عنه تولاه الشيطان ، وان تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان ، وقد قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾(١) يقول سبحانه لعباده :أنا أكرمت أباكم ، ورفعت قدره ، وفضلته على غيره ، فأمرت ملائكتى كلهم ان يسجدوا له تكريما وتشريفا فأطاعونى ، وأبى عدوى وعدوه فعصى أمرى وخرج عن طاعتى ، فكيف يحسن بكم بعد هذا ان تتخذوه وذريته أولياء من دونى ، فتطيعوه فى معصيتى ، وتوالوه فى خلاف مرضاتى ، وهم أعدا عدو لكم ، فواليتم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن والى اعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فان المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعادات أعداء المطاع وموالاة أوليائه ، وأما ان توالى أعداء الملك ثم تدعى انك موال له فهذا محال ، هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم ، فكيف اذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التى بينكم وبينه اعظم من العداوة التى بين الشاة والذئب ، فكيف يليق بالعاقل ان يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذى لا مولى له سواه ، ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله : ﴿ **وهم لكم عدو** ﴾ وكما نبه على قبحها بقوله تعالى : ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ فتبين ان عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو الى معاداته ، فما هذه الموالاة وما هذا الاستبدال بئس للظالمين بدلا ، ويشبه ان يكون تحت هذا الخطاب نوع من العقاب لطيفا عجيبا ، وهو انى عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتى فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة ان عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة .

ومن عقوباتها : انها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة الطاعة وبالجملة انها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله ، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصى الخلق قال الله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **وألو استقاموا على الطريقه لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه** ﴾(٣) .

وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، وفى الحديث : (ان روح القدس نفث فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب فانه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته ، وان الله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط »(٤)وقد تقدم الأثر الذى

---

(١) سورة الكهف من الآية : ٥٠

(٢) سورة الاعراف من الآية : ٩٦

(٣) سورة الجن الآية : ١٦٠ وجزء من الآية : ١٧

(٤) كشف الخفاء ج١ ص٢٦٨ حديث رقم ٧٠٧ ورد بلفظ . . ان روح القدس نفث فى روعى لن تموت النفس حتى تستكمل =

ذكره احمد فى كتاب الزهد (أنا الله اذا رضيت باركت وليس لبركتى منتهى ، واذا غضبت لعنت ولعنتى تدرك السابع من الولد ، وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه) وقد تقدم ان عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل فحياة البهائم خير من حياته فإن حياة الانسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده ، أو الانابة اليه والطمأنينة بذكره والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ، ولو تعوض عنها بما تعوض به فى الدنيا بل ليست الدنيا بأجمعها عوضا عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض،واذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحى الذى لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له فى شيء له من ذاته البتة . عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته ، وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض ، وانما كانت معصية الله سببا لمحق بركة الرزق والأجل ؛ لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة ، ولهذا شرع ذكر اسم الله - تعالى - عند الأكل ، والشرب ، واللبس ، والركوب ، والجماع ، لما فى مقارنة اسم الله من البركة وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها،وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فان الرب هو الذى يبارك وحده والبركة كلها منه ، وكل ما نسب اليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه وهى الشام أرض البركة ، وصفها بالبركة فى ست آيات من كتابه فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك الا ما نسب اليه ، اعنى الى محبته وألوهيته ورضاه ، والا فالكون كله منسوب الى ربوبيته وخلقه ، وكل ما باعده من نفسه من الاعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه ، وكل ما كان منه قريبا من ذلك ففيه من البركة على قدر قربه منه ، وضد البركة اللعنة فأرض لعنها الله ، أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله ، أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه السبيل فلا بركة فيه البتة ، وقد لعن عدوه ابليس وجعله ابعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله ، فمن ههنا كان للمعاصى أعظم تأثير فى محق بركة العمر ، والرزق ، والعلم ، والعمل ، فكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عصى الله به ، أو بدن ، أو جاه ، أو علم ، أو عمل فهو على صاحبه ليس له ، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله الا ما أطاع الله به ، ولهذا من الناس من يعيش فى هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ الف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه . والعلم وفى الترمذى عنه - ﷺ - (الدنيا ملعونة

= رزقها ، فاتقوا الله واجملوا فى الطلب . . وانظر حلية الأولياء ج١٠ ص٢٧ عن ابى امامة قال : قال رسول الله - ﷺ - « ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاجملوا فى الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق ان يطلبه بمعصية فان الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته » .

ملعون ما فيها إلا ذكر الله - عز وجل - وما والاه أو عالما أو متعلما)[١] وفى أثر آخر :(ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله هذا هو الذى فيه البركة خاصة والله المستعان .

ومن عقوباتها انها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئا لأن يكون من العلية ، فان الله خلق خلقه قسمين : علية ، وسفلة وجعل عليين مستقر العلية ، وأسفل سافلين مستقر السفلة ، وجعل أهل طاعته الأعليين فى الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين فى الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه ، وأهل معصيته أهون خلقه عليه ، وجعل العزة لهؤلاء ، والذلة والصغار لهؤلاء ، كما فى مسند احمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبى - ﷺ - انه قال : (جعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى وكلما عمل العبد معصية نزل الى أسفل درجة ولا يزال فى نزول حتى يكون من الأسفلين ، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ولا يزال فى ارتفاع حتى يكون من الأعليين)[٢] وقد يجتمع للعبد فى أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم وهو ان العبد قد ينزل نزولا بعيدا أبعد مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والأرض لا يفىء بصعوده الف درجة بهذا النزول الواحد كما فى الصحيح عن النبى - ﷺ - انه قال : (ان العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة ولا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب)[٣] فأى صعود يوازن هذه النزلة والنزول أمر لازم للانسان ، ولكن من الناس من يكون نزوله الى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد الى درجته او الى أرفع منها بحسب يقظته ، ومنهم من يكون نزوله الى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة ، فهذا اذا رجع الى الطاعة قد يعود الى درجته ، وقد لا يصل اليها ، وقد يرتفع عنها ، فانه قد يعود أعلى همة مما كان ، وقد يكون اضعف همة ، وقد تعود همته كما كانت ، ومنهم من يكون نزوله الى معصية اما صغيرة وإما كبيرة ، فهذا يحتاج فى عودته الى درجته الى توبة نصوح ، وانابة صادقة ، واختلف الناس هل يعود بعد التوبة الى درجته التى كان فيها بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب ، وتجعل وجوده كعدمه فكأنه لم يكن أولا يعود بناء على أن التوبة تأثيرها فى اسقاط العقوبة ، واما الدرجة التى فاتته فانه لايصل اليها قالوا : وتقرير ذلك انه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة فى الزمن الذى عصى فيه لصعود آخر وارتفاعه بجملة أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذى يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه فى زمن المعصية ارتفاع ، وربح بجملة أعماله ، فاذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول ، وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل الى اعلى

---

(١) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٣٧٧ كتاب الزهد باب « مثل الدنيا » ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة حديث رقم ٤١١٢

(٢) صحيح البخارى كتاب الجهاد-باب ما قيل فى الرماح ج٤ ص٤٩ عن ابن عمر عن النبى - ﷺ - « جعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى »

وانظر مسند الامام احمد ج٢ ص٥٠ فقد ورد هذا الحديث جزءا من روايتين لابن عمر .

(٣) صحيح البخارى كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان ج١١ ص٣٠٨ حديث رقم ٦٤٧٧ ، ٦٤٧٨ الروايتان عن ابى هريرة فقد ذكر الحديث مع اختلاف يسير فى الفاظ الحديث الذى معنا .

وانظر مسند الامام احمد المجلد الثانى ص٣٧٩ فقد ورد الحديث عن ابى هريرة بلفظ « ان العبد يتكلم بالكلمة يزل بها فى النار ابعد ما بين الشرق والغرب »

وبينهما بون عظيم ، قالوا : ومثل ذلك رجلان مرتقيان فى سلمين لا نهاية لهما وهما سواء فنزل أحدهما الى أسفل ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود فان الذى لم ينزل يعلو عليه ولابد ، وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكما مقبولا فقال : التحقيق أن من التائبين من يعود الى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود الى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل الى درجته ، ومنهم من يعود الى درجته . قلت : وهذا بحسب قدر التوبة وكمالها ، وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع ، والانابة والحذر والخوف من الله والبكاء من خشية الله ، وقد تقوى على هذه الأمور حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ويصير بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة فى حقه رحمة ، فانها نفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله ووضعت خد ضراعته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته الى حفظ سيده له ، ومولاه،والى عفوه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه من ان يشمخ بها أو يتكبر بها أو يرى نفسه بها خيرا من غيره ، وأوقفته بين يدى ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدى ربه مستحيا خائفا منه وجلا محتقرا لطاعته مستعظما لمعصيته ، عرف نفسه بالنقص والذم وربه متفرد بالكمال والحمد والوفى كما قيل :

استأثر الله بالوفى وبالحمد ... وولى الملامة الرجلا

فأى نعمة وصلت من الله اليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلا لها ، وأى نقمة أو بلية وصلت اليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ، ورأى مولاه قد أحسن اليه اذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدنى جزء منه ، فان ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز ، فإن الذنب وان صغر فان مقابله العظيم الذى لاشىء أعظم منه ، الكبير الذى لاشىء أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ، ولا أجمل ، المنعم بجميع أنواع النعم دقيقها وجليلها من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فان مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض وملك السموات والأرض ، وإله أهل السموات والأرض ، ولولا ان رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته وإلا لزلزلت الأرض بمن قابله بمالا تليق مقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزالت السموات والأرض ، من معاصى العباد قال تعالى : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾[1] فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما الحليم والغفور كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ، وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن كفر بعض عباده أنه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، وقد أخرج الله ـ سبحانه ـ الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه ولعن إبليس

(١) سورة فاطر الآية : ٤١

وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل :

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجى درج الجنان لذى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من ملكوتها الأعلى بذنب واحد

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه وتمرض قلبه فلا يقوى ذو التوبة على اعادته الى الصحة الأولى فلا يعود الى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود الى مثل عمله فيعود الى درجته ، هذا كله اذا كان نزوله الى معصيته فان كان نزوله الى امر يقدح فى اصل ايمانه مثل الشكوك والريب والنفاق فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود الا بتجديد اسلامه من رأسه .

ومن عقوباتها : انها تجترىء على العبد مالم يكن يجترىء عليه من أصناف المخلوقات ، فتجترىء عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتغرير وانسائه ما مصلحته فى ذكره ومضرته فى نسيانه ، فتجترىء عليه الشياطين حتى تؤزه الى معصيته الله أزا وتجترىء عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الأذى فى غيبته وحضوره ،ويجترىء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم قال بعض السلف : انى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق امرأتى ودابتى .

وكذلك يجترىء عليه أولياء الأمر بالعقوبة التى ان عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود ، وتجترىء عليه نفسه فتتأسد عليه وتصعب عليه فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له وتسوقه الى ما فيه هلاكه شاء أم أبى ، وذلك لأن الطاعة حصن الرب - تبارك وتعالى - الذى من دخله كان من الآمنين فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم وعلى حسب اجترائه على معاصى الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه وليس شىء يرد عنه فان ذكر الله وطاعته والصدقة وارشاد الجاهل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التى ترد المرض وتقاومه،فاذا سقطت القوة غلب وارد المرض وكان الهلاك ، ولابد للعبد من شىء يرد عنه فان موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم .

وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى ، فان الله يدافع عن الذين آمنوا ، والايمان قول وعمل فبحسب قوة الايمان تكون قوة الدفع والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تخون العبد أحوج ما يكون الى نفسه فان كل احد محتاج الى معرفة ما ينفعه وما يضره فى معاشه ومعاده ، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقواهم وألبسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره ، وفى ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم فأعرفهم من كان عارفا بأسباب السعادة والشقاوة ، وأرشدهم من آثر هذه على هذه ، كما ان أسفههم من عكس الأمر والمعاصى تخون العبد أحوج ما كان الى نفسه فى تحصيل هذا العلم . وايثار الحظ الأشرف العالى الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم

وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له فى الدارين ، فاذا وقع فى مكروه واحتاج الى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه اذا جذبه فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه ، فدهمه العدو وظفر به ، كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنا بالمرض ، فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه شيئا ، والعبد انما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه والجوارح تبع للقلب ، فاذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع به فما الظن بها عند عدم ملكها ، وكذلك النفس فانها تخبث بالشهوات والمعاصى وتضعف أعنى النفس المطمئنة وان كانت الامارة تقوى وتتأسد ، وكلما قويت هذه ضعفت هذه ، فبقى الحكم والتصرف للأمارة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتا لا يرجى معه حياة ، فهذا ميت فى الدنيا ميت فى البرزخ غير حى فى الآخرة حياة ينتفع بها ، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط ، والمقصود ان العبد اذا وقع فى شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شىء له : فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله ـ تعالى ـ والانابة اليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكره وان ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا ينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا ينحبس اللسان والقلب على المذكور ، بل ان ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه ولو أراد من جوارحه ان تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصى لمن له جند يدفع عنه الاعداء فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم وقطع اخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه ان يستفرغوا وسعهم فى الدفع عنه بغير قوة ، هذا وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى وأمر ، وهو ان يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله ـ تعالى ـ فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل : لا إله إلا الله ، فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها ، وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله ، فقال شاه رخ غلبتك ، ثم قضى ، وقيل ، لآخر : قل لا آله إلا الله فقال : يارب قائلة يوما وقد تعبت .: أين الطريق الى حمام منجاب ثم قضى وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يهزى بالغناء ويقول:تاتا تنتنا ، فقال : وما ينفعنى ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبتها ثم قضى ولم يقلها ، وقيل لآخر ، ذلك فقال : وما يغنى عنى وما أعلم أنى صليت لله ـ تعالى ـ صلاة ثم قضى ولم يقلها ، وقيل لآخر ذلك فقال : هو كافر بما تقول وقضى،وقيل لآخر ذلك:فقال:كلما أردت ان أقولها فلسانى يمسك عنها،وهناك بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس لله فليس حتى قضى ، وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه : لا إله إلا الله وهو يقول : هذه القطعة رخيصة هذا مشترى جيد هذه كذا حتى قضى ، وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم ، واذا كان العبد فى حال حضور ذهنه وقوته وكمال ادراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصى وقد أغفل قلبه عن ذكر الله ـ تعالى ـ وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه،لينال منه فرصته،فان ذلك آخر العمل فاقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو فى تلك

الحالة فمن ترى يسلم على ذلك ، فهناك ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء ﴾(١)فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله ـ سبحانه ـ قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا فبعيد من قلبه بعيد من الله ـ تعالى ـ غافل عنه متعبد لهواه ، مصير لشهواته ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشتغلة بمعصية الله ان يوفق لحسن الخاتمة ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين،وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعا بالايمان ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون * سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾(٢) .

يا آمنا من قبيح الفعل يصنعه هل أتاك تواقيع أم انت تملكه
جمعت شيئين أمنا واتباع هوى هذا واحداهما فى المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت فى الزرع وقت البذر من سفه فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شيء منك زهدك فى دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه إذاً بالله أنت أم المغبون فى البيع غبنا سوف تدركه

ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولابد ، فإذا عمى القلب وضعف فإنه من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه فى نفسه وفى غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته ، فان كمال الانسان مداره فى أصلين : معرفة الحق من الباطل ، وايثاره عليه ، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله ـ تعالى ـ فى الدنيا والآخرة الا بقدر تفاوت منازلهم فى هذين الأمرين وهما اللذان أثنى الله بهما ـ سبحانه ـ على أنبيائه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فى قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ﴾(٣)فالأيدى:القوة فى تنفيذ الحق ،والأبصار:البصائر فى الدين فوصفهم بكمال ادراك الحق ، وكمال تنفيذه .

وانقسم الناس فى هذا المقام أربعة أقسام : فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله ـ تعالى ـ القسم الثانى : عكس هؤلاء من لا بصيرة له فى الدين ولا قوة على تنفيذ الحق وهم اكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون وحمى الأرواح وسقم القلوب ، يضيقون الديار ويغلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار،القسم الثالث : من له بصيرة فى الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه .
القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة فى الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، بل يحسب كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء شحمة ، يحسب الورم شحما ، والدواء النافع سما ، وليس فى هؤلاء من يصلح للامامة فى الدين ، ولا هو موضعا لها سوى القسم الأول قال

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٧
(٢) سورة القلم الآيتان : ٣٩ـ ٤٠
(٣) سورة ص الاية : ٤٥

الله ـ تعالى :﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنايوقنون ﴾[١] فأخبر ـ سبحانه ـ ان بالصبر واليقين نالوا الامامة فى الدين ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله ـ سبحانه ـ من جملة ـ الخاسرين وأقسم بالعصر الذى هو زمن سعى الخاسرين والدائحين على ان من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى : ﴿ والعصر ان الانسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوابالصبر ﴾[٢]فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصى بعضهم بعضا ويرشده اليه ويحثه عليه ، فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين ، فمعلوم ان المعاصى والذنوب تعمى بصيرة القلب ، فلا يدرك الحق كما ينبغى ، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه ، بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس ادراكه كما ينعكس سيره فيدرك الباطل حقا ، والحق باطلا والمعروف منكرا والمنكر معروفا ، فينتكس فى سيره ويرجع عن سفره الى الدار الآخرة الى سفره الى مستقر النفوس المبطلة التى رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها ، وغفلت عن الله وآياته ، وتركت الاستعداد للقائه ، ولو لم يكن فى عقوبة الذنوب إلا هذه وحدها لكانت كافية داعية الى تركها والبعد منها والله المستعان .

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة فى جلائها وصفائها فيمتلىء نورا،فاذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب ، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد ، حتى ان صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ما شأنه ، فيقال : أصابه إنسى وبه نظرة من الأنس .

فيا نظرة من قلب حر منور   يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوى هذا القلب وقلب مظلم أرجاؤه ، مختلفة أهواؤه ، قد اتخذه الشيطان وطنه ، وأعده مسكنه،إذا تصبح بطلعته حياه وقال : فديت من لا يفلح فى دنياه ولا فى أخراه .

أنا قرينك فى الدنيا وفى الحشر بعدها   فأنت قرين لى بكل مكان
فان كنت فى دار الشقاء فإننى   وأنت جميعا فى شقا وهوان

قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾[٣] .

فأخبر ـ سبحانه ـ ان من عشى عن ذكره وهو كتابه الذى أنزل على رسوله ـ ﷺ ـ وبارك فيه

---

(١) سورة السجدة آية : ٢٤

(٢) سورة العصر الآيات : ١ ـ ٢ ـ ٣

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩

فأعرض عنه وعمى عنه وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قيض الله له شيطانا عقوبة له فى إعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه لا فى الاقامة ولا فى المسير ، ومولاه وعشيره الذى هو بئس المولى وبئس العشير .

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم واج عوض لا يتفرق

ثم أخبر ـ سبحانه ـ ان الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل اليه والى جنته ، ويحسب هذا الضال المضل الصدود أنه على طريق هدى ، حتى اذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ـ كنت لى فى الدنيا أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق ، وأغويتنى حتى هلكت،وبئس القرين انت لى اليوم ، ولما كان المصاب اذا شاركه غيره مصيبته حصل بالتأسى نوع تخفيف وتسلية-اخبر . الله ـ سبحانه ـ ان هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين فى العذاب ، وان القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وان كانت المصائب فى الدنيا اذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

ولولا كثرة الباكين حولى على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل اخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى
ألا يا صخر لا أنساك حتى افارق عيشتى وورود رمسى

فمنع الله ـ سبحانه ـ هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿ ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾.

ومن عقوباتها : انها مدد من الانسان يمد به عدوه عليه وجيش يقويه به على حربه ، وذلك ان الله ـ سبحانه ـ ابتلى هذا الانسان بعدو لا يفارقه طرفة عين ، صاحبه ينام ولا ينام عنه ، ويغفل لا يغفل عنه ، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه ، يبذل جهده فى معاداته بكل حال ، ولا يدع أمرا يكيده به يقدر على ايصاله اليه إلا أوصله ، ويستعين عليه ببنى جنسه من شياطين الانس وغيرهم من شياطين الجن ، وقد نصب له الحبائل وبغى له الغوائل ، ومد حوله الاشراك ونصب له الفخاخ والشباك ، وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدو أبيكم ، لا يفوتكم ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار ، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة ، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من الخزى واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله ، فابذلوا جهدكم ان يكونوا شركاءنا فى هذه البلية ، اذ فاتنا شركة صالحيهم فى الجنة ، ولما علم ـ سبحانه ـ ان آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقون بها ، وأمد عدوهم ـ أيضا ـ بجند وعساكر يلقاهم به ، وأقام سوق الجهاد فى هذه الدار فى مدة العمر التى هى بالاضافة الى الآخرة كنفس واحد من انفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه فى أشرف كتبه وهى التوراة

والانجيل والقرآن ، ثم أخبر انه لا أوفى بعهده منه ـ سبحانه ـ ثم أمرهم ان يستبشروا بهذه الصفقة التى من أراد ان يعرف قدرها فلينظر الى المشترى من هو ، والى الثمن المبذول فى هذه السلعة ، والى من جرى على يديه هذا العقد ، فأى فوز أعظم من هذا ، وأى تجارة أربح منه ، ثم أكد ـ سبحانه ـ معهم هذا الأمر بقوله : ﴿ يأأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾[1]

ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذى هو أحب المخلوقات اليه الا لأن الجهاد أحب شيء اليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم اليه وسيلة ، فعقد ـ سبحانه ـ لواء هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذى هو محل معرفته ومحبته وعبوديته والاخلاص له والتوكل عليه والانابة اليه ، فولاه أمر هذه الحرب ، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، يعقب بعضهم بعضا كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر ، يثبتونه ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويعدونه بكرامة الله ، ويصبرونه ويقولون : انما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ثم أيده ـ سبحانه ـ بجند آخر من وحيه وكلامه ، فأرسل اليه رسوله ـ ﷺ ـ وانزل اليه كتابه ، فازداد قوة الى قوته ، ومددا الى مدده ، وعدة الى عدته ، وأمده مع ذلك بالعقل وزيرا له ومدبرا ، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالايمان مثبتا له ومؤيدا وناصرا ، وباليقين كاشفا له عن حقيقة الأمر حتى كأنه يعاين ما وعد الله ـ تعالى ـ أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر امر جيشه ، والمعرفة تضع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها ، والايمان يثبته ويقويه ويصبره ، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة ، ثم مد ـ سبحانه ـ القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين طليعة ، والأذن صاحب خبرة ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه ، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ، ويسألون له ان يقيه السيئات ويدخله الجنات ، وتولى ـ سبحانه ـ الدفع والدفاع عنه بنفسه ، وقال : هؤلاء حزب الله وحزب الله هم المفلحون ، وهؤلاء جنده ، وان جندنا لهم الغالبون ، وعلم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد ، فجمعها لهم فى أربع كلمات فقال :

﴿ يأأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[2] .

ولا يتم امر هذا الجهاد الا بهذه الأمور الأربعة ، فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو وهى مقاومته ومنازلته ، فاذا صابر عدوه احتاج الى امر آخر وهو المرابطة وهى لزوم ثغر القلب وحراسته، لئلا يدخل منه العدو ، ولزوم ثغر العين، والأذن واللسان، والبطن واليد والرجل ، فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه ، فالمرابطة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خاليا فيدخل منه ، فهؤلاء أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين ـ صلى

(١) سورة الصف الآيات : ١٠ ـ ١٣

(٢) سورة آل عمران آية : ٢٠٠

الله عليهم وسلم ـ أجمعين ـ وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم ـ وقد خلوا المكان الذى أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ما كان ـ واجماع هذه الثلاثة وعمودها الذى تقوم به هو تقوى الله فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى ولا تقوم التقوى الا على ساق الصبر ، فانظر الآن فيك الى إلتقاء الجيشين ، واصطدام العسكرين ، وكيف تداله مرة ويدال عليك أخرى ، اقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب فى حصنه جالسا على كرسى مملكته ، أمره نافذ فى أعوانه وجنده قد حصنوا به ، يقاتلون عنه ، ويدافعون عن حوزته ، فلم يمكنهم الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه ، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة ، فقيل له هى النفس ، فقال لأعوانه : أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها فعدوها به ومنوها اياه وانقشوا صورة المحبوب فيها فى يقظتها ومنامها ، فاذا اطمئنت اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ثم جروها بها اليكم ، فاذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغر العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة ، فمتى دخلتم منها الى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مثخن بالجراحات ، ولاتخلوا هذه الثغور ولا تمكنوا سرية تدخل منها الى القلب فتخرجكم منها ، وان غلبتم فاجتهدوا فى اضعاف السرية ووهنها ، حتى لا تصل الى القلب ، فان وصلت اليه وصلت ضعيفة لا تغنى عنه شيئا ، فاذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين ان يكون نظره اعتبارا ، بل اجعلوا نظره تفرجا واستحسانا وتلهيا ، فان استرق نظرة عبرة فأفسدوها عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة ، فانه اقرب اليه واعلق بنفسه وأخف عليه ، ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم ، فانى ما أفسدت بنى آدم بشىء مثل النظر فإنى أبذر به فى القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الأمنية ، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته وأقوده بزمام الشهوة الى انخلاع من العصمة ، فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهو نوا عليه أمره ، وقولوا له مقدار نظرة تدعوك الى تسبيح الخالق والرازق البديع،والتأمل والتجمل صفته ، وحسن هذه الصورة التى انما خلقت ليستدل بها الناظر عليه ، وما خلق الله لك العينين سدى ، وما خلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر ، وإن ظفر تم به قليل العلم فاسد العقل ، فقولوا له هذه الصورة مظهرة من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه فادعوه الى القول بالاتحاد ، فان لم يقبل فالقول بالحلول العام والخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك فانه يصير به من اخوان النصارى،فمروه حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد فى الدنيا ـ واصطادوا عليه الجهال فهذا من أقرب خلفائى واكبر جندى بل انا من جنده وأعوانه .

ثم امنعوا ثغر الأذن ان يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر ، فاجتهدوا الا تدخلوا منه الا الباطل ، فانه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه ، وتخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب ، أمزجوه بما تهوى النفس مزجا ، وألقوا الكلمة فان رأيتم منه إصغاء اليها فزيدوه بأخواتها ، فكلما صادفتم منه استحسان شىء فالهجوا له بذكره ، وإياكم ان يدخل من هذا الثغر شىء من كلام الله أو كلام رسوله ـ ﷺ ـ أو كلام النصحاء ، فان غلبتم على ذلك ودخل شىء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به إما بإدخال ضده عليه وإما بتهويل ذلك وتعظيمه ، وان هذا امر قد

حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها اليه ، وهو حمل ثقيل عليها لا تستقل به ونحو ذلك ، واما بإرخاصه على النفوس ، وان الاشتغال ينبغى ان يكون بما هو أعلى عند الناس واعز عليهم واغرب عندهم،وزبونه اكثر ، وأما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان ولا ينبغى،والربح بين الناس أولى بالايثار ونحو ذلك ، فيدخلون الباطل عليه فى كل قالب يقبله ويخف عليه،ويخرجون له الحق فى كل قالب يكرهه ويثقل عليه ، واذا شئت ان تعرف ذلك فانظر الى اخوانهم من شياطين الانس كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب كثرة الفضول وتتبع عثرات الناس ، والتعرض من البلاء مالا يطيق ، والقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك ، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب ـ تعالى ـ بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله ـ ﷺ ـ فى قالب التشبيه والتجسيم والتكليف ، ويسمون علو الله على خلق خلقه واستوائه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزا ، ويسمون نزوله الى سماء الدنيا وقوله من يسألنى فأعطيه تحركا وانتقالا ، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث ، وما يقوم من صفاته أعراضا ، ثم يتوصلون الى نفى ما وصف به نفسه بهذه الأمور ، ويوهمون الأغمار وضعفاء البصائر أن اثبات الصفات التى نطق بها كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ تستلزم هذه الأمور ، ويخرجون هذا التعطيل فى قالب التنزيه والتعظيم ، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشىء بلفظ ، ويردونه بعينه بلفظ آخر ، قال الله ـ تعالى ـ ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾(١) فسماه زخرفا وهوالقول الباطل،لان صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ويلقيه الى سمع المغرور فيغتر به ، والمقصود ان الشيطان قد لزم ثغر الاذن ان يدخل فيها ما يضر العبد ، ويمنع ان يدخل اليها ما ينفعه ، وان دخله بغير اختياره أفسده عليه .

ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان فانه الثغر الأعظم وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه وامنعوا ان يجرى عليه شىء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحة عباده ، أو التكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم فى هذا الثغر أثران عظيمان لا تبالون بأيهما ظفرتم . أحدهما : التكلم بالباطل فإنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبرجندكم وأعوانكم ، الثانى : السكوت عن الحق فان الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الاول أخ لكم ناطق ، وربما كان الأخ الثانى أنفع إخوانكم لكم ، أما سمعتم قول الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، فالرباط الرباط على هذا الثغر ان يتكلم بحق أو يمسك عن باطل ، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق ، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق ، واعلموا يابنى ان ثغر اللسان هو الذى أهلك منه بنوا آدم وأكبهم منه على مناخرهم فى النار ، فكم لى من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر ، وأوصيكم بوصية فاحفظوا : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ، ويكون الآخر على لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ، ويطلب من أخيه اعادتها ، وكونوا

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١١٢

أعوانا على الانس بكل طريق ، وادخلوا عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مرصد ، أما سمعتم قسمى الذى أقسمت به لربهم حيث قلت : ﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين ﴾[1] . أما ترونى قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتنى من طريق إلا قعدت له من طريق غيره حتى أصبت منه حاجتى أو بعضها ، وقد حذرهم ذلك رسول الله - ﷺ - وقال لهم : إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها قعد له بطريق الاسلام فقال له : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه وأسلم فقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ فخالفه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد فتقتل ويقسم المال وتنكح الزوجة ؟ فخالفه وجاهد فهكذا فاقعدوا لهم بكل طريق الخير ، فإذا أراد أحدهم ان يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له فى نفسه : أتخرج المال وتبقى مثل هذا السائل وتصير بمنزلته أنت وهو سواء ، أو ما سمعتم ما ألقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه قال : أموالنا إذا أعطيناكموها صرنا مثلكم ، واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له : طريقة مخوفة مشقة يتعرض سالكها لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعبوتها وآفاتها ثم أقعدوا على المعاصى فحسنوها فى عين بنى آدن وزينوها فى قلوبهم ، واجعلوا اكبر أعوانكم على ذلك النساء فمن أبوابهن فادخلوا عليهم فنعم العون هن لكم ، ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين فامنعوها أن تبطش بما يضركم أو تمشى فيه ، واعلموا إن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة فأعينوها واستعينوا بها وأمدوها واستمدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا فى كسرها وإبطال قواها ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع مواردها عنها فإذا انقطعت مواردها عنها وقويت موارد النفس الأمارة وطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه وأعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس ، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ولا تجيبكم بما تكرهونه البتة مع أنها لا تخالفكم فى شىء تشيرون به عليها بل إذا اشرتم عليها بشىء بادرت إلى فعله ، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح ، فزينوها وجملوها وأروها إياه فى أحسن صورة عروس توجد ، وقولوا له ذق حلاوة طعم هذا الوصال والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب تضع أوزارها فليست بيوم وينقضى ، وإنما هو حرب متصل بالموت وقواك تضعف عن الحرب الدائم واستعينوا يا بنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما . أحدهما : جند الغفلة فاغفلوا قلوب بنى آدم عن الله - تعالى - والدار الآخرة بكل طريق فليس لكم شىء أبلغ من تحصيل غرضكم من ذلك فإن القلب إذا غفل عن الله - تعالى - تمكنتم منه ومن أعوانه/الثانى : جند الشهوة فزينوها فى قلوبهم وحسنوها فى أعينهم ، وصولوا عليهم بهذين العسكرين ، فليس لكم فى بنى آدم أبلغ منهما ، واستعينوا على الغفلة بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة ، واقرنوا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذاكر ، ولا يغلب واحد

(١) سورة الأعراف الأيتان : ١٦ ، ١٧

خمسة فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة ، وشيطان الذاكر معهم ، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببنى جنسهم من الإنس البطالين ، فقربوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم ، وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها وادخلوا على كل واحد من بنى آدم من باب إرادته وشهوته فساعدوه عليها ، وكونوا له أعوانا على تحصيلها ، وإذا كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم ويصابروكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور ، وانتهزوا فرصتكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بنى آدم فى أعظم من هذين الموطنين ، واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور ، فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب فلا تخلوا طريق الشهوة عليه ، ولا تعطلوا ثغرها فإن من لم يملك نفسه فانه بالحرى ألا يملكها عند الشهوة ، فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وأمزجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه الى الشهوة من باب الغضب والى الغضب من طريق الشهوة ، واعلموا أنه ليس لكم فى بنى آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين ، وانما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب ، فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماءهم ، وبه قتل أحدا بنى آدم أخاه ، واعلموا أن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير ، واياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فإن ذلك يطفىء عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم نبيهم بذلك .

وقال : إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحسن بذلك فليتوضأ . وقال لهم : إنما تطفأ النار بالماء وقد أوصاهم الله ان يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك ، وانسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب ، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها الغفلة واتباع الهوى ، واعظم أسلحتهم فيكم وأمنهم حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوى ، فإذا رأيتم الرجل مخالفا لهواه فاهربوا منظلمه ولا تدنوا منه ، والمقصود أن الذنوب والمعاصى سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ويعينهم بها على نفسه ، فيقاتلونه بسلاحه ، والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل ، قال : ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه ومن العجائب ان العبد يسعى بنفسه ، فى هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجتهد فى حرمانها من حظوظها واشراقها ، وهو يزعم أنه يسعى فى حظها ويبذل جهده فى تحقيرها وتصغيرها وتدنيسها ، وهو يزعم انه يسعى فى صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها ، وكان بعض السلف يقول فى خطبته ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ، ومصغر لنفسه وهو يزعم انه لها مكبر ، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها ، وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه يبلغ منها بفعله مالا يبلغه عدوه والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه فإذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها ، فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه وإذا نسى نفسه فأى شىء يذكره وما معنى نسيانه نفسه قيل:نعم ينسى نفسه أعظم

نسيان ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾[١] فلما نسوا ربهم ـ سبحانه ـ نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[٢] فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين أحدهما : أنه سبحانه نسيه ، والثانية : أنه أنساه نفسه ، ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ونسيانه ، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم ، وأما إنساؤه نفسه فهو انساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها واصلاحها وما يكملها ، ينسيه ذلك كله جميعه فلا يخطره بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره وأيضا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها ، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها ، وأيضا فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعى فى إزالة عللها وامراضها التى تؤول بها إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ومرضه مترام به الى التلف ، ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة ، فأى عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسى مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها وصلاحها وفلاحها وحياتها الأبدية فى النعيم المقيم .

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله ، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن فى العقد الذى عقده لنفسه فى هذه الدار ، والتجارة التى اتجر فيها لمعاده ، فإن كل أحد يتجر فى هذه الدنيا لآخرته ، فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب ، اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها فأذهبوا طيباتهم ولذاتهم بالآخرة ، وحظهم فيها فى حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا إليها وكان سعيهم لتحصيلها فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلا بعاجل ونسيئة بنقد وغائبا بناجز وقالوا هذا هو الزهرة ، ويقول أحدهم : خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ، فكيف أبيع حاضرا نقدا شاهدا فى هذه الدار بغائب نسيئة فى دار اخرى غير هذه ، وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببنى الجنس ، فأكثر الخلق فى هذه التجارة الخاسرة التى قال الله فى أهلها: ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾[٣] وقال فيهم : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[٤] فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن فى هذه التجارة ، فتنقطع عليهم النفوس حسرات ، وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيا بباق ، وخسيسا بنفيس ، وحقيرا بعظيم ، وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله ـ تعالى ـ والدار الآخرة بها ، فكيف بما ينال العبد منها فى هذا الزمن القصير الذى هو فى الحقيقة كغفوة حلم لا نسبة له إلى دار القرار البتة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * الى ربك منتهاها * انما أنت منذر من يخشاها * كأنهم

(١) سورة الحشر من الآية : ١٩
(٢) سورة التوبة من الآية : ٦٧
(٣) سورة البقرة من الآية : ٨٦
(٤) سورة البقرة من الآية : ١٦
(٥) سورة يونس من الآية : ٤٥

يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها ﴾(١)وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ﴾(٢)وقال تعالى : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾(٣)وقال تعالى :﴿ ويوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾(٤)فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وأن لهم دارا غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء ، رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء ، فاتجروا تجارة الأكياس ، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس ، فظهر لهم ربح تجارتهم ومقدار ما شروه ، وكل أحد فى هذه الدنيا بائع مشتر متجر ، وكل الناس يغد فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾(٥)فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة ،فتاجروا أيها المفلسون ويامن لا يقدر على هذا الثمن ، ههنا ثمن آخر فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾(٦)﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(٧)والمقصود ان الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل ، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ لكل شيء سببا وآفة ـ سببا يجلبه وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفاتها المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها ، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة فى نفسه وغيره ، وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصيته الله ، كأنه مستثنى من هذه الجملة ، أو مخصوص من هذا العموم وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه ، فأى جهل أبلغ من هذا وأى ظلم للنفس فوق هذا فالحكم لله العلى الكبير .

ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنصح الخلق له ، وأنفعهم له ، ومن سعادته فى قربه منه ، وهو الملك الموكل به ، وتدنى منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم ضررا له وهو الشيطان ، فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة

(١) سورة النازعات الآيات : ٤٢ ـ ٤٦
(٢) سورة الاحقاف من الآية : ٣٥
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١١٢ ـ ١١٤
(٤) سورة طه الآيات : ١٠٢ ـ ١٠٤
(٥) سورة التوبة اية : ١١١
(٦) سورة التوبة آية : ١١٢
(٧) سورة الصف الآيتان : ١٠ ، ١١

بعيدة ، وفى بعض الآثار إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه ، فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه ، وقال بعض السلف : إذا ركب الذكر عجت الأرض إلى الله وهربت الملائكة إلى ربها وشكت إليه عظم ما رأت ، وقال بعض السلف : إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان ، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه ، وان افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ، ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة فى حياته وعند موته وعند مبعثه ، قال الله ـ تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ،نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾(١)واذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفعهم وأبرهم له فثبته وعلمه وقوى جنانه وأيده ، قال تعالى : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا** ﴾(٢)ويقول الملك عند الموت لا تخف الموت ،وفى القبر عند المسألة فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه فى يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفى قبره ، ومؤنسه فى وحشته ، وصاحبه فى خلوته ، ومحدثه فى سره ويحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ويعينه عليه ، ويعده بالخير ويبشره به ، ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء فى الأثر الذى يروى مرفوعا وموقوفا !! للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة ، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، واذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد ، وإذا أبعد منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك ، والرجل يتكلم على لسان الشيطان وفى الحديث : (إن السكينة تنطق على لسان عمر ـ رضى الله عنه) وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان ، فالملك يلقى فى القلب الحق ويلقيه على اللسان ، والشيطان يلقى الباطل فى القلب ويجريه على اللسان .

فمن عقوبة المعاصى : أنها تبعد من العبد وليه الذى سعادته فى قربه ومجاورته وموالاته ، وتدنى منه عدوه الذى شقاؤه وهلاكه وفساده فى قربه وموالاته ، حتى إن الملك لينافح عن العبد ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه ، كما اختصم بين يدى النبى ـ ﷺ ـ رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبى ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله ، لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان ، فلم أكن لأجلس) وإذا دعا العبد المسلم فى ظهر الغيب لأخيه أمن الملك على دعائه فقال : ولك بمثل ذلك ، وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه ، فإذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ استغفر له حملة العرش ومن حوله ، وإذا نام العبد المؤمن بات فى شعاره ملك ، فملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه فلا يليق به أن ينسى جواره ويبالغ فى أذاه وطرده عنه وابعاده ، فإنه ضيفه

(١) سورة فصلت الآية : ٣٠ وجزء من الآية : ٣١
(٢) سورة الانفال من الآية : ١٢

وجاره ، وإذا كان اكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته فما الظن بإكرام أكرم الأضياف وخير الجيران وأبرهم ، وإذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصى والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال : لا جزاك الله خيرا ، كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان ، قال بعض الصحابة ـ رضى الله عنهم : ان معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم ، والأهم ممن لا يستحى من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ماتفعلون ﴾[1] أى استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يريكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصى بين يديه وإن كان قد يعمل مثل عمله فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تستجلب مراد هلاك العبد فى دنياه وآخرته فإن الذنوب هى أمراض القلوب متى استحكمت قتلت ولابد ، وكما أن البدن لا يكون صحيحا إلا بغذاء يحفظ قوته واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية التى متى غلبت عليه أفسدته جميعه ، وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الردية منه ، وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب ما يضادها ، وهى عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة ، والتقوى اسم يتناول هذه الأمور الثلاثة ، فما فات منها فات من التقوى بقدره ، وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة ، فانها تستجلب المواد المؤذية وتستوجب التخليط المضاد للجميع وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح ، فانظر الى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض وهو لا يستفرغها ولا يحتمى لها كيف تكون صحته وبقاؤه ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية أحصنته ... مخافة من ألم طارى
وكان أولى بك أن تحتمى ... من المعاصى خشية البارى

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر واستعمل الحمية باجتناب النواهى واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطلبا ولا من الشر مهربا والله المستعان .

فان لم ترعك هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيرا فى قلبك فأحضره العقوبات الشرعية التى شرعها الله ورسوله على الجرائم ، كما قطع السارق فى ثلاثة دراهم ، وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس،وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه ، وقتل بالحجارة أشنع قتلة فى إيلاج الحشفة فى فرج حرام ، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الاحصان بمائة جلدة وينفى سنة عن وطنه وبلده إلى بلد الغربة ، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطىء ذكرا مثله ، وقتل

(١) سورة الانفطار الآيات : ١٠ ـ ١٢

المفعول به ، وأمر بقتل من أتى بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وغرم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة فى الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التى رتبها الله على الجرائم ، وجعلها بحكمته على حسب الدواعى إلى تلك الجرائم ، وحسب الوازع عنها ، فما كان الوازع طبعيا وما ليس فى الطباع داعيا إليه اكتفاء بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حدا ، كأكل الرجيع وشرب الدم وأكل الميتة وما كان فى الطباع داعيا إلى ترتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داعى الطبع إليه ، ولهذا لما كان داعى الطباع الى الزنا من أقوى الدواعى كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع : الجلد مع زيادة التعذيب ، ولما كان اللواطة فيها الأمران كان حده القتل بكل حال ، ولما كان داعى السرقة قويا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد ، وتأمل حكمته فى افساد العضو الذى باشر به الجناية ، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على القاذف لسانه الذى جنى به إذ مفسدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد ، فان قيل : فهلا أفسد على الزانى فرجه الذى باشر به المعصية ؟ قيل بوجوه :

أحدها : أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية اذ فيه قطع النسل وتعرضه للهلاك .

الثانى : أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناية بخلاف قطع اليد .

الثالث : أنه إذا قطع يده أبقى له يد أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج .

الرابع : أن لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه .

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة ، والمقصود أن الذنوب انما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية أو يجمعها الله على العبد وقد يرفعها عمن تاب وأحسن .

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية وقدرية .

فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففها ولا يكاد الرب ـ تعالى ـ يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم تف إحداهما برفع موجب الذنب ، ولم يكن فى زوال دائه ، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ، والشرعية تخص ، فإن الرب ـ تبارك وتعالى ـ لا يعاقب شرعا إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها .

وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة : فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأوا الناس المنكر فاشتركوا فى ترك انكاره ، أوشك أن يعمهم الله ـ تعالى ـ بعقابه ، وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله ـ سبحانه ـ على قدر مفسدة الذنب وتقاضى الطبع لها وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد . وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب به وهو الزنا واللواطة ، فإن هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد الانسان . قال الامام أحمد رحمه الله : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنا واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال يارسول الله : (أى الذنب أعظم ؟ قال : ان تجعل لله ندا وهو خلقك ، قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل

ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل تصديقها فى كتابه : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ﴾(١) الآية . . والنبى - ﷺ - ذكر كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السأل فانه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع .

فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا .

وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه فى طعامه وشرابه .

وأعظم أنواع الزنا أن يزنى بحليلة جاره ، فإن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق ، فالزنا بالمرأة التى لها زوج أعظم إثما وعقوبة من التى لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج ، وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه ، فهو أعظم إثما وجرما من الزنا بغير ذات البعل ، فإن كان زوجها جارا له إنضاف الى ذلك سوء الجوار ، وإذا أجاره بأعلى أنواع الأذى وذلك من أعظم البوائق ، وقد ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال :(٢) (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) ولا بائقة اعظم من الزنا بإمرأته ، فالزنا بمائة إمرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنا بامرأة الجار ، فان كان الجار أخا له أو قريبا من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم ، فإن كان الجار غائبا فى طاعة الله كالصلاة ، وطلب العلم ، والجهاد ، تضاعف الإثم ، حتى إن الزانى بإمرأة الغازى فى سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقول : خذ من حسناته ما شئت قال - النبى - ﷺ (٣) : (فما ظنكم أى ما ظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم فى أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة الى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقا يجب عليه) فان اتفق أن تكون المرأة رحما منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها ، فإن اتفق على أن يكون الزانى محصنا كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخا كان أعظم إثما وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، فإن اقترن بذلك أن يكون فى شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة ، وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم ، وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الاثم والعقوبة . والله المستعان .

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذى لا يمكن الاحتراز منه ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه لأنه يأخذ الأموال فى الاختفاء ، وينقب الدور ويتسور من غير الأبواب ، فهو كالصقور والحية التى تدخل عليك من حيث لا تعلم ، فلم ترفع مفسدة سرقته إلى القتل ولا تندفع بالجلد ،

---

(١) مسند الامام احمد ج١ ص٣٨٠ ورد هذا الحديث وكذا فى ص٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ من رواية عبد الله مع اختلاف يسير فى بعض الفاظه .
انظر سنن النسائى ج٧ ص٨٢ باب ذكر اعظم الذنوب ورد هذا الحديث عن عبد الله مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه .
سورة الفرقان من الآية : ٦٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الايمان باب بيان تحريم ايذاء الجار ج١ ص٦٨ حديث رقم ٧٣
ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٣) صحيح مسلم كتاب الامارة باب حرمة نساء المجاهدين ، واثم من خانهم فيهن ج٣ رقم ١٥٠٨ برقم ١٣٩ .

فأحسن ما دفعت به مفسدته أبانة العضو الذى تسلط به على الجناية ، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف فدارت عقوباته ـ سبحانه ـ الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة ، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع :

العتق وهو أعلاها .

والاطعام والصيام .

ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام :

قسم فيه الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد .

وقسم لم يترتب عليه حد فشرع فيه كفارة كالوطء فى نهار رمضان ، والوطء فى الإحرام ، والظهار ، وقتل الخطأ والحنث فى اليمين ، وغير ذلك .

وقسم لم يترتب عليه حد ولا كفارة وهو نوعان :

احدهما ما كان الوازع عنه طبيعيا كأكل العذرة ، وشرب البول والدم .

والثانى ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة ، والقبلة واللمس ، والمحادثة ، وسرقة فلس ، ونحو ذلك وشرع الكفارات فى ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ثم عرض تحريمه فباشره فى الحالة التى عرض فيها التحريم كالوطء فى الإحرام ، والصيام ، وطرده الوطء فى الحيض ، والنفاس ، بخلاف الوطء فى الدبر ، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء فى الحيض لا يصح فإنه لا يباح فى وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر .

النوع الثانى : ما عقد لله من نذر ، أو ما لله من يمين ، أو حرمه الله ثم أراد حله ، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة ، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه بعض الفقهاء ، فإن الحنث قد يكون واجبا ، وقد يكون مستحبا ، وقد يكون مباحا ، وإنما الكفارة حل لما عقده .

النوع الثالث : ما تكون فيه جابرة لما فات ككفارة قتل الخطأ ، وان لم يكن هناك إثم ، وكفارة قتل الصيد الخطأ ، وان لم يكن هناك إثم ، فإن ذلك من باب الجوابر .

والنوع الاول من باب الزواجر والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد ولا يجتمع الحد والتعزير فى معصية بل إن كان فيها حد اكتفى به كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه ، وهل يجتمع التعزير والكفارة فى المعصية التى لا حد فيها فيه وجهان ، وهذا كالوطء فى الإحرام ، والصيام ، ووطء الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة .

فقيل : يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية .

وقيل : لا تعزير فى ذلك اكتفاء بالكفارة لانها جابرة وماحية .

وأما العقوبات القدرية فهى نوعان :

نوع على القلوب والنفوس .

ونوع على الأبدان والأموال .
والتى على القلوب نوعان :
أحدهما : آلام وجودية يضرب بها القلب .
والثانى : قطع المواد التى بها حياته وصلاحه عنه ، وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها .
وعقوبة القلوب أشد العقوبتين ، وهى أصل عقوبة الأبدان ، وهذه العقوبة تقوى وتتزايد حتى تسرى من القلب الى البدن ، كما يسرى ألم البدن إلى القلب ، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقا بها ، فظهرت عقوبة القلب حينئذ ، وصارت علانية ظاهرة ، وهى المسماة بعذاب القبر ، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار .
والتى على الأبدان - أيضا - نوعان :
نوع فى الدنيا .
ونوع فى الآخرة . وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رتب عليه فى الشدة والخفة ، فليس فى الدنيا والآخرة شر أصلا إلا الذنوب وعقوباتها ، فالشر اسم لذلك كله وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال ، وهما الأصلان اللذان كان النبى - ﷺ - يستعيذ منها فى خطبته بقوله : (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا) وسيئات الأعمال من شرور النفس فعاد الشر كله إلى شر النفس ، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته .
وقد اختلف فى معنى قوله : ومن سيئات أعمالنا . هل معناه السىء عن أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه ، أو يكون بمعنى من ، وقيل : معناه من عقوباتها التى تسوء ، فيكون التقدير ومن عقوبات أعمالنا التى تسوءنا ، ويرجح هذا القول ان الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر ، فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهى تستلزم العقوبات السيئة ، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها منه أو هى أصله .
ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهو السيئات التى تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام ، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه ، ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم : ﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته﴾[1] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التى تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السىء وقاهم جزاء السىء وإن كان قوله : ﴿ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته﴾ أظهر فى عقوبات الأعمال المطلوب وقايتهم يومئذ .
فإن قيل : فقد سألوه - سبحانه - أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة ، فدل على أن المراد السيئة التى سألوا وقايتها الأعمال السيئة ، ويكون الذى سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبى - ﷺ - ولا يرد على هذا قوله : ﴿ يومئذ ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم . وهى سيئات فى نفسها .
قيل : وقاية السيئات نوعان :

(١) سورة غافر من الآية : ٩

أحدهما وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه .

والثانى : وقاية جزاؤها بالمغفرة فلا يعاقب عليها .

فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية ، وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم ، وقدموا بين يدى استغفارهم وتوسلهم إلى الله - سبحانه - بسعة علمه وسعة رحمته ، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة ، وغير ذلك من سعة علمه الذى لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته ، فانه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شىء .

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل إليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر وترك ما يكره فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل الذى يحبها .

ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التى وعدهم بها ، وهو - سبحانه - وإن كان لايخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب ، من جملتها : دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم الجنة ، يدخلونها برحمته التى منها : أن وفقهم لأعمالها ، وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها ، ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك ، وكمال علمك ، فإن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم وبهاتين الصفتين يقضى - سبحانه وتعالى - ما يشاء ، ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب ، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر ، والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية وهى إما فى القلب ، وإما فى البدن وإما فيهما ، وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم عود الأجسام فى الدار الآخرة ، فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة ، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة ، لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذى لا يشعر بالألم ، فإذا استيقظ وصحا أحس بالمؤلم ، فترتب العقوبات على الذنوب كترتيب الاحراق على النار ، والكسر على الانكار ، والاغتراف على الماء ، وفساد البدن على السموم ، والأمراض للأسباب الجالبة لها ، وقد تقارن المضرة للذنب ، وقد تتأخر عنه إما يسيرا وإما مدة ، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه ، وكثيرا ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه ، ولا يدرى أنه يعمل ، وعمله على التدريج شيئا فشيئا كما تعمل السموم ، والأشياء الضارة حذو القذفة بالقذفة ، فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية ، وإلا فهو صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنبا واحدا لم يتداركه بما يزيل أثره فكيف بالذنب على الذنب كل يوم .. وكل ساعة .. والله المستعان .

فاستحضر بعض العقوبات التى رتبها الله - سبحانه وتعالى - على الذنوب ، وجوز وصولها إليك ،

واجعل ذلك داعيا للنفس إلى هجرانها ، وأنا أسوق إليك منها طرفا يكفى العاقل مع التصديق ببعضه .

فمنها الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، والأقفال على القلوب ، وجعل الأكنة عليها ، والرين عليها ، والطبع عليها ، وتقليب الأفئدة والأبصار ، والحيلولة بين المرء وقلبه ، وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء العبد نفسه ، وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، وصرف القلوب عن الحق وزيادتها مرضا على مرضها ، واركاسها وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة ، كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ انه قال : القلوب أربعة :

فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن .

وقلب أغلف فذلك قلب الكافر .

وقلب منكوس فذلك قلب المنافق .

وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما .

ومنها التثبط عن الطاعة والابتعاد عنها .

ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه ، فيصير النسبة بين القلب وبين الحق الذى لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات وعين الأعمى والألوان ولسان الأخرس والكلام[1] وبهذا يعلم أن الصم والبكم والعمى للقلب بالذات ، والحقيقة والجوارح بالفرض والتبعية . (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)[2] وليس المراد نفى العمى الحسى عن البصر كيف وقد قال تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾[3] .وقال : ﴿ عبس وتولى * ان جاءه الأعمى ﴾[4] وإنما المراد :أن العمى التام على الحقيقة عمى القلب حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى حتى يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبى ـ ﷺ ـ (ليس الشديد بالصرعة ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب) وقوله ـ ﷺ ـ (ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه) ونظائره كثيرة والمقصود أن من عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى أصم أبكم .

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به إلى أسفل سافلين . وصاحبه لا يشعر ، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل ، كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جو الأحوال البر والخير ومعالى الأمور والأعمال والأقوال والأخلاق قال بعض السلف : إن هذه القلوب جوالة : فمنها ما يجول حول العرش ، ومنها ما يجول حول الحشر ، ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه فى أخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما يسمخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ، ومنها ما يمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك . وهذا تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى : ﴿ وما

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٣ ص١٧ ورد الحديث

(٢) سورة الحج من الآية : ٤٦

(٣) سورة النور من الآية : ٦١

(٤) سورة عبس الآيتان : ١ ـ ٢

من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾(١) قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب ، وأخلاق الخنزير ، وأخلاق الحمير ، ومنهم من يتطوس فى ثيابه لحمًا بتطوس الطاووس فى ريشه ، ومنهم من يكون بليدًا كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، قال : منهم من يألف ويؤلف كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمل ، ومنهم الذى هو خير كله كالغنم ، ومنهم أشباه الذئاب ، ومنهم أشباه الثعالب التى يروغ كروغانها ، وقد شبه الله ـ تعالى ـ أهل الجهل والغى بالحمر تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وتقوى هذه المشابهة باطنا حتى تظهر فى الصورة الظاهرة ظهورا خفيا يراه المتفرسون ، ويظهر فى الأعمال ظهورا يراه كل أحد ، ولايزال يقوى حتى تعلو الصورة ، فتنقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام ، فيقلب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم ، ويفعل بقوم من هذه الأمة ويمسخهم قردة وخنازير فسبحان الله كم من قلب منكوس وصاحبه لايشعر ، وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه ، ومغرور بستر الله عليه ، ومستدرج بنعم الله عليه ، وكل هذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها كرامة..

ومنها مكر الله بالماكر ، ومخادعته للمخادع ، واستهزاؤه بالمستهزىء ، وازاغته لقلب الزائغ عن الحق . ومنها نكس القلب حتى يرى الباطل حقا ، والحق باطلا ، والمعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، ويفسد ويرى انه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى انه يدعو إليها ، ويشترى الضلالة بالهدى وهو يرى انه على الهدى ، ويتبع هواه وهو يزعم انه مطيع لمولاه ، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب .

ومنها حجاب القلب عن الرب فى الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾(٢) .

فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم ، فيصلوا اليها ، فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها ويشقيها ، وان يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب اليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتقر به عينا ، وتطيب به نفسا ، بل كانت الذنوب حجابا بينهم وبين قلوبهم وحجابا بينهم وبين ربهم وخالقهم .

ومنها المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا * ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾(٣)وفسرت المعيشة الضنك، بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى ، فإنه ـ سبحانه ـ رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وان تنعم فى الدنيا بأصناف النعم ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى يقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه الأمور أعظم من

(١) سورة الانعام من الآية : ٣٨
(٢) سورة المطففين من الآية : ١٥
(٣) سورة طه من الآية : ١٢٤

سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر فى سكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله - ﷺ - فى دنياه وفى البرزخ ويوم معاده ، ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بأهلها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله - تعالى - انما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحا كما قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾(١) فضمن لأهل الايمان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء فى الدارين ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين** ﴾(٢) ونظيرها قوله تعالى: ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾(٣) .

ففاز المتقون المحسنون بنعم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين ، فان طيب النفس وسرور القلب وفرحته ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة ، والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه ، فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ، وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب ، وقال الآخر : إن فى الدنيا جنة هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة : ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبى - ﷺ - إلى هذه الجنة بقوله : (إذا مررتم برياض الجنة فارتقوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال : ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة)(٤) .

ولا تظن أن قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم * وإن الفجار لفى جحيم** ﴾(٥) يختص بيوم الميعاد فقط ، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة ، وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة ، وأى لذة ونعيم فى الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب - تعالى - ومحبته والعمل على موافقته ، وهل عيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم . وقد أثنى الله - تعالى - على خليله - عليه السلام - بسلامة القلب فقال : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾(٦) وقال حاكيا عنه أنه قال : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾(٧)

والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل ارادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم فى

---

(١) سورة النحل الاية : ٩٧
(٢) سورة النحل الآية : ٣٠ (٣) سورة هود من الآية : ٣
(٤) سنن الترمذى أبواب الدعوات ج٥ ص١٩٤ الحديث ٣٥٧٧ من رواية انس ابن مالك الحديث بلفظه ولم يرد فيه : « وقال : ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة) ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .
(٥) سورة الانفطار الأيتان : ١٣ ، ١٤
(٦) سورة الصافات الأيتان : ٨٣ ، ٨٤ (٧) سورة الشعراء الأيتان : ٨٨ ، ٨٩

جنة معجلة فى الدنيا ، وفى جنة فى البرزخ ، وفى جنة يوم المعاد ، ولا يتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهو يناقض التجريد ، والإخلاص يعم ، وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن إفراد الأشخاص لا تحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله ان يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج إلى شىء منه إلى هذه الدعوة وليس شىء أنفع منها ، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوما وإرادة وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها ، وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه ، وهو من الصراط المستقيم ، وان عجز عنه وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده كسلا وتهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك ، ومانريده قد يفعله وقد لا يفعله وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص ، وقد لا يقوم ، ومايقوم فيه بشروط الإخلاص ، قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه ، وقد صرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار فى الخلق فمستقل ومستكثر ، وليس فى طباع العبد الهداية إلى ذلك كله ، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك وهذا هو الإركاس الذى أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم ، وما حلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب ـ تبارك وتعالى ـ على صراط مستقيم فى قضائه وقدره وأمره ونهيه ، فيهدى من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعل الهداية حيث تصلح ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذى هو عليه فهو على صراط مستقيم ، ونصب لعباده من أمره صراطا مستقيما ، دعاهم جميعا اليه حجة منه وعدلا وهدى من يشاء منهم الى سلوكه نعمة منه وفضلا ، ولم يخرج بهذا الفضل وهذا العدل عن صراطه المستقيم الذى هو عليه ، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطا مستقيما يوصلهم الى جنته ، ثم صرف عنه من صرف فى الدنيا وأقام من أقام فى الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذى كان فى قلوبهم فى الدنيا نورا ظاهرا لهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فى ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه كما حفظ عليهم الإيمان حتى لقوه ، وأطفىء نور المنافقين أحوج ما كانوا اليه ، كما أطفأه من قلوبهم فى الدنيا ، وأقام أعمال العصاة بجنبتى الصراط كلاليب وحسكا تخطفهم كما تخطفهم فى الدنيا عن الاستقامة عليه وجعل على قدر سيرهم وسرعتهم إليه فى الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه فى الدنيا وحرم من الشرب هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا فنظروا إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله ـ سبحانه ـ فى الدارين تعلم حينئذ علما يقينا لاشك فيه أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وعنوانها ونموذجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم فى هذه الدار فى الإيمان والعمل الصالح وضدها وبالله التوفيق فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط فى الدنيا والآخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبد الحميد كشك الداعية الاسلامى قدم إلى مريديه ومحبيه فى العالم الاسلامى العديد من الأحاديث المسجلة التى تحمل الدعوة الاسلامية الخالصة الصادقة الجريئة .

والعصر الذى نعيشه والأجيال الصاعدة التى تمزقها الحيرة بين الخطأ والصواب يدعونا الى أن نعيش الدعوة الاسلامية تاريخها وحقائقها بقدر ما نعيش واقعها ومسيرتها .

واسهاما فى ملء فراغ يشعر به الجميع فى هذا المجال نقدم مكتبة الشيخ عبد الحميد كشك فى :

١ ـ طريق النجاة .
٢ ـ البطولة فى ظل العقيدة .
٣ ـ رياض الجنـــة .
٤ ـ نفحات من الدراسات الاسلامية .
٥ ـ بناء النفوس .
٦ ـ أصحاب النفوس المطمئنة .
٧ ـ حياة الانسان .
٨ ـ مع التوحيد والأخلاق .
٩ ـ اليوم الحـــق .
١٠ ـ صور من عظمة الاسلام .
١١ ـ ارشاد العباد .
١٢ ـ أضواء من الشريعة الغراء .
١٣ ـ البعث والجزاء .
١٤ ـ شفاء القلوب .
١٥ ـ حقائق وحديث عن الروح .
١٦ ـ حديث من القلب .
١٧ ـ الصلاة رأس العبادات .
١٨ ـ الاسلام واصول التربية .
١٩ ـ الوصايا العشر فى القرآن الكريم .
٢٠ ـ ورثة الفردوس .
٢١ ـ الهدى والنور .
٢٢ ـ جدد السفينة .
٢٣ ـ اعد الزاد .
٢٤ ـ الفتوحات الربانية .
٢٥ ـ رحلة الى الدار الآخرة .
٢٦ ـ صم عن الدنيا وافطر على الموت .
٢٧ ـ الصراع بين النفس والمال .
٢٨ ـ اخلص العمل فان الناقد بصير .
٢٩ ـ صاحب الرسالة العصماء .
٣٠ ـ سياحة مباركة .
٣١ ـ فضل القرآن يوم الحشر .
٣٢ ـ مصارع الظالمين .
٣٣ ـ الصلح مع الله .
٣٤ ـ الناس بخير ما تناصحوا .
٣٥ ـ الوقوف بين يدى الله تعالى .
٣٦ ـ على مائدة الاسلام .
٣٧ ـ غذاء الروح .
٣٨ ـ هالات من نور .
٣٩ ـ ساعة صفاء على النفس .
٤٠ ـ فى رحاب السكينة .
٤١ ـ الاسلام شجرة طيبة .
٤٢ ـ اذا ذكر الله نزلت الطمأنينة .
٤٣ ـ رسائل رحمانية النفحات .
٤٤ ـ من جوار الخلق الى رحاب الحق .
٤٥ ـ منطق الحق المبين .
٤٦ ـ فى ساحة الحساب .
٤٧ ـ يارب كيف اشكرك .
٤٨ ـ حديث عن الصالحين .
٤٩ ـ الخوف والرجاء .
٥٠ ـ شعاع من نور الايمان .
٥١ ـ قصة البشرية .
٥٢ ـ سحائب الرحمة .
٥٣ ـ الأمن فى ظل الاسلام .

احمد يحيى

مطابع الأهرام بكورنيش النيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

تسع سنوات ما حجبته قاهرات الظروف عن مريديه وأحبائه صوتاً ، إلا كان فيهم ولهم فكراً أضاء ، وعلماً أفاد ، ومنهجاً فريداً ومتميزاً فى تفسير آيات الكتاب الكريم ...

تسع سنوات شاب فيها شعره ، واعتلت صحته ، عف فيها أن يستجدى عفواً عن جريرة وجهت إليه لأنه بالحق صدع وبه نطق .. وظل فى بيته على القرآن عاكفاً فبدد ظلمات لياليه ، واتسع به ضيق صدره ، وأحال المحنة منحة بها يفرح ، فهو العلم النافع الذى يضيف إلى حسناته إلى قيام الساعة ..

وما أن حجب صوته ، حتى شاع فكره .. فتحولت الآذان الصاغية إليه إلى عيون متلهفة تقرأ وتستوعب من فكره (المطبوع) بالعلم ويقين الفطرة ، وصوت الإيمان ، فكان أن توالت بفضل الله وعونه تفسيراته لأجزاء الكتاب الكريم جزءاً فجزءاً ، حتى أتم الله نعمته عليه وعلى المسلمين وعلينا فكان « فى رحاب التفسير » وخاتمته للجزء الثلاثين من القرآن الكريم ...

إن الداعية الإمام وقد اختتم تفسير أجزاء الكتاب الكريم ، إنما يؤذن فى الناس بأن رسالته لن تنقطع ما أمد الله فى عمره ، وإنه فى رحاب الإسلام يتسع المجال لاجتهاد المجتهد ليؤكد حكمة الأزل بأن متغييرات الزمان والمكان لا تنال من كتاب كان وسيظل للناس نهجاً ومنهجاً ، طريقاً وسبيلاً لصلاح دينهم ودنياهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ..

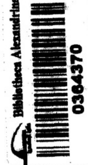
إن تفسير الداعية الإمام لآيات الكتاب الكريم والذى اكتمل الآن - إنما هو إضافة لاجتهاد من سبقوه بمنظار عصره ومعايشة واقعه وإيقاع زمانه ليؤكد ما هو مؤكد بأن الإسلام وكتابه ، إنما هو دين كل زمان ومكان ..

إن هذا العمل العظيم بهذا الجهد المبدع هو دلالة على أن مصر بعلمائها وأعلامها كانت وستظل أبداً بإذن الله للإسلام منارة لهديه وتبشيراً بنهجه .

وبإكمال هذا العمل العظيم هل لنا أن نأمل أن يواكب صدور الجزء القادم من « فى رحاب التفسير » خبر عودة الشيخ إلى منبره واستئنافه رسالته التى ما انقطعت يوماً من الأيام .

نسأل الله سبحانه للداعية الإمام بموفور الصحة والعافية ، كما نسأله سبحانه أن يجعل من عمره المديد بإذنه .. نبعاً يغدق وعلماً ينفع ، وشفاعةله ولنا يوم لا ظل إلا ظله ولا نجاة إلا لمن أتى الله بقلب سليم ، وعمل ينفع عباده المخلصين .

احمد يحيى



مطابع الأهرام بكورنيش النيل